
تفسير
البيضاوى
٤
للإمام البيضاوى

إهــــــــداء٢٠٠٦

المرحوم / علي حسن عبد الكافي
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير البيضاوي

المسمى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

إمام المحققين وقدوة المدققين

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله
ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي
المتوفي ٧٩١ هجرية

تحقيق

أ.د. حمزة النشرتي
الشيخ / عبد الحفيظ فرغلي
أ.د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الرابع

الآيات من ١٩ : ٢٤

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ أي فوجان مختصمان . ولذلك قال : ﴿ اخْتَصَمُوا ﴾ حملا علي المعني ولو عكس لجاز ، والمراد بهما المؤمنون والكافرون . ﴿ فِي رَبِّهِمْ ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته . وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقال اليهود : نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت (٨) . .

مقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فصل لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالي ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٩) .

---

(٨) روي الشيخان في صحيحيهما ـ كتاب التفسير ـ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا في بدر ـ لفظ البخاري ـ ثم قال البخاري عن علي بن أبي طالب قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة . قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي وحمزةوعبيدة ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ انفرد به البخاري . ورواه السيوطي في لباب النقول كذلك .

(٩) الحج : ١٧ .

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ قدرت لهم علي مقادير جثثهم ، وقرئ بالتخفيف . ﴿ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الثياب . ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ حال من الضمير في لهم أو خبر ثان ، والحميم الماء الحار .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في بطونهم تأثيره في ظاهرهم فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودهم ، والجملة حال من الحميم أو من ضميرهم . وقرئ بالتشديد للتكثير .

﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ سياط منه يجلدون بها وجمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف .

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ من النار . ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ من غمومها بدل من الهاء بإعادة الجار . ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أي فخرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج ، وقيل : يضربهم لهيب النار فيرفعهم إلي أعلاها فيضربون بالمقامع فيهوون فيها . ﴿ وَذُوقُوا ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا . ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى النار البالغة في الإحراق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلي الله تعالي وأكده بإن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيما لشأنهم . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من حليت المرأة إذا ألبستها الحلي ، وقرئ بالتخفيف والمعني واحد . ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ صفة مفعول محذوف وأساور جمع أسورة وهو جمع سوار . ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ بيان له . ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ عطف عليها لا علي ذهب لأنه لم يعهد السوار منه إلا أن يراد المرصعة به ، ونصبه نافع وعاصم عطفا علي محلها أو إضمار الناصب مثل ويؤتون ، وروي حفص بهمزتين وترك أبو بكر والسوسي عن أبي عمرو الهمزة الأولي ، وقرئ لؤلوا بقلب الثانية واوا ولوليًا بقلبهما واوين ثم قلب الثانية ياء ، وليليا بقلبهما ياءين ولول كأدل . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ غير أسلوب الكلام فيه للدلالة علي أن الحرير ثيابهم المعتادة ، أو للمحافظة علي هيئة الفواصل .

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وهو قولهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (١٠) أو كلمة التوحيد . ﴿ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ المحمود نفسه أو

(١٠) الزمر : ٧٤ .

عاقبته وهو الجنة ، أو الحور أو المستحق لذاته الحمد وهو الله سبحانه وتعالي وصراطه الإسلام .

الآيات : ٢٥ : ٢٧

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾

الكفار يصدون عن المسجد الحرام

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لا يريد به حالا واستقبالا ، وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم : فلان يعطي ويمنع ، ولذلك حسن عطفه علي الماضي . وقيل : هو حال من فاعل كفروا وخبر إن محذوف دل عليه آخر الآية أى معذبون . ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ عطف علي اسم الله وأوله الحنفية بمكة واستشهدوا بقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ أى المقيم والطارئ علي عدم جواز بيع دورها وإجارتها ، وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾[١١] وشراء عمر رضي الله تعالي عنه دار السجن فيها من غير نكير ، وسواء خبر مقدم والجملة مفعول ثان لجعلناه إن جعل للناس حالا من الهاء ، وإلا فحال من المستكن فيه ، ونصبه حفص علي أنه المفعول أو الحال والعاكف مرتفع به ،، وقرئ العاكف بالجر علي أنه بدل من الناس . ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول ، وقرئ بالفتح من الورود . ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ عدول عن القصد ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بغير حق وهما حالان مترادفان ، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له : أي ملحدا بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام . ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جواب لمن .

---

(١١) الحشر : ٨ .

مكانة المسجد الحرام

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أي واذكر إذ عيناه وجعلناه له مباءة . وقيل : اللام زائدة ومكان ظرف أي وإذ أنزلناه فيه .. وقيل : رفع البيت إلي السماء وانطمس أيا م الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكنست ما حوله فبناه علي أسه القديم . ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أن مفسرة لبوأنا من حيث إنه تضمن معني تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة ، أو مصدرية موصولة بالنهي أي : فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه ، ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة علي أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت ، وقرئ يشرك بالياء وقرأ نافع وحفص وهشام بيتي بفتح الياء .

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ ﴾ ناد فيهم وقرئ وآذن . ﴿ بِالْحَجِّ ﴾ بدعوة الحج والأمر به . روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم ، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج . وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع . ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام ، وقرئ بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجالي كعجالي ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي وركبانا علي كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله . ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفه لضامر محمولة علي معناه ، وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس . ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ طريق . ﴿ عَمِيقٍ ﴾ بعيد ، وقرئ معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق بمعني .

الآيات من ٢٨ : ٣١

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ ليحضروا . ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ دينية ودنيوية ، وتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة . ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها . وقيل : كني بالذكر عن النحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها علي أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالي . ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ هي عشر ذي الحجة ، وقيل : أيام النحر . ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضا علي التقرب وتنبيها علي مقتضي الذكر . . ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ من لحومها أمر بذلك إباحة وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه ، أو ندبا إلي مواساة الفقراء ومساواتهم ، وهذا في المتطوع به دون الواجب . ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ ﴾الذي أصابه بؤس أى شدة . ﴿ الْفَقِيرَ ﴾ المحتاج . والأمر فيه للوجوب وقد قيل به في الأول .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظافر ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال . ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ مما ينذرون من البر في حجهم، وقيل : مواجب الحج . وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث ، وقيل طواف الوداع . وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما . ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، أو المعتق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدمه فمنعه الله تعالي ، وأما الحجاج فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر لمحذوف أى الأمر ذلك ، وهو وأمثاله تطلق للفصل بين كلامين. ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾ أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه ، أو الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف . وقيل : الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ فالتعظيم خير له . ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ ثوابا . ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ إلا المتلو عليكم تحريمه ، وهو ما حرم منها لعارض : كالميتة وما أهل به لغير الله فلا تحرموا منها غير ما حرمه الله كالبحيرة والسائبة . ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها. ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، كأنه

لما حث علي تعظيم الحرمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء علي الله تعالي بأنه حكم بذلك . وقيل : شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال « **عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالي ثلاثا وتلا هذه الآية** » (١٢) . والزور من الزور وهو الانحراف كما أن الإفك من الأفك وهو الصرف ، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع .

﴿ **حُنَفَاءَ لِلَّهِ** ﴾ مخلصين له . ﴿ **غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ وهما حالان من الواو . ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلي حضيض الكفر .. ﴿ **فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ** ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره ، وقرأ نافع وحده فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء . ﴿ **أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة أو للتخيير كما في قوله تعالي ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ (١٣) ، أو للتنويع فإن المشركين من لا خلاص له أصلا، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن علي بعد ، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعني : ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا يشبه أحد الهلاكين .

الآيات من ٣٢ : ٣٥

﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)** ﴾

---

(١٢) اخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن حريم بن فاتك ، وأخرجه الترمذي من روايةالعصفوري عن فاتك بن فضالة عن أنس بن حريم كذا قال ـ من تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر .

(١٣) البقرة : ١٩ .

الهدي من شعائر الله

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه ، أو الهدايا لأنها من معالم الحج وهو أوفق لظاهر ما بعده ، وتعظيمها أن تختارها سمانا غالية الأثمان . روي أنه ﷺ أهدي مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة(١٤) من ذهب ، وأن عمر رضي الله تعالي عنه أهدي نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار . ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوي القلوب ، فحذفت هذه المضافات والعائد إلي من وذكر القلوب لأنها منشأ التقوي والفجور أو الآمرة بهما .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى لكم فيها منافع دَرُّهَا وَنَسْلُهَا وصوفها وظهرها إلي أن تنحر ،، ثم وقت نحرها منتهية إلي البيت أى ما يليه من الحرم ، وثم تحتمل التراخي في الوقت ، والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافع دنيوية إلي وقت النحر وبعده منافع دينية أعظم منها ، وهو علي الأولين إما متصل بحديث الأنعام والضمير فيه لها ، أو المراد علي الأول لكم فيها منافع دينية تنتفعون بها إلي أجل مسمي هو الموت ، ثم محلها منتهية إلي البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال ، أو يكون فيها ثوابها وهو البيت المعمور أو الجنة ، وعلي الثاني لكم فيها منافع التجارات في الأسوق إلي وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلي الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ولكل أهل دين . ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ متعبدا أو قربانا يتقربون به إلي الله ، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر أي موضع نسك . ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه ، علل الجعل به تنبيها علي أن المقصود من المناسك تذكر المعبود . ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها ، وفيه تنبيه علي أن القربان يجب أن يكون نعما . ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتهم .

(١٤) بُرَة : حلقة ـ وهي بضم الباء وفتح الراء بعدها تاء مربوطة ، وتجمع على بُرات وبُرَى ، وتلحق بجمع المذكر السالم فيقال : بُرُون في الرفع وبرين في النصب والجر ـ المعجم الوجيز ـ .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من الكُلَف والمصائب . ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ ﴾ في أوقاتها ، وقرئ والمقيمين للصلاة علي الأصل . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير .

الآيات من ٣٦ : ٣٩

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾

﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة ، وأصله الضم وقد قرئ به وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة ، ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في أجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «**البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة**» تناول اسم البدنة لها شرعا .

بل الحديث يمنع ذلك وانتصابه بفعل يفسره . ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُم ﴾ ومن رفعه جعله مبتدأ . ﴿ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالي ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ منافع دينية ودنيوية . ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلاالله والله أكبر اللهم منك وإليك . ﴿ صَوَافَّ ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وقرئ صوافن من صفن الفرس إذا قام علي ثلاث . وعلي طرف حافر الرابعة لأن البدنة تعقل إحدي يديها فتقوم علي ثلاث ، وقرئ صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف وصوافي أى خوالص لوجه الله ، وصوافي بسكون الياء علي لغة من يسكن الياء مطلقا كقولهم : أعط القوس باريها . ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت علي الأرض وهو كناية عن الموت . ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا

﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ ﴾ الراضي بما عنده وبما يعطي من غير مسألة ويؤيده قراءة القنع ، أو السائل من قنعت إليه قنوعا إذا خضعت له في السؤال . ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ والمعترض بالسؤال ، وقرئ والمعتري يقال عره وعراه واعتره واعتراه . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياما . ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ مع عظمها وقوتها حتي تأخذوها منقادة فتعقلوها وتحبسوها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبانها . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص .

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ ﴾ لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول . ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المتصدق بها . ﴿ وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء . ﴿ وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوي قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالي والتقرب إليه والإخلاص له ، وقيل : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلي الله تعالي فهم به المسلمون فنزلت(١٥) ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ أى لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء . وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح . ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها ، وما تحتمل المصدرية والخبرية وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه (١٦) .

---

(١٥) رواه السيوطي في لباب النقول ، قال : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها . فقال أصحاب النبى ﷺ : فنحن أحق أن نضمخ فأنزل الله الآية .

(١٦) نذكر هنا أحكام الأضحية للفائدة ، ونقلها من تفسير ابن كثير :

قال : اختلف في وجوب الأضحية فمنهم من أوجبها كأبي حنيفة ومالك والثوري على من ملك نصاباً ، واشترط أبو حنيفة الإقامة ، واحتج لهم بحديث رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً ، وهو : « من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا » قال ابن كثير : على أن فيه غرابة .

وقال الشافعي وأحمد بالاستحباب لما جاء في حديث « ليس في المال حق سوى الزكاة » وقد ورد أن النبى ﷺ ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم .

الإذن فى القتال

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ غائلة المشركين ، وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يدافع أي يبالغ فى الدفع مبالغة من يغالب فيه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ فى أمانة الله . ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعمته كمن يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم .

﴿ أُذِنَ ﴾ رخص ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله ﴿ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ المشركين والمأذون فيه محذوف لدلالته عليه ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أى الذين يقاتلهم المشركون . ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت . وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه فى نَيِّف وسبعين آية (١٧) . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعد له بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم .

وقال أبو سريحة : كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما .

وتجزئ الأضحية عن صاحبها وأهل بيته .

وعند الجمهور يجزى الثني من الإبل والبقر والمعز أو الجذع من الضان .

فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة .

ومن البقر ما له سنتان ودخل في الثالثة

ومن المعز ما له سنتان .

وأما الجذع من الضأن فقيل ما له سنة ، وقيل عشرة أشهر ، وقيل ثمانية ، وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه . ـ اختصار تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢ .

(١٧) ذكر السيوطي في لباب النقول : أحرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج النبي ﷺ من مكة فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكُن . فأنزل الله الآية .

الآيات من ٤٠ : ٤٥

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم ﴾ يعني مكة . ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ بغير موجب استحقوه به . ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ على طريقة قول النابغة :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وقيل : منقطع ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين . ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ، وقرأ نافع دفاع وقرأ نافع وابن كثير لهدمت بالتخفيف . ﴿ صَوَامِعُ ﴾ صوامع الرهبانية . ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ بيع النصارى . ﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ كنائس اليهود ، سميت بها لأنها يصلى فيها ، وقيل : أصلها صلُوتا بالعبرانية فعربت . ﴿ وَمَسَاجِدُ ﴾ مساجد المسلمين . ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ من ينصر دينه ، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على نصرهم . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يمانعه شيء .

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء ، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين . وقيل بدل

ممن ينصره. ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ فإن مرجعها إلي حكمه ، وفيه تأكيد لما وعده .

تسلية للنبي ﷺ

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ .

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ .

﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوحدى فى التكذيب . فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه . ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ غير فيه النظم وبنى الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ، ولم يكذبوه وإنما كذبه القبط ولأن تكذيبه كان أشنع وآياته كانت أعظم وأشيع . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت آجالهم المقدرة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى إنكارى عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً .

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بإهلاك أهلها ، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم. ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى أهلها . ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون الجار متعلقا بخاوية ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أى هى خالية وهى على عروشها أى : مطلة عليها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها ، والجملة معطوفة على ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ لا على ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ فإنها حال والإهلاك ليس حال خوائها فلا محل لها إن نصبت كأى بمقدر يفسره أهلكنا وإن رفعته بالابتداء فمحلها الرفع . ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ عطف على قرية ، أى وكم بئر عامرة فى البوادى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ، وقرئ بالتخفيف من أعطله بمعنى عطلة . ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه ، وذلك يقوى أن معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها . وقيل : المراد ببئر بئر في سفح جبل بحضرموت ، وبقصور قصر مشرف على قُلَّته (١٨) كانا لقوم حنظلة بن صفوان من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما (١٩) .

---

(١٨) قُلَّته : بضم القاف : ذروته ورأسه .

(١٩) جاء في تفسير الكشاف : روي أن هذه البئر نزل عليها صالح عليه السلام على أربعة

الآيات من ٤٦ : ٥١

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾

﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا ، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك . ﴿ **فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال . ﴿ **أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم . ﴿ **فَإِنَّهَا** ﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار . وفي تعمى راجع إليه والظاهر أقيم مقامه . ﴿ **لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ عن الاعتبار ، أى ليس الخلل فى مشاعرهم وإنما ألغوا عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى التقليد ، وذكر الصدور للتأكيدونفى التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذى يخص البصر . قيل لما نزل ﴿ **ومن كان في هذه أعمى** ﴾ (٢٠) قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى

آلاف نفر ممن آمن معه ونجاهم الله من العذاب ، وهو بحضرموت ـ وإنما سميت بذلك لأن صالحًا حين حضرها مات ، وهناك بلدة عند البئر اسمها « حاضوراء » بناها قوم صالح ، وأمروا عليهم جلهس بن جلاس ، وأقاموا بها زمانًا ثم كفروا وعبدوا صنمًا ، وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًا فقتلوه ، فأهلكهم الله ، وعطل بئرهم وخرب قصورهم .

وقيل : رسّوه في البئر أي ردموه في البئر ، ولذلك سموا أصحاب الرَّس .

(٢٠) الإسراء : ٧٢ .

أفأكون فى الآخرة أعمى فنزلت ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ (٢١) .

استعجال الكفار العذاب

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ المتوعد به . ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الخلف فى خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يعجل بالعقوبة . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بيان لتناهى صبره وتأنيه حتى استقصر المدد الطوال ، أو لتمادى عذابه وطول أيامه حقيقة ، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فى الإعراب ، ورجع للضمائر والأحكام مبالغة فى التعميم والتهويل وإنما عطف الأولى بالفاء وهذه بالواو ، لأن الأولى بدل من قوله فكيف كان نكير وهذه فى حكم ما تقدمها من الجملتين لبيان أن المتوعد به يحيق بهم لا محالة وأن تأخيره لعادته تعالي . ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمهلتكم . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ مثلكم . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب . ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ وإلي حكمى مرجع الجميع .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به ، والاقتصار على الإنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة فى غيظهم .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لما بدر منهم . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هي الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ بالرد والإبطال . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين مشاقِّين للساعين فيها بالقبول والتحقيق ، من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه لأن كلا م المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عن اللحوق به ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين على أنه حال مقدرة . ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ النار الموقدة ، وقيل اسم دركة .

---

(٢١) الحج : ٤٦ .

الآيات من ٥٢ : ٥٥

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾

قصة الغرانيق وإبطالها

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها ، والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام ، ولذلك شبه النبى ﷺ علماء أمته بهم ، فالنبى أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قيل فكم الرسل منهم قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً (٢٢) .

وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه ، والنبى غير الرسول من لا كتاب له . وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى ، والنبي يقال له ولمن يوحي إليه فى المنام . ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ﴾ زوَّر فى نفسه ما يهواه . ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ فى تَشَهِّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام « **وإنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة** » (٢٣) . ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾

---

(٢٢) أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن أبا ذر سأل النبي ﷺ : كم الأنبياء ؟ وفيه ضعف ... راجع تعليق الحافظ ابن حجر على هذا الحديث في تخريجه لأحاديث الكشاف .

(٢٣) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ١ ص ١٠٦ ، وقال : رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن الأغر المزني ورمز له السيوطي بالصحة والحسن ، ولفظه عنده : مائة مرة .

الشَّيْطَانُ ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه . ﴿ **ثُمَّ يُحْكِمُ الـلَّهُ آيَاتِه** ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلي الاستغراق فى أمر الآخرة. ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ** ﴾ بأحوال الناس . ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما يفعله بهم ، قيل : حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت . وقيل : تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿ والنجم ﴾ فأخذ يقرؤها فلما بلغ ﴿ **ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ (٢٤) وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها ، بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية . وهو مردود عند المحققين، وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه ، وقيل تمنى قرأ كقوله :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِأَوَّل لَيْلَةً   تَمَنَّى دَاوُدُ الزَّبُورَ عَلَي رِسْلٍ

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ . وقد رد أيضاً بأنه يخل بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿ **فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الـــشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** ﴾ لأنه أيضا يحتمله ، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم (٢٥) .

---

(٢٤) النجم : ٢٠ .

(٢٥) قصة الغرانيق مكذوبة ، قال ابن كثير في تفسيره : وهي لم تصح .

وقال المعلق الذي اختصر تفسير ابن كثير وهو الشيخ محمد نسيب الرفاعي :

قصة الغرانيق هذه من أخطر ما وضع الزنادقة ليضربوا التوحيد والرسالة العظمي وليردوا المسلمين عن دينهم الحق . وهذه القصة عدا أنها مكذوبة موضوعة فهي متهافتة ساقطة من وجوه :

١ ـ أنها منافية للعصمة التي هي للأنبياء جميعًا لأن فيها استطاعة تسلط الشيطان على النبى ﷺ في أعظم ما تجب فيه العصمة وهو الوحي ، ومنافية لقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ علة لتمكين الشيطان منه وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل . ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ المشركين . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني الفريقين فوضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم . ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله ، أو تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادته في الإنس من لدن آدم . ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ بالقرآن أو بالله . ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ

---

٢ ـ سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسالة الغرانيق لأن الله يذم فيها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، بقوله تعالى: ﴿ إن هذه إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ فكيف يقول عنها: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى؟ مادحًا إياها على زعمهم ثم يذمها ويقول : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخري * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذًا قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ فهل يعقل أن يمتدح الله الآلهة التي أشركه بها الكفار ثم في آن واحد يذمها ، فحاشا لله أن ينزل ذلك أو أن يتقول رسوله عليه ما لم يقل... هذا ما لم يسلم به عقل ولا يقول به إنسان .

٣ ـ كلمة الغرانيق . لم ترد في نظم شعراء العرب ولا في خطبائهم من أنها وصف لآلهتهم، ولا جرى ذلك على ألسنتهم وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائي أسود وأبيض ، والشباب الأبيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب ـ قاله الشيخ محمد عبده الرسول الذي بعث لتحطيم هذه الآلهة الخبيثة الكاذبة ، وللدعوة لتوحيد الله وحده لا شريك له والذي لم يكذب ـ ويعرف ذلك منه قومه ـ ولا في الجاهلية ، فالذي لم يكذب على الناس كيف يقول على الله ما لم يقله ، فلا أصل إذن لمسالة الغرانيق إلا في الوضع والاختراع قامت به طائفة الذين أخذوا بالكيد للإسلام ـ بتصرف عن كتاب حياة محمد ﷺ لمحمد حسين هيكل . ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢ .

ونضيف : وقد كذب هذه القصة كثير من المفسرين وكثير من العلماء الذين لم يغتروا بما أوردته الروايات التي ضعفوها وأظهروا زيفها ووضعها .

﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالانقياد والخشية . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيما أشكل . ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه .

الشك ديدن الكفار

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ ﴾ في شك . ﴿ مِّنْهُ ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها . ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ القيامة أو أشراطها أو الموت . ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر ، سمى به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كالعقم ، أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً ، فوصف اليوم بوصفها اتساعاً أو لأنه لا خير لهم فيه ، ومنه الريح العقيم لما لم تنشئ مطراً ولم تلقح شجراً ، أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة فيه ، أو يوم القيامة على أن المراد بالساعة غيره أو على وضعه ، موضع ضميرها للتهويل .

الآيات من ٥٦ : ٦١

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ﴾

يوم القيامة ومصير الناس فيه

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ التنوين فيه ينوب عن الجملة التى دلت عليها الغاية أى : يوم تزول مريتهم . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بالمجازاة ، والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وإدخال الفاء فى

خبر الثاني دون الأول تنبيه علي أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى ، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم فلذلك قال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ ولم يقل : هم في عذاب .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾ فى الجهاد . ﴿ أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ الجنة ونعيمها ، وإنما سوى بين من قتل فى الجهاد ومن مات حتف أنفه فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل . روى أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا : يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا فنزلت . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم . ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل في العقوبة .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى الأمر ذلك . ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ولم يزد فى الاقتصاص ، وإنما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو الجزاء للأزواج أو لأنه سببه . ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة . ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ لا محالة (٢٦) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه فى الانتقام وأعرض عما ندب الله إليه بقوله ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢٧) ، وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة ، فإنه تعالي مع كمال قدرته وتعالي شأنه لما كان يعفو

(٢٦) روى السيوطي في لباب النقول سببا لنزول هذه الآية قال : أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ، أنها نزلت في سرية بعثها النبى ﷺ فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام فناشدهم الصحابة وذكروهم بالله الا يتعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام ، فأبى المشركون وقاتلوهم وبغوا عليهم ، فقاتلهم المسلمون ونُصروا عليهم ، فنزلت الآية .

(٢٧) الشوري : ٤٣ .

ويغفر فغيره بذلك أولى ، وتنبيه على أنه تعالى قادر علي العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

من مظاهر قدرة الله

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك النصر . ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ بسبب أن الله تعالي قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض ، جار عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ومن ذلك إيلاج أحد المَلَوَيْنِ في الآخر ، بأن يزيد فيه ما ينقص منه ، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع قول المعاقب والمعاقب . ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما .

الآيات من ٦٢ : ٦٨

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم . ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده ، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه عالمًا بذاته وبما عداه ، أو الثابت الإلهية ولا يصلح لها إلا من كان قادرًا عالمًا . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ إلهًا ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن

عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرأ بالبناء للمفعول فتكون الواو لما فإنه في معنى الآلهة . ﴿ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ المعدوم في حد ذاته ، أو باطل الألوهية . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ على الأشياء . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ على أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر منه سلطانًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ استفهام تقرير ولذلك رفع . ﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ عطف على أنزل إذ لو نصب جوابًا لدل على نفي الاخضرار كما في قولك : ألم تر أني جئتك فتكرمني ، والمقصود إثباته وإنما عدل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه أو لطفه إلي كل ما جل ودق . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ خلقًا وملكًا . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِي ﴾ في ذاته عن كل شيء ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ ﴾ جعلها مذللة لكم معدة لمنافعكم . ﴿ وَالْفُلْكَ ﴾ عطف على ما أو على اسم أن ، وقرئ بالرفع على الابتداء . ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ حال منها أو خبر . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ من أن تقع أو كراهة (٢٨) بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك . ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ إلا بمشيئته وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أن كنتم جمادًا عناصر ونطفًا . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ إذا جاء أجلكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ في الآخرة . ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها .

---

(٢٨) أو كراهة : أي كراهة أن تقع .

اختلاف المناسك باختلاف الأمم

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أهل دين . ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ متعبداً أو شريعة تعبدوا بها ، وقيل : عيداً . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ينسكونه . ﴿ فَلا يُنَازِعُنَّكَ ﴾ سائر أرباب الملل . ﴿ فِي الأَمْرِ ﴾ في أمر الدين أو النسائك لأنهم بين جهال وأهل عناد ، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع ، وقيل : المراد نهي الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء ، أو عن منازعتهم كقولك : لا يضار بك زيد ، وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم ، وقيل : نزلت في كفار خزاعة قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله (٢٩) . وقرئ فلا ينزعنك على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه على أنه من نازعته فنزعته إذا غلبته . ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته . ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق إلى الحق سوي .

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة . ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها ، وهو وعيد فيه رفق .

الآيات من ٦٩ :٧٥

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

---

(٢٩) يعنون بذلك الميتة وكانوا يحلونها .

قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب . ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات . ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه شيء . ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ، أو الحكم بينكم . ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء .

ضلال المشركين في عبادتهم لغير الله

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجة تدل على جواز عبادته . ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله . ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم . ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن . ﴿بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية . ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ الإنكار لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً ، وهذا منتهى الجهالة وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير أو ما يقصدونه من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ يثبون ويبطشون بهم . ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم ، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم . ﴿ النَّارُ ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل قال : ما هو ، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقرئ بالنصب على الاختصاص ، وبالجر بدلاً من شر ، فتكون الجملة استئنافاً كما إذا رفعت خبراً أو حالاً منها . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار .

مثل في التحدي

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلاً ، أو جعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة . ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

* الإعجاز العلمى

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

يحدثنا دكتور / عبد الرازق نوفل في كتابه عالم الحيوان بين العلم والدين فيقول :

إن القرآن الكريم قد تحدي الناس جميعا أن يخلقوا ذبابة ، وهي حشرة ضئيلة واستمر هذا التحدي قائما إلي عصرنا هذا بعد أكثر من أربعة عشر قرنا من نزول القرآن .. وبعد أن تقدم العلم تقدما هائلا بلغت فيه التكنولوجيا ذروتها في التطور ، هل تستطيع أن تصنع ذبابة واحدة ؟!

ويقول علماء الحشرات : « إن الذبابة تختلف عن غيرها من الحشرات ، بل وكل الكائنات الأخرى في أن كل جسمها يكسوه زغب كثيف متداخل ، حتى يستطيع أن يتعلق بالذبابة في كل ناحية من جسمها كل ماتقربه الذبابة .

ويتضاعف هذا الزغب على الأجنحة والسيقان لنفس الغرض ... أما أقدام الذبابة فهي أيضاً تختلف عن أي أقدام ، فهي شاذة التكوين.. فلكل قدم منها ما يشبه الخف ، إلا أنه مكسو بشعر لزج يلتصب به كل ما يمرّ عليه هذا الخف ... وعن طريق هذا الخف اللصاق تستطيع الذبابة أن تسير على السطح الأملس ، وعلاوة على ذلك ، فإن لكل قدم منها أجهزة لاقطة تلقط كل ما يصادفها في طريقها أو تحط عليه .. وبذلك فإن الذبابة لا تترك جراثيم إلا ونقلتها ... ومن ضمن ما تختلف فيه الذبابة عن غيرها أن فمها مكون من خرطوم ينتهى بزائدتين من اللحم الرخو بدلاً من الأسنان . . ولذلك فإنها لا تأكل شيئا حتي تذيبه .. وهي في سبيله تخرج قطرة سائلة من آخر طعام أكلته علي ما تريد أن تأكله حتي تذيبه ، وتمتصه بخرطومها سائلاً . . وهذه القطرات التي تفرزها وتصبها علي ما تريد أكله من طعام فيه ملايين الميكروبات والجراثيم وسمومها .

وقرر العلم أن الذبابة إذ تسلب الإنسان شيئا . فإنها تذيبه وتمتصه عن طريق إفرازاتها التي تصبها من خرطومها .. ثم إنها إذ تذيب ما سلبته ، فإنه يختلط بما صبته . وبذلك يستحيل أن يسترده الإنسان .. بعكس ما تسلبه حشرة أخري ، أو أي كائن آخر . .

أجل .. إن إعجاز القرآن لا يقتصر على الأسلوب البياني.. وإنما فيما حوي من منهج =

للمثل أو لشأنه استماع تدبر وتفكر . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يعنى الأصنام ، وقرأ يعقوب بالياء وقرئ مبنيًا للمفعول ، والراجع إلى ا لموصول محذوف على الأولين . ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره لأن لن بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه ، والذباب من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة وذبان . ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أي للخلق هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة ، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين .﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ جهلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهًا قدر على المقدورات كلها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيل هي أعجز الأشياء ، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له ، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها و استنقاذ ما يختطفه من عندها . قيل : كانوا يطلونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ عابد الصنم ومعبوده ، أو الذباب يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب والصنم يطلب الذباب منه السلب ، أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف بدرجات .

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على خلق الممكنات بأسرها . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم التي يعبدونهاعاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها .

الله أعلم حيث يجعل رسالته

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم ، كأنه لما

* الإعجاز العلمي

علمي . تناول كل شيء حتي الحشرات .

قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، وهو أعلي المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفا لقولهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، والملائكة بنات الله تعالى ، ونحو ذلك . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ مدرك للأشياء كلها .

الآيات من ٧٦ : ٧٨

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ عالم بواقعها ومترقبها . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ وإليه ترجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون .

الأمر بمداومة الصلاة والجهاد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ في صلاتكم ، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونهما أول الإسلام ، أو صلوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخروا له سجداً .﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبدكم به . ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم .

والآية آية سجدة عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ، ولقوله ﷺ : «**فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما لا يقرؤها**» (٣٠) .

---

(٣٠) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨٠ ، وقال : أخرجه أحمد والترمذي

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ ﴾ أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس. وعنه ﷺ أنه رجع من غزوة تبوك فقال :« **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** »(٣١) ﴿حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك : هو حق عالم ، وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالي ومن أجله . ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ، وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعي إليه ،في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشتد القيام به عليكم ، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه ، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شق عليهم لقوله ﷺ : « **إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم** » . وقيل ذلك بأن جعل لهم **من كل** ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة ، وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ منتصبة على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، أو على الإغراء أو على الاختصاص، وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة ، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم . ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل القرآن في الكتب المتقدمة . ﴿وَفِي هَذَا ﴾ وفي القرآن ، والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرئ الله سماكم ، أو لإبراهيم وتسميتهم بمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه كانت

والحاكم والطبراني في الكبير من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، ورمز له السيوطي بالصحة والحسن .

(٣١) ذكره الثعلبي بدون سند ، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر قال : قدم على النبى ﷺ قوم غزاة فقال : قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه » قال : فيه ضعف . وقال الحافظ ابن حجر. هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلي عن ليث بن أبي سليم والثلاثة ضعفاء . . وأورده النسائى في الكنى من قول إبراهيم بن أبي عبلة ، أحد التابعين من أهل الشام . ـ تخريج احاديث الكشاف لابن حجر .

بسبب تسميته من قبل في قوله ﴿ **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾[٣٢]. وقيل : وفي هذا تقديره وفي هذا بيان تسميته إياكم مسلمين . ﴿ **لِيَكُونَ الرَّسُولُ** ﴾ يوم القيامة متعلق بسماكم . ﴿ **شَهِيدًا عَلَيْكُمْ** ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته ، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى . ﴿ **وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ بتبليغ الرسل إليهم .

﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل والشرف ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه . ﴿ **هُوَ مَوْلَاكُمْ** ﴾ ناصركم ومتولي أموركم . ﴿ **فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ هو إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة ، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة .

فضل سورة الحج

عن النبي ﷺ : « **من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي** » [٣٣] .

---

(٣٢) البقرة : ١٢٨ .

(٣٣) ذكره الكشاف ، وقال ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف : أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢٣) سورة المؤمنون مكية
وآياتها ثمان عشر ومائة
وهي مائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثماني عشرة عند الكوفيين (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٦

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) ﴾

وصف المؤمنين

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قد فازوا بأمانيهم وقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وتدل علي ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تقربه من الحال ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صدرت بها بشارتهم ، وقرأ ورش عن نافع قد أفلح بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها ، وقرئ أفلحوا على لغة : أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير ، وأفلح بالضم اجتزاء بالضمة عن الواو ، وأفلح على البناء للمفعول .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم . روى أنه ﷺ كان يصلي رافعًا بصره إلى السماء، فلما نزلت رمي ببصره نحو مسجده (٢) وأنه رأي رجلاً يعبث بلحيته فقال : « لو

---

(١) جاء في تفسيري الكشاف وابن كثير : نزلت هذه السورة بعد سورة الأنبياء .

(٢) رواه السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى الحاكم مسنداً إلى أبي هريرة رضي الله عنه . قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلا : كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فنزلت .

خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »(٣) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ﴾ عما لا يعنيهم من قول أو فعل . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لما بهم من الجد ما شغلهم عنه ، وهو أبلغ من الذين لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسميه وبناء الحكم علي الضمير ، والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً ، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ، والزكاة تقع على المعنى والعين والمراد الأول لأن الفاعل فاعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه أو الثاني على تقدير مضاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ لا يبذلونها .

﴿ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ زوجاتهم أو سُرِّيَّاتهم ، وعلى صلة لحافظون من قولك احفظ على عنان فرسي ، أو حال أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، أو بفعل دل عليه غير ملومين وإنما قال : ما إجراء للماليك مجرى غير العقلاء إذ الملك أصل شائع فيه وإفراد ذلك بعدم تعميم قوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ لأن المباشرة أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمها خطراً . ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ الضمير لحافظون ، أو لمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوها لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك .

وفي النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة روي البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم » فاشتد قوله في ذلك حتى قال : « لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم » . ـ رياض الصالحين للإمام النووي ص ٤٩٢ ـ دار القلم بيروت ـ .

(٣) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٣٥ ولفظه « لو خشع قلب هذا خضعت جوارحه » وقال: رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ورمز له السيوطي بالضعف .

الآيات من ٧ : ١٣

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ﴾

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ المستثني . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ الكاملون في العدوان .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿ رَاعُونَ ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها ، وقرأ ابن كثير هنا وفي المعارج(٤) لأمانتهم على الإفراد ولأمن الإلباس أو لأنها في الأصل مصدر .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الفعل فيه لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعه غير حمزة والكسائى ، وليس ذلك تكريرًا لما وصفهم به أولاً فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها ، وفي تصدير الأوصاف وختمهابأمر الصلاة تعظيم لشأنها (٥) .

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الجامعون لهذه الصفات . ﴿ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ الأحقاء بأن يسموا وراثًا دون غيرهم .

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيمًا لها وتأكيدًا ، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم ، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه . وقيل : إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على

---

(٤) الآية رقم ٣٢ في سورة المعارج .

(٥) في فضل هذه الآيات العشر روي الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان إذا نزل علي رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عناوأرضنا » ثم قال : « لقد أنزل الله على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر .

أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أنث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا (٦).

أطوار خلق الإنسان

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ ﴾ من خلاصة سُلّت من بين الكدر. ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ متعلق بمحذوف لأنه صفة لسلالة أو من بيانية أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلولة فتكون ابتدائية كالأولى، والإنسان آدم عليه السلام خلق من صفوة سلت من الطين، أو الجنس فإنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفًا بعد أدوار. وقيل: المراد بالطين آدم لأنه خلق منه والسلالة نطفته.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ ثم جعلنا نسله فحذف المضاف. ﴿ نُطْفَةً ﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة، وتذكير الضمير على تأويل الجوهر أو المسلول أو الماء. ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ مستقر حصين يعني الرحم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار

الآيات من ١٤ : ١٩

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) ﴾

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء. ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ فصيرناها قطعة لحم. ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ بأن صلبناها.

---

(٦) قال ابن كثير في تفسيره: روي ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ».

﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ مما بقى من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها ، واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات والجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة ،

* الإعجاز العلمي

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا ﴾[سورة الحج]

وقال عز من قائل : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [سورة المؤمنون]

وفي الصحيحين البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : « وكل الله بالرحم ملكًا يقول : أي رب نطفة ؟ أي رب علقة ؟ أي رب مضغة ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقًا قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه » .

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارًا وقد خلقكم أطواراً ﴾ [سورة نوح] .

قال ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وابن زيد : معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر أطوار الإنسان (من تفسير ابن جرير الطبري)

في الآيات الكريمة شريط متكامل لخلق الإنسان وهو يمر بجميع مراحل أطواره طوراً بعد طور وخلقًا بعد خلق حتى يخرج إلى هذه الدنيا . . ثم يواجه مراحل حياته التي تنتهي بالموت . . ثم بعث ونشور لا شك فيهما ولا ريب ثم جنة ونعيم أو جحيم وسعير .

ويبدأ الشريط من التراب أولا يذكرنا ببدء خلق الإنسان كيف أنشأه الله من التراب حتي استوى في أجمل صورة وأحسن تقويم . . تلك هي النشأة الأولي والتراب بعد ذلك مصدر تكوين النطفة والعلقة والمضغة . . ولا يخرج بها عن مرحلتها الطينية إلا تلك النفخة الربانية التي استحق بها آدم عليه السلام التكريم على الملائكة حيث قال لهم رب العزة : ﴿ اسجدوا لآدم فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ وتعزز أن يسجد للمخلوق من الطين ولم ينظر إلى النفخة الإلهية التي حلت في هذا المخلوق الكريم . . ثم هي النفخة تتكرر في كل جنين ترفعه به من وهدة الطين وثقلته إلى شفافية الروح و انطلاقها مع الملأ الأعلى من الملائكة المكرمين .

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما

وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاء باسم الجنس عن الجمع ، وقرئ بإفراد أحدهما وجمع الآخر . ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾(٧) وهو صورة البدن أو

(٧) روي الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم

* الإعجاز العلمي

تشكرون ﴾ [سورة السجدة] .

والنقلة بين مرحلة الطين وخلق آدم ثم مرحلة النطفةوخلق الجنين نقلة بعيدة في الزمان ونقلة بعيدة في الأذهان . . ولذا جاء التعبير فاصلاً بينهمافي الآيتين الكريمتين (في سورة الحج وسورة المؤمنون) بثم .

والمسافة بين النطفة والعلقة مسافة كبيرة في ميزان الخلق وإن كانت غير بعيدة في حساب الزمان . . ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . . . . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما . . ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

ولذا جاء التعبير في النقلة بين النطفة والعلقة بثم إذ البون شاسع بين النطفة سواء كانت نطفة الذكر (الحيوان المنوي) أو نطفة الأنثى (البويضة) أم منهما معاً وهي النطفة الأمشاج والتي تتحرك في قناة الرحم لتصل إلى الرحم (القرار المكين) فتستقر فيه . . لبون شاسع بين هذه النطفة وبين العلقة العالقة بجدار الرحم وا لمكونة من كرة جرثومية لها خلايا خارجية آكلة تعلق وتنشب بجدار الرحم وكتلة خلايا داخلية يخلق الله منها الجنين . . ويظهر فيها (أي في هذه الكتلة) طبقة خارجية وهي الاكتودرم وتكون مسقوفة بتجويف السلي (الأمنيون) . . وطبقة داخلية وهي الانتودرم وتشكل هي سقف كيس المح . ثم تنمو بعد ذلك فيما بين الطبقتين طبقة ثالثة هي الطبقة المتوسطة أو طبقة الميزودرم . . كما قد مر معنا في فصل العلقة . . ولكن النقلة فيما بين العلقةوالمضغة قريبة وتدلف العلقة إلى المضغة دون أن يكون هناك فارق زمني ولا فارق خلقي كبير . . ولذا جاء التعبير عنها بالفاء دلالة على الاتصال بينهما ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ . . وكذلك النقلة من المضغة إلى العظام نقلة سريعة دون فاصل زمني ولا خلقي ولذا جاء التعبير القرآني المعجز ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ واستمر التعبير القرآني المذهل والمعجز لينقلنا من العظام إلى اللحم يكسوها ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ دون فارق زمني ولا خلقي . . وإنما هي مراحل متتابعة متلاحقه . . ثم يبطئ النبض ويأتي فارق زمني وخلقي . ولذا يعبر عنه مرة أخرى بثم ﴿ ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

الروح أو القوى بنخفه فيه أو المجموع ، وثم لما بين الخلقين من التفاوت ، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصب بيضة أفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر . ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ فتعالى شأنه في قدرته وحكمته . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المقدرين تقديراً فحذف المميز لدلالة الخالقين عليه (٨) .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة ، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل وقد قرئ به .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للمحاسبة والمجازاة .

يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد . فوالذي لا إله إلا غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتي ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » وأخرجه الشيخان في صحيحيهما .

(٨) قال السيوطي في لباب النقول : أخرج ابن أبي حاتم عن عمر رضي الله عنه قال : وافقت ربي في أربع : نزلت ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين .. الآية ، فلما نزلت قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال الزمخشري في الكشاف :

وروي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ فنطق بذلك قبل إملائه ، فقال له النبي ﷺ : اكتب هكذا نزلت . فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه ، فأنا نبي يوحي إلي، فلحق بمكة كافراً ، ثم أسلم يوم الفتح .

قال ابن حجر : كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وكان عبد الله بن أبي سرح أحد الذين أهدر النبي ﷺ دمهم يوم الفتح ، ولكن عثمان ابن عفان رضي الله عنه استأمن له النبي ﷺ ، فامنه ، وحسن إسلامه ، واشترك في الفتوح الإسلامية ، وتولي إمارة مصر ، وكان أحد الذين تولوا فتح أفريقيا ، ومات في الصلاة استجابة لدعوة دعاها ... وهذا يصدق الحديث المروي في التعليق رقم ٢٤١ .

من مظاهر قدرة الله تعالى

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ سموات لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل بالنعل وكل ما فوقه مثله فهو طريقة ، أو لأنها طرق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها. ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقات . ﴿ غَافِلِينَ ﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وتدبر أمرها حتي تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره ، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم ، ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ ﴾ فجعلناه ثابتًا مستقرًا . ﴿ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه . ﴿ لَقَادِرُونَ ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله ، وفي تنكير ذهاب إيماء إلي كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ (٩) .

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ ﴾ بالماء . ﴿ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في الجنات . ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ تتفهكون بها . ﴿ وَمِنْهَا ﴾ ومن الجنات ثمارها وزروعها ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ تغذيًا أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم : فلان يأكل من حرفته ، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمروالزبيب والعصيروالدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه .

الآيات من ٢٠ : ٢٦

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ

(٩) الملك : ٣٠

مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) ﴾

الشجرة المباركة

﴿ وَشَجَرَةً ﴾ عطف على جنات وقرئت بالرفع على الإبتداء أي : ومما أنشأنا لكم به شجرة . ﴿ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة ، وقيل بفلسطين ، وقد يقال له طور سينين ولا يخلو من أن يكون الطور للجبل وسيناء اسم بقعة أضيف إليها ، أو المركب منهما علم له كامرئ القيس ، ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة للألف ، لأنه فيعال كديماس من السيناء بالمد وهو الرفعة ، أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب فإنه فيعال ككيسان ، أو فعلاء كصحراء لا فعلال إذ ليس في كلامهم ، وقرئ بالكسر والقصر . ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحباً له، ويجوز أن تكون الباء صلة معدية لتنبت كما في قولك : ذهبت بزيد ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في رواية تنبت وهو إما أن أنبت بمعنى نبت كقول زهير :

رَأَيتُ ذوي الحَاجَاتِ عِنْدَ بُيُوتِهِمْ   قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ (١٠)

أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبساً بالدهن ، وقرئ على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان . ﴿ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ معطوف علي الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر أي : تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنياً يدهن به و يسرج منه وكونه إداماً يصبغ فيه الخبز أي : يغمس فيه للائتدام ، وقرئ وصباغ كدباغ في دبغ .

(١٠) لزهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي من أصحاب المعلقات ، وهو يمدح في هذه القصيدة سنان بن أبي حارثة .

وقطينا : مساكنين لهم ومقيمين معهم وهذا دليل على شدة كرمهم .

وبعد هذا البيت :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا   وإن سُئلوا يعطوا وإن يُسِّروا يغلوا

العبرة من الأنعام

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها . ﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ من الألبان أو من العلف ، فإن اللبن يتكون منه فمن للتبعيض أو للابتداء ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نسقيكم بفتح النون . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فتنتفعون بأعيانها .

﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ وعلي الأنعام فإن منها ما يحمل عليه كالإبل والبقر ، وقيل : المراد الإبل لأنها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة :

سَفِينَةُ بَرٍ تَحْتَ خَدّى زِمَامُهَا (١١) .

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿ وبعولتهن أحق بردهن ﴾ (١٢) . ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ في البر والبحر .

الاعتبار بقصص الماضين ـ قصة نوح

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ إلى آخر القصص مسوق لبيان كفران الناس ما عدد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها . ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ استئناف لتعليل الأمر بالعبادة ، وقرأ الكسائى غيره بالجر على اللفظ . ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه فيهلككم ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانكم نعمه التي لا تحصونها .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ الأشراف . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ لعوامهم . ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن يرسل رسولا . ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ رسلاً . ﴿ مَّا سَمِعْنَا

---

(١١) عجز بيت لذي الرمة وهو بتمامه :

طروقًا وجلب الرحل مشدودة به سفينة بر تحت خدي زمامها

والطروق : الإتيان ليلا ، وجلب الرحل : عيدانه ، شبه ناقته وفوقها رحله وهو مستريح فيه بالسفينة التي تسير في البر .

(١٢) البقرة : ٢٢٨

﴿ بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ يعنون نوحًا عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره ، أو من دعوي النبوة وذلك إما لفرط عنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون ولأجله يقول ذلك ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾ فاحتملوه وانتظروا ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لعله يفيق من جنونه .

﴿ قَالَ ﴾ بعدما أيس من إيمانهم . ﴿ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتهم من العذاب . ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه

الآيات من ٢٧ : ٣٢

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) ﴾

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بحفظنا نحفظه أن تخطئ فيه أو يفسده عليك مفسد . ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بالركوب أو نزول العذاب . ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾.

روي أنه قيل لنوح إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك ، فلما نبع الماء منه أخبرته امرأته فركب ومحله في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة . وقيل : عين وردة من الشام وفيه وجوه أخر ذكرتها في هود . ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ فادخل فيها يقال سلك فيه وسلك غيره قال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾(١٣) . ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من كل أمتي الذكروالأنثى واحدين

(١٣) المدثر : ٤٢ .

مزدوجين ، وقرأ حفص من كل بالتنوين أي من كل نوع زوجين واثنين تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ وأهل بيتك أو من آمن معك . ﴿ إلاَّ من سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره ، وإنما جيء بعلي لأن السابق ضار كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾(١٤) . ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء . ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي ، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(١٥) .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي ﴾ في السفينة أو في الأرض . ﴿ مُنزَلاً مُّبَارَكًا ﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر ، وقرئ منزلاً بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ ثناء مطابق لدعائه أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلاً به إلى الإجابة ، وإنما أفرده بالأمر والمعلق به أن يستوى هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم فإنه يحيط بهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما فعل بنوح وقومه . ﴿ لآيَاتٍ ﴾ يستدل بها ويعتبر أولو الاستبصار والاعتبار . ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم ، أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات وإن هي المخففة واللام هي الفارقة .

قوم عاد

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ هم عاد أو ثمود .

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ هو هود أو صالح ، وإنما جعل القول موضع الإرسال ليدل على أنه لم يأتهم من مكان غير مكانهم وإنما أوحى إليه وهو بين أظهرهم . ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ تفسير لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله . ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله .

---

(١٤) الأنبياء : ١٠١ .
(١٥) الأنعام ٤٥ .

الآيات ٣٣ : ٤٠

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لعله ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ بخلاف قول قوم نوح حيث استؤنف به ، فعلى تقدير سؤال .

﴿ وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب ، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾ ونعمناهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد . ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ في الصفة والحالة . ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد إلى الثاني منصوب محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ فيما يأمركم به . ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ حيث أذللتم أنفسكم ، وإذا جزاء للشرط وجواب للذين قاولُوهُمْ من قومه .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب . ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود ، وإنكم تكرير للأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره ، أو أنكم لمخرجون مبتدأ خبره الظرف المنقدم ، أو فاعل للفعل المقدر جوابًا للشرط والجملة خبر الأول أي : أنكم إخراجكم إذا متم ، أو إنكم إذا متم وقع لأن اسمه جثة .

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ بعد التصديق أو الصحة . ﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أو بعدما توعدون ، واللام للبيان كما في ﴿ هيت لك ﴾ (١٦) كأنهم لما صوتوا بكلمة

---

(١٦) يوسف : ٢٣ .

الاستبعاد قيل : فما له هذا الاستبعاد ؟ قالوا لما توعدون . وقيل : هيهات بمعني البعد ، وهو مبتدأ خبره لما توعدون ، وقرئ بالفتح منونًا للتنكير ، وبالضم منونا على أنه جمع هيهة ، وغير منون تشبيهًا بقبل ، وبالكسر على الوجهين ، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاء .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا فاقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرًا عن التكرير وإشعارًا بأن تعينها مغن عن التصريح بها كقوله :

هي النَّفْسُ مَا حَمَّلْتهَا تَتَحَمَّلُ .

ومعناه لا حياة إلا هذه الحياة لأن إن نافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فكانت مثل لا التي تنفي ما بعدها نفي الجنس . ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يموت بعضنا ويولد بعض . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو . ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فيما يدعيه من إرساله له وفيما يعدنا من البعث . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ عليهم وانتقم لي منهم . ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياي .

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ عن زمان قليل وما صلة لتوكيد معني القلة ، أو نكرة موصوفة . ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب .

الآيات من ٤١ : ٤٦

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) ﴾

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم

فماتوا ، واستدل به على أن القوم قوم صالح . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له ، أو بالعدل من الله كقولك فلان يقضي بالحق . أو بالوعد الصدق . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ شبههم في دمارهم بغثاء السيل وهو حميله كقول العرب : سال به الوادي لمن هلك . ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء ، وبعداً مصدر بعد إذا هلك ، وهو من المصادر التي تنصب بأفعال لا يستعمل إظهارها ، واللام لبيان من دعي عليه بالبعد ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل .

أقوام آخرون بعدهم

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ هي قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .
﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ الوقت الذي حد لهلاكها ومن مزيدة للاستغراق .
﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الأجل .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد ، والياء بدل من الواو كتولج وتيقور والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتنوين على أنه مصدر بمعنى المواترة وقع حالاً ، وأماله حمزة وابن عامر والكسائي . ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ إضافة الرسول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو منتهاه إليهم . ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ في الإهلاك . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لم نبق منهم إلا حكايات يسمر بها ، وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به تلهياً . ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قصة موسى وهارون

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ بالآيات التسع . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وحجة واضحة ملزمة للخصم ، ويجوز أن يراد به العصا وأفرادها لأنها أول المعجزات وأمها ، تعلقت بها معجزات شتي : كانقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة ، وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها ، وحراستهاومصيرها شمعة وشجرة خضراء مثمرة ورشاءَ دلو ، وأن يراد به المعجزات

وبالآيات الحجج ،وأن يراد بهما المعجزات فإنها آيات للنبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبى ﷺ .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ على الإيمان والمتابعة . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين .

الآيات من ٤٧ :٥٣

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كقوله ﴿ **بشرا سويا** ﴾(١٧) كما يطلق للجمع كقوله ﴿ **فإما ترين من البشر أحداً** ﴾(١٨) ولم يثن المثل لأنه في حكم المصدر ، وهذه القصص كما نري تشهد بأن قصارى شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم لما بينهم من المماثلة في الحقيقة وفساده يظهر للمستبصر بأدنى تأمل ، فإن النفوس البشرية وإن تشاركت في أصل القوي والإدراك لكنها متباينة الأقدام فيهما ، وكما تري في جانب النقصان أغبياء لا يعود عليهم الفكر برادة ، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغنياء عن التفكروالتعلم في أكثر الأشياء وأغلب الأحوال ، فيدركون ما لا يدرك غيرهم ويعلمون ما لا ينتهى إليه علمهم ، وإليه أشار بقوله تعالى :﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله و احد** ﴾(١٩) . ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿ لَنَا عَابِدُونَ ﴾ خادمون منقادون كالعباد .

---

(١٧) مريم : ١٧ . (١٨) مريم : ٢٦ . (١٩) الكهف : ١١٠

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ بالغرق في بحر قلزم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة . ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعل بني إسرائيل ، ولا يجوز عود الضمير إلى فرعون وقومه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم . ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى المعارف والأحكام .

قصة عيسى وأمه

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ بولادتها إياه من غير مسيس فالآية أمر واحد مضاف إليهما ، أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزات أخر وأمه آية بأن ولدت من غيرمسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة ، أو دمشق ، أو رملة فلسطين ، أو مصر فإن قراها على الربى ، وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء وقرئ رباوة بالضم والكسر . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ مستقر من الأرض منبسطة . وقيل ذات ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها . ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الإبعاد في الشيء ، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفاع ، أو مفعول من عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مدرك بالعيون وصف ماءها بذلك لأنه الجامع لأسباب التنزه وطيب المكان .

أمر الرسل بتحري الحلال في الرزق فهم قدوة أممهم

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خوطب به في زمانه ، فيدخل تحته عيسى دخولاً أوليًا ويكون ابتداء كلام تنبيهًا على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة ، وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم واحتجاجًا على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا . وقيل : النداء له ولفظ الجمع للتعظيم والطيبات ما يستلذ به من المباحات . وقيل : الحلال الصافي القوام فالحلال ما لا يعصى الله فيه والصافي ما لا ينسى الله فيه والقوام مايمسك النفس ويحفظ العقل . ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم . ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فأجازيكم عليه (٢٠) .

---

(٢٠) روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال رسول الله ﷺ :

الدين أصله واحد مزقه الناس إلى فرق

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ ﴾ أي ولأن هذه والمعلل به فاتقون ، أو واعلموا أن هذه ، وقيل: أنه معطوف على ما تعملون وقرأ ابن عامر بالتخفيف والكوفيون بالكسر على الاستئناف . ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع ، أو جماعتكم جماعةواحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ونصب أمة على الحال . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة .

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ فتقطعوا أمر دينهم جعلوه أديانًا مختلفة ، أو فتفرقوا وتحزبوا وأمرهم منصوب بنزع الخافض أو التمييز ، والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أولها . ﴿ زُبُرًا ﴾ قطعًا جمع زبور الذي بمعني الفرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من الواو ، أو مفعول ثان لتقطعوا فإنه متضمن معنى جعل .وقيل كتبًا من زبرت الكتاب فيكون مفعولاً ثانيًا ، أو حالاً من أمرهم على تقدير مثل كتب ، وقرئ بتخفيف الباء كرسل في رسل . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ من المتحزبين . ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين . ﴿ فَرِحُونَ ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق .

الآيات من ٥٤ :٦٢

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ
(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا
يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)

« يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث اغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك » ورواه أحمد في مسنده بهذا اللفظ .

أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ في جهالتهم شبهها بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها ، وقرئ في غمراتهم. ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى أن يقتلوا أو يموتوا .

استدراج للكفار

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مددًا . ﴿ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ بيان لما وليس خبرًا له ، فإنه غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم خبره .

﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ والراجع محذوف والمعنى: أيحسبون أن الذي نمدهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم . ﴿ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ بل هم كالبهائم لا فطنة لهم و لا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخير ، وقرئ يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيهما ضمير الممد به و يسارع مبنيًا للمفعول .

أوصاف الذين آمنوا وجزاؤهم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ من خوف عذابه . ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ حذرون .

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنصوبة والمنزلة . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديق مدلولها.

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴾ شركًا جليًا ولا خفيًا .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ﴾ يعطون ما أعطوه من الصدقات ، وقرئ يأتون ما أتوا أي يفعلون ما فعلوا من الطاعات . ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ خائفة أن لا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به . ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ لأن مرجعهم إليه ، أو من أن مرجعهم إليه وهو يعلم مايخفى عليهم .

﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال

بالمبادرة إليها كقوله تعالى : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ فيكون إثباتًا لهم ما نفي عن أضدادهم . ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ لأجلها فاعلون السبق أو سابقون الناس إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة ، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى : ﴿ هم لها عاملون ﴾ (٢١) .

﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ قدر طاقتها يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين ، وتسهيله على النفوس . ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ﴾ يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال . ﴿ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة عقاب أو نقصان ثواب .

الآيات من ٦٣ : ٧٠

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) ﴾

قلوب الكفار في غفلة

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قلوب الكفرة . ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ في غفلة غامرة لها . ﴿ مِّنْ هَذَا ﴾ من الذي وصف به هؤلاء أو من كتاب الحفظة . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ خبيثة . ﴿ مِّن دُونِ ذَلِكَ ﴾ متجاوزة لما وصفوا به أو متخطية عما هم عليه من الشرك . ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ معتادون فعلها .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ﴾ متنعميهم . ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ يعنى القتل يوم بدر أو الجوع دعا عليهم الرسول ﷺ فقال : « **اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها**

---

(٢١) المؤمنون : ٦٣ .

عليهم سنين كسني يوسف »[٢٢] . فقحطوا حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرقة . ﴿ **إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ** ﴾ فاجئوا الصراخ بالاستغاثة ، وهو جواب الشرط والجملة مبتدأ بعد حتى ويجوز أن يكون الجواب .

﴿ **لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ** ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا تجأروا اليوم . ﴿ **إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ** ﴾ تعليل للنهي أي لا تجأروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تمنعون منا ، أو لا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا .

﴿ **قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ يعنى القرآن . ﴿ **فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ** ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها ، والنكوص الرجوع قهقري .

اغترار المشركين بقوامة البيت وغفلتهم عما وراء ذلك

﴿ **مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ** ﴾ الضمير للبيت وشهوة استكبارهم وافتخارهم بأنهم قُوَّامه أغنت عن سبق ذكره ، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي والباء متعلقة بمستكبرين لأنه بمعنى مكذبين ، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله : ﴿ **سَامِرًا** ﴾ أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة ، وقرئ سمراً جمع سامر ﴿ **تَهْجُرُونَ** ﴾ من الهجر بالفتح إما بمعني القطيعة أو الهذيان ، أي تعرضون عن القرآن أو تهذون في شأنه أو الهجر بالضم أي الفحش ، ويؤيد الثاني قراءة نافع تهجرون من أهجر وقرئ تهجرون على المبالغة .

﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ أي القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله . ﴿ **أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيل وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسله وأطاعوه .

﴿ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ** ﴾ بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلي غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ﴿ **فَهُمْ لَهُ**

(٢٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

﴿ مُنكِرُونَ ﴾ دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها ، فإن إنكار الشيء قطعًا أو ظنًّا إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص أو بحث عمايدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلاً وأدقهم نظرًا . ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه ، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافًا من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم فكرته لا كراهة للحق .

الايات من ٧١ : ٧٨

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى . ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [٢٣] . وقيل :لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلم يبق ، أو لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ أهواءهم وانقلب شركًا لجاء الله بالقيامة و أهلك العالم من فرط غضبه ، أو لو اتبع الله أهواءهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدر أن يمسك السموات والأرض وهو على أصل المعتزلة . ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾

(٢٣) الأنبياء : ٢٢ .

بالكتاب الذي هو ذكرهم أي وعظهم أو صيتهم ، أو الذكر الذي تمنوه بقولهم ﴿لو أن عندنا ذكرا من الأولين﴾ وقرئ بذكراهم . ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه .

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ قيل إنه قسيم قوله أم به جنة . ﴿خَرْجًا﴾ أجرًا على أداء الرسالة . ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ رزقه في الدنيا أو ثوابه في العقبى . ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم والخرج بإزاء الدخل يقال لكل ما ترجه إلى غيرك ، والخراج غالب في الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه ، وقرأ ابن عامر خرجًا فخرج وحمزة والكسائي خراجًا فخراج للمزاوجة . ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى .

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له ، واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحجة وأزاح العلة في هذه الآيات بأن حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاءها ما عدا كراهة الحق وقلة الفطنة .

إصرار المشركين على كفرهم وعنادهم

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن الصراط السوي . ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ لعادلون عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه .

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني القحط. ﴿لَّلَجُّوا﴾ لثبتوا واللجاج التمادي في الشيء . ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول والمؤمنين . ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى ،روي أنهم قحطوا حتى أكلوا العلهز (٢٤) فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، فقال : قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت .

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر . ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾

---

(٢٤) العلهز : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في أوقات القحط والمجاعة .

بل أقاموا على عُتُوِّهِمْ واستكبارهم ، واستكان استفعل من الكون لأن المفتقر انتقل من كون إلي كون ، أو افتعل من السكون أشبعت فتحته . ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ وليس من عادتهم التضرع وهو استشهاد على ما قبله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنى الجوع فإنه أشد من القتل والأسر . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾متحيرون آيسون من كل خير ، حتى جاءك أعتاهم يستعطفك .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ لتحسوا بها ما نصب من الآيات .

* **الإعجاز العلمى**

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيراً ﴾ الإنسان .

﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ المؤمنون .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ السجدة .

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. النحل

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ الإسراء

جهاز السمع

في كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر ولا تكاد تجد آية قدم فيها البصر على السمع . . ذلك لأن السمع أعظم وأهم من البصر ذاته على عظيم أهمية نعمة البصر .

ويتعلم المولود بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر والأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة أبداً فهو أبكم أيضاً . . بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة . بل اللغات بكل يسر . . وتستطيع أن تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدي نعمة البصر . . ولكنه من العسير أن تعد الآحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع . . وخاصة إذا كان فقد السمع منذ الولادة أو في الطفولة الباكرة . . ولهذا جاء في الآية الكريمة ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ فقدم سبحانه وتعالى ذكر السمع على البصر في معرض سياق الطرق الأساسية التي بها يكتسب الإنسان المعرفة .

ويتكون جهاز السمع العجيب الذي منحنا الله تبارك وتعالى إياه دون أن نقدره حق قدره . . ولا نشكره حق شكره . . يتكون هذا الجهاز من الأذنين ولكل أذن ثلاثة أجزاء .

﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلي غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تشكرونها شكرًا قليلاً لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله ، والإذعان لمانحها من غير إشراك وما صلة للتأكيد .

الآيات من ٧٩ :٨٧

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل . ﴿ وإليه

* الإعجاز العلمى

١) الأذن الخارجية : وتشكل صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية وتنتهي عند طبلة الأذن . . ووظيفتها جمع الأصوات .

٢) الأذن الوسطى : وهي قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاثة : المطرقة ـ الركاب ـ السندان ووظيفتها نقل الأصوات إلى الأذن الداخلية .

٣) الأذن الداخلية : وهي مكونة من جهازين مختلفين تمام الاختلاف : أولهما جهاز السمع المستقبل للأصوات والذي ينقلها بواسطة العصب السمعي إلى المخ (الدماغ) .

والثاني جهاز للتوازن وهو جهاز معقد أيضًا . . وبواسطة قنوات هلالية متصلة ببعضها وبداخلها شعيرات تستطيع أن تميز أي حركة أو اهتزاز أو تغيير في وضع الجسم فترسل بذلك اشارات إلى الدماغ حيث يستقبل هذه المعلومات ويسجلها ويستفيد منها ثم يرسل أوامره إلى الجسم والعضلات لتوائم هذا التغيير . ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن الله سبحانه وتعالي وحد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار . وذلك لأن هناك مركزين للابصار في مؤخر الدماغ بينما نجد أن مركزي السمع في الدماغ (في العضدين الصدغيين) مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بحيث يمكن اعتبارهما مركزًا واحدًا .

﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ويختص به تعاقبهما لا يقدر على غيره فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقة أو لأمره وقضائه تعاقبهما ، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر . ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها ، وقرئ بالياء على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين .

﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ أي كفار مكة . ﴿ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم .

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ استبعاداً ، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ إلا أكاذيبهم التي كتبوها ، جمع أسطورة لأنه يستعمل فيما يتلى به كالأعاجيب والأضاحيك . وقيل جمع أساطر جمع سطر .

﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك ، فيكون استهانة بهم وتقريراً لفرط جهالتهم حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مسكة من العلم إنكاره ، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال :

إقرارهم بالألوهية لله ثم إشراكهم معه شركاء .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقهم . ﴿ قُلْ ﴾ أي بعد ما قالوه . ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إيجادها ثانياً ، فإن بدء الخلق ليس أهون من إعادته . وقرىء تتذكرون على الأصل .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فإنها أعظم من ذلك . ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال . ﴿ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ عقابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته .

الآيات من ٨٨ : ٩٨

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا
اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ملكه غاية مايمكن وقيل خزائنه. ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث من يشاء ويحرسه. ﴿ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ ولايغاث أحد ولايمنع منه، وتعديته بعلي لتضمين معنى النصرة. ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ فمن أين تخدعون فتصرفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة.

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ حيث أنكروا ذلك.

تنزيه الله عن الشريك والولد

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد. ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ يساهمه فى الألوهية. ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ جواب محاجتهم وجزاء شرط حذف لدلالة ماقبله عليه، أى لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين وظهر بينهم التحارب والتغلب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شئ واللازم باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والشريك لما

سبق من الدليل على فساده .

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف وقد جره ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة، وهو دليل آخر على نفي الشريك بناء على توافقهم فى أنه المنفرد بذلك ولهذا رتب عليه .﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾بالفاء .

دعاء يتعلمه النبيﷺ من ربه

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ﴾ إن كان لابد من أن ترينى لأن ما والنون للتأكيد .﴿ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب فى الدنيا والآخرة .

﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾ قريناً لهم فى العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى ﴿ واتقو فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (٢٥) عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه عليه السلام أن له فى أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فامره بهذا الدعاء وتكرير النداء ،وتصدير كل واحد من الشرط والجزاء به فضل تضرع وجؤار.

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُون ﴾ لكنا نؤخره علمنا بأن بعضهم أوبعض أعقابهم يؤمنون ، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ، ولعله رد لإنكارهم الموعود واستعجالهم له استهزاء به ، وقيل قد أراه: وهو قتل بدر أو فتح مكة.

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ وهو الصفح عنها والإحسان فى مقابلتها لكن بحيث لم يؤد إلى وهن فى الدين وقيل هي كلمة التوحيد والسيئة الشرك ، وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل .﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم فوكل إلينا أمرهم.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين ﴾ وساوسهم ، وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض ، شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الراضة للدواب على المشي والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف إليه .

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ يحوموا حولى فى شئ من الأحوال، وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه .

---

(٢٥) الأنفال : ٢٥ .

الآيات من ٩٩ : ١٠٦

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾.

حال الكفار عند الاحتضار

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ متعلق بيصفون ، وما بينهما اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يزله عن الحلم ويغريه على الانتقام أو بقوله إنهم لكاذبون. ﴿ قَالَ ﴾ تحسرا على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة لما اطلع على الأمر. ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ردونى إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب، وقيل: لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قفا وأطرقا.

﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ فى الإيمان الذى تركته أى لعلى آتى الإيمان وأعمل فيه، وقيل: فى المال أوفى الدنيا، وعنه عليه الصلاة والسلام ، قال: إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلي الله تعالى ، وأما الكافر فيقول رب ارجعون » .﴿ كَلَّا ﴾ ردع من طلب الرجعة واستبعاد لها .﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ ﴾ معنى قوله ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾الخ، والكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضهامع بعض ، ﴿ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ لامحالة لتسلط الحسرة عليه .﴿ وَمِن وَرَائِهِم ﴾ أمامهم والضمير للجماعة. ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة ، وهو إقناط كل عن الرجوع إلي الدنيا لما علم أنه لارجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوع فيه إلي حياة تكون فى الآخرة.

حال الناس يوم البعث

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ لقيام الساعة والقراءة بفتح الواو وبه وبكسر الصاد

يؤيد أن الصور أيضا جمع الصورة. ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضا لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾(٢٦) لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة، أو دخول أهل الجنة الجنة والنار النار.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزونات عقائده وأعماله، أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله تعالي وقدر، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزن، وهم الكفار لقوله تعالى ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾(٢٧) ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثان لأولئك.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيرا. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان، وقرئ كلحون.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أى يقال لهم ألم تكن. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيب وتذكيرلهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ملكتنا بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة. وقرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بالفتح كالسعادة وقرئ بالكسر كالكتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

الآيات من ١٠٧ : ١١٣

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

(٢٦) الطور: ٢٥ .

(٢٧) الكهف : ١٠٥ .

الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ من النار ، ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى التكذيب .﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ اسكتوا سكوت هوان في النار فإنهاليست مقام سؤال من خسأت الكلب إذا زجرته فخسأ.﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فى رفع العذاب أو لاتكلمون رأسا. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ربنا أبصرنا وسمعنا، فيجابون: حق القول مني : فيقولون ألفاً : ربنا أمتنا اثنتين ، فيجابون : ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، فيقولون ألفاً : يامالك ليقض علينا ربك، فيجابون : إنكم ماكثون ، فيقولون ألفاً : ربنا أخرنا إلى أجل قريب، فيجابون : أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ، فيقولون ألفاً : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً ، فيجابون :أولم نعمركم، فيقولون ألفاً : رب ارجعون ، فيجابون : اخسئوا فيها ثم لايكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء.

﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الشأن وقرئ بالفتح أى لأنه، ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي ﴾ يعنى المؤمنين ، وقيل: الصحابة ، وقيل: أهل الصفة. ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ هزوا وقرأ نافع وحمزة والكسائى هنا وفى ص بالضم، وهما مصدر سخر زيدت فيهما ياء النسب للمبالغة ، وعند الكوفيين المكسور بمعنى الهزء و المضموم من السخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿ حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم فلم تخافونى فى أوليائى.

﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على أذاكم .﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به ، وهو ثانى مفعولى جزيتهم ، وقرأ حمزة والكسائى بالكسر استئنافاً.

﴿ قَالَ ﴾ أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى على الأمر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار . ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أحياء أو أمواتاً فى القبور. ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ تمييز لكم .

﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ استقصارا لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم فى النار ، أو لأنها كانت أيام سرورهم وأيام السرور قصار، أو لأنها منقضية والمنقضى فى حكم المعدوم، ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها ، أو الملائكة الذين يعدون أعمار الناس ويحصون أعمالهم ، وقرئ العادين بالتخفيف أى الظلمة فإنهم يقولون مانقول ، والعاديين أى القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون .

الآيات من ١١٤ : ١١٨

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائى قل . ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ تصديق لهم في مقالهم .

لم يخلق الله الخلائق عبثا

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ توبيخ على تغافلهم ، وعبثًا حال بمعنى عابثين أو مفعول له أي : لم نخلقكم تلهيا بكم وإنما خلقناكم لنتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم وهو كالدليل على البعث . ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ معطوف على أنما خلقناكم وعبثًا، وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم .

تنزيه الله تعالى عن الشريك

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ الذي يحق له الملك مطلقًا فإن من عداه مملوك

بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له . ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام وينزل منه محكمات الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين . وقرئ بالرفع على أنه صفة الرب .

وعيد المشركين

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ يعبده إفراداً أو إشراكًا. ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ صفة أخرى لإلهًا لازمة له فإن الباطل لا برهان به ، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهًا على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك :﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنـدَ رَبِّهِ ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه .﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ إن الشأن وقرئ بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابه عدم الفلاح. بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

فضل سورة المؤمنين

عن النبي ﷺ « من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت »(٢٨) . وعنه ﷺ أنه قال : « **لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ،ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتي ختم العشرة**»(٢٩) وروي : « **أن أولها وآخرها من كنوز الجنة ، من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح** »(٣٠) .

---

(٢٨) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ولم يذكر له إسنادا .

(٢٩) سبق تخريجه .

(٣٠) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف وقال الحافظ ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف : لم أجده .

سورة النور مدنية (١)

وآياتها أربع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٣

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

﴿ سُورَةٌ ﴾(٢) أى هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة. ﴿ أنزلْنَاهَا ﴾ صفتها ومن نصبها جعله مفسرا لناصبها فلايكون له محل إلا إذا قدر اتل أو دونك نحوه، ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ وفرضنا مافيها من الأحكام ، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها أو المفروض عليهم ، أو للمبالغة في إيجابها .﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتتقون المحارم وقرئ بتخفيف الذال.

حد الزاني والزانية

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ أو فيما فرضنا أو أنزلنا حكمها وهو الجلد، ويجوز أن يرفعا بالابتداء والخبر :﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ والفاء لتضمنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى ا لذى ، وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من نصب سورة لأجل الأمر ، والزان بلا ياء ،وإنما قدم الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق

---

(١) في مختلف التفاسير : نزلت هذه السورة بعد سورة الحشر .

(٢) تنكير كلمة سورة في أولها يشير إلى تعظيم شأن هذه السورة وما تتضمنه من أخبار وأحكام وتوجيهات وإشارات، فمن أغراض التنكير التعظيم وإثارة الاهتمام وجذب الانتباه .

بالإضافة إليها ، والجلد ضرب الجلد وهو حكم يخص بمن ليس بمحصن لما دل على أن حد المحصن هو الرجم، وزاد الشافعى عليه تغريب الحر سنة لقوله عليه الصلاة والسلام « **البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»(٣) وليس فى الآية مايدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخا مقبولا أو مردودا ، وله في العبد ثلاثة أقوال.

والإحصان : بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة فى نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلام أيضا وهو مردود برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين (٤) ولايعارضه « **من أشرك بالله فليس بمحصن** » (٥) إذ المراد بالمحصن الذي يقتص له من المسلم .

﴿ **وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ** ﴾ رحمة. ﴿ **فِي دِينِ اللَّهِ** ﴾ فى طاعته وإقامة حده فتعطلوه أن تسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « **لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها** » (٦) وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة وقرئت بالمد على فعالة. ﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجد فى طاعة الله تعالى والاجتهاد فى إقامة حدوده وأحكامه ، وهو من باب التهييج.

﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ زيادة فى التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب، والطائفة فرقة يمكن أن تكون حافة حول شئ من الطوف، وأقلها ثلاثة ، وقيل: واحدٌ أو اثنان ، والمراد جمع يحصل به التشهير.

﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ﴾

إذ الغالب أن المائل إلى الزنا لايرغب فى نكاح الصوالح، والمسافحة لايرغب فيها الصلحاء ، فإن المشاكلة علة للألفة والتضام ، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق ، وكان حق المقابلة أن يقال والزانية لاتنكح إلا من هو زان أومشرك ، لكن المراد بيان أحوال الرجال فى الرغبة فيهن ، لأن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية ولذلك قدم

(٣) أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ في أثناء حديث.

(٤) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه إسحاق والدارقطني تفرد برفعه إسحاق .

(٦) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

الزانى (٧) ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنه تشبه بالفساق وتعرض للتهمة وتسبب لسوء القالة والطعن فى النسب وغير ذلك من المفاسد ، ولذلك عبر عن االتنزيه بالتحريم مبالغة. وقيل: النفى بمعنى النهى ، وقد قرئ به والحرمة على ظاهرها والحكم مخصوص بالسبب الذي ورد فيه ، أومنسوخ بقوله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ (٨) فإنه يتناول المسافحات ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لايحرم الحلال، وقيل المراد بالنكاح الوطء فيؤول إلي نهى الزانى عن الزنا إلا بزانية ، والزانية أن يزنى بها إلا زان ، وهو فاسد(٩) .

---

(٧) روي السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول قال :
أخرج النسائى عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول ، وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله الآية .
قال : وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مزيد يحمل من الأنبار إلى مكة حتى ياتيهم، وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق، فاستأذن النبي ﷺ أن ينكحها ، فلم يرد عليه شيئا، حتي نزل ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : يا مزيد : الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . . .فلا تنحكها » .
وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال :لما حرم الله الزنا، فكان زوان عندهن جمال ، فقال الناس : لينطلقن فليتزوجن . فنزلت .
(٨) النور : ٣٢ .
(٩) تعليق على حكمة تحريم الزنى في الإسلام
حول جريمة الزنى وآثاره المدمرة نذكر ملخص ما جاء في كتاب « الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم » :
بعد أن شاعت فاحشة الزنا وتعددت المعاشرة الجنسية بن الرجال والنساء ظهر مرض جديد لم يكن معروفا عند الأسلاف وهو مرض « الهربس» وهذا المرض فتك بعشرين مليونا من الأمريكيين عام ٨٢ م وفي كل عام يزداد العدد بالمصابين الجدد بحوالي نصف مليون مصاب، وذكر سببه وهو فيروس خاص يسمى الهربس ، وهذا المرض الوبائى ينتشر بسرعة لدرجة أنه ينتقل من إنسان إلى آخر إذا تعاقبا على الجلوس في دورات المياه .
وذكر أيضا مرض الإيدز وخطورته وسرعة انتشاره،وأشار إلى أن المريض يفقد مناعته

. . . .

المكتسبة لدرجة أنه إذا أصيب الإنسان بسعال خفيف قد يتحول إلى ذبحة صدرية أو التهاب رئوي تؤدي به إلى القبر .

وقال أيضا : انظروا الحكمة من حديث رسول الله ﷺ حيث أخبر بحديث صحيح قبل أربعة عشر قرنا : « ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتي يلعنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا » رواه مالك .

فمن أخبر محمدا ﷺ أن هذا عقاب جماعي للذين يتجاهلون سنن الله وأوامره . . . لقد حرم الله الزني لحكمة نبيلة ، فآثاره مدمرة للفرد والمجتمع على السواء ، فينتج عنه الأمراض المختلفة مثل الزهري ومضاعفاته الأليمة ، والسيلان، والقرحة الرخوة، والقرحة الأكالة، وسنط التناسل وهربس التناسل والعقم والجرب وقمل العانة ، وأنواع كثيرة من الأمراض الجلدية الفطرية ، بالإضافة إلى الأمراض الخلقية والنفسية والاجتماعية ، واختلاط الأنساب، وما ينتج عن ذلك من تدمير وهلاك للمجتمع . والصورة ماثلة في المجتمعات الإباحية الهابطة . والحكيم يعتبر من هذا كله . قال تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [الإسراء :٣٢].

وقد نشرت إحدى المجلات الأمريكية في عدد إبريل ١٩٧٧م لأحد الأطباء الأمريكان ، وهو البروفسور وليم بيكرز الذي عمل في البلاد العربية مدة عشرين عاما ، وهو اخصائى في أمراض النساء والتوليد يقول :

إن أطهر الفروج التي فحصها كانت في الجزيرة العربية ، وقد فحص أكثر من ثلاثين ألف امرأة بدوية فحوصا متكاملة مع أخذ عينات لفحصها تحت المجهر، وجميعها كانت سليمة من الالتهابات المهبلية وخاصة بالفطريات والسوطيات ، كما كانت جميعها خالية من سرطان عنق الرحم ، ويرجع ذلك إلى ندرة الزنى في بلاد الإسلام والعرب ، كما يرجع ذلك إلى اختتان الرجال هناك، وقرر بعد ذلك ألا يفحص امرأة بدوية حيث تأكد أنه لا يوجد مرض حقيقي فيها.

وفي نفس العدد تقرير آخر من فلوريدا بأمريكا قام به فريق من أخصائى النساء والولادة جاء فيه :

إن هناك زيادة في الأمراض بنسبة ٨٠٠٪ في خلال أربع سنوات في الفترة ما بين سنوات ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ، وهذه النسبة في الحالات المشتبهة بها كسرطان عنق الرحم ، وذلك للفتيات من ١٥ ـ ٢٢ عاما . ويرجع الباحثون هذه الزيادة الرهيبة إلى الزيادة المضطردة في الممارسات الجنسية بدون تمييز ـ أي الزنى ـ وإلي زيادة استعمال حبوب منع الحمل .

الآيات من ٤ : ٦

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) ﴾.

عقاب جريمة قذف المحصنات

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ يقذفونهن بالزنا لوصف المقذوفات بالإحصان، وذكرهن عقيب الزواني واعتبار أربعة شهداء بقوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ والقذف بغيره مثل يافاسق وياشارب الخمر يوجب التعزير كقذف غير المحصن، والإحصان هاهنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا ، ولافرق فهي بين الذكر والأنثى، وتخصيص المحصنات لخصوص الواقعة أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، ولايشترط اجتماع الشهود عند الأداء ولاتعتبر شهادة زوج المقذوفة خلافا لأبي حنيفة، وليكن ضربه أخف من

وفي الكتاب نفسه جاء تحت عنوان : الفاحشة وعقابها الدنيوي :

في هذه الأيام تجتاح الأوساط الطبية والشعبية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية موجة عارمة من الذعروالهلع ، سببها مرض ظهرمنذ سنوات قليلة في الولايات المتحدة ثم انتشر منها بسرعة إلى كثير من البلدان حتى بلغت ضحاياه الآلاف خلال فترة وجيزة ، لقدأطلق على هذا المرض اسم الأيدز ، وهو الأحرف الأولى من اسمه بالأنكليزية الذي يعنى النقص المكتسب في مناعة الجسم تجاه الأمراض .

لقد أصبح من الثابت الآن أن العدوى بهذا المرض تتم بانتقال الفيروسات من دم الشخص المصاب أو الحامل لها إلى دم الشخص السليم ، وأن الطريق الرئيسي لهذا الانتقال هي الاتصالات الجنسية الشاذة : اللواط والزنا ، واستعمال الإبر الملوثة بهذا الفيروس كما هو شائع عند المدمنين على حقن المخدرات .

راجع كتاب الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم د. سليمان عمر قوش ص ٥٣ وما بعدها . . دار الحرمين بالدوحة .

ضرب الزنا لضعف سببه واحتماله ولذلك نقص عدده. ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً ﴾ أى شهادة كانت لأنه مفتر، وقيل: شهادتهم فى القذف ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجلد خلافا لأبى حنيفة فإن الأمر بالجلد والنهى عن القبول سيان فى وقوعهما جوابا للشرط لا ترتيب بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحاله قبل الجلد أسوأ مما بعده. ﴿ أَبَدًا ﴾ مالم يتب، وعند أبي حنيفة إلي آخر عمره، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المحكوم بفسقهم.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ عن القذف. ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف، والاستثناء راجع إلى أصل الحكم وهو اقتضاء الشرط لهذه الأمور ولايلزمه سقوط الحد به كما قيل، لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال، ومحل المستثنى النصب على الاستثناء، وقيل: إلى النهى، ومحله الجر على البدل من هم فى لهم، وقيل: إلى الأخيرة ومحله النصب لأنه من موجب، وقيل: منقطع متصل بما بعده، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ علة للاستثناء.

أحكام اللعان

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾نزلت فى هلال بن أمية رأى رجلا على فراشه (١٠) وأنفسهم بدل من شهداء أوصفة لهم

(١٠) جاء في لباب النقول للسيوطي : أخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف أمراته عند النبي ﷺ فقال : « البينة أو حدٌ في ظهرك » فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟فجعل النبى ﷺ يقول : « البينة أو حد في ظهرك » فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد : فنزل جبريل ، فانزل عليه : ﴿و الذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ قال : وأخرجه أحمد بلفظ : لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : اهكذا نزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار الا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ .. قالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امراة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها

على أن إلا بمعنى غير . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم ، وأربع نصب على المصدر وقد رفعه حمزة والكسائي وحفص على أنه خبر شهادة، ﴿ بِاللَّهِ ﴾ متعلق بشهادات لأنها أقرب وقيل: بشهادة لتقدمها .﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى فيما رماها به من الزنا ، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنه باللام تأكيدا.

من شدة غيرته ـ فقال سعد :والله يا رسول الله إني أعلم أنها حق وأنها من الله ، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أنحيه ولا أحركه حتي آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتي بهم حتي يقضي حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرا حتي جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عندأهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه ، لم يهجه حتى أصبح فغدا إلى رسول الله ﷺ وقال له : إني جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت باذني . فكره رسول الله ﷺ ماجاء به واشتد عليه . واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة . الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس .

فقال هلال :والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجا ، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه أنزل الله عليه الوحي فامسكوا عنه حتى يفرغ من الوحي ، فنزلت ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ الآية .

وأخرج ابو يعلي مثله من حديث أنس .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال : اسأل رسول الله ﷺ : أرأيت رجلا وجدمع امرأته رجلا فقتله أيقتل به ؟ أم كيف يصنع ؟فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ السائل ، فلقيه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ فعاب السائل. قال عويمر :فوالله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه . فسأله فقال :إنه أنزل فيك وفي صاحبتك الآية .

قال القرطبي في تفسيره : يجوز نزول الآية مرتين .مرة في شأن هلال، ومرة في شأن عويمر.

وأخرج البزار من طريق زيد بن مطيع عن حذيفة قال :قال رسول الله ﷺ لأبي بكر :لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا به ؟ قال :كنت فاعلا به شرا . قال :وأنت يا عمر ؟ قال : كنت أقول: لعن الله الأعجز وإنه لخبيث . فنزلت .قال الحافظ ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب .

الآيات من ٧ : ١١

﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ .

﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾ والشهادة الخامسة . ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى الرمى هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه ، وحصول الفرقة بينهما بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله ﷺ « **المتلاعنان لا يجتمعان أبدا** » وتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد أن تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة لقوله

﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ أي الحد . ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماني به .

﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في ذلك ورفع الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبر أو بالعطف على أن تشهد ، ونصبها حفص عطفا على أربع . وقرأ نافع ويعقوب أن لعنة الله وأن غضب الله بتخفيف النون فيهما وكسر الضاد وفتح الباء من غضب ورفع الهاء من اسم الله ، والباقون بتشديد النون فيهما ونصب التاء وفتح الضاد وجر الهاء .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ متروك الجواب للتعظيم أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة .

قصة الإفك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب من الإفك ، وهو الصرف لأنه قول مأفوك عن وجهه ، والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله تعالى

عنها .وذلك أنه ﷺ استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلة في القفول بالرحيل ، فمشت لقضاء حاجة ثم عادت إلي الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت لتلتمسه ، فظن الذي كان يرحلها أنها دخلت الهودج فرحله علي مطيتها وسار ، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمة أحداً فجلست كي يرجع إليها منشد ، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله تعالى عنه قد عرس وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها فقادها حتى أتيا الجيش فاتهمت به .

﴿ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ جماعة منكم وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبد الله بن أبي ، وزيدبن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ، وهي خبر إن وقوله : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ مستانف والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم والهاء للإفك .﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشرة آية في براءتكم، وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيراً .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ لكل جزاء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به .﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ ﴾ معظمه وقرأ يعقوب بالضم وهو لغة فيه . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الخائضين وهو ابن أبي فإنه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله ﷺ ، أو هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاه بالتصريح به ، والذي بمعني الذين . ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة أو في الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أُبَيّ مطروداً مشهوراً بالنفاق ، وحسان أعمى أشل اليدين ، ومسطح مكفوف البصر .

الآيات من ١٢ : ١٦

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ

لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ لَوْلَا ﴾ هلا . ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[11] وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضى ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم . وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه منزل منزلته من حيث إنه لا ينفك عنه وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره ، وذلك لأن ذكر الظرف أهم فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله . ﴿ وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال .

﴿ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله أي في حكمه ، ولذلك رتب الحد عليه .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لولا هذا لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ورحمته في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدرين لكم . ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلا. ﴿ فِي مَا أَفَضْتُمْ ﴾ خضتم . ﴿ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه اللوم والجلد .

﴿ إِذْ ﴾ ظرف لمسكم أو أفضتم . ﴿ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال : تلقى القول كتلقفه وتلقنه، قرئ تتلقونه على الأصل ، وتلقونه من لقيه إذا لقفه ، وتِلقونه بكسر حرف المضارعة، وتلقونه من إلقائه بعضهم على بعض ، وتلقونه وتألقونه من الألق والألق وهو الكذب، وتثقفونه من ثقفته إذا طلبته فوجدته وتقفونه أي تتبعونه . ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب . ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾

---

(١١) الحجرات : ١١

لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى: ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم** ﴾[١٢] . ﴿ **وتحسبونه هيناً** ﴾ سهلاً لا تبعة له . ﴿ **وهو عند الله عظيم** ﴾ في الوزر واستجرار العذاب ، فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم ، تلقي الإفك بألسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم .

﴿ **وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا** ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا . ﴿ **أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا** ﴾ يجوز أن تكون الإشارة إلى القول المخصوص وأن تكون إلى نوعه ، فإن قذف آحاد الناس محرم شرعاً فضلاً عن تعرض الصديقة ابنة الصديق حرمة رسول الله ﷺ . ﴿ **سُبْحَانَكَ** ﴾ تعجب من ذلك الإفك أو ممن يقول ذلك ، وأصله أن يذكر عند كل متعجب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله ثم كثر فاستعمل لكل متعجب ، أو تنزيه لله تعالى من أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج ، بخلاف كفرها ، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله : ﴿ **هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها .

الآيات من ١٧ : ٢٢

﴿ **يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)** ﴾

---

(١٢) آل عمران ١٦٧ .

﴿ يَعظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمثْلِه ﴾ كراهة أن تعودوا أو في أن تعودوا . ﴿ أَبَدًا ﴾ ما دمتم أحياء مكلفين . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه وفيه تهييج وتقريع .

﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بالأحوال كلها .﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكشخنة(١٣) على نبيه ولا يقرره عليها .

توجيهات للمؤمنين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾ يريدون .﴿ أَن تَشِيعَ ﴾ أن تنتشر . ﴿ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ ما في الضمائر .﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهر والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف قوله :﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ على حصول فضله ورحمته عليهم وحذف الجواب وهو مستغني عنه بذكره مرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ بإشاعة الفاحشة ، وقرئ بفتح الطاء وقرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو بكروحمزة بسكونها . ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ بيان لعلة النهي عن اتباعه ، والفحشاء ما أفرط قبحه ، والمنكر ما أنكره الشرع .﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿ مَا زَكَى ﴾ ما طهر من دنسها . ﴿ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ آخر الدهر . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ بحمله على التوبة وقبولها . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالهم .﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم(١٤) .

---

(١٣) الكشخنة : الدِّياثة ـ حاشية الكشاف ـ ولعلها كلمة مولدة .

(١٤) قصة الإفك كما رواها الشيخان وجاءت في أسباب النزول :

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج

....

بها، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي ، فخرجت معه ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فانا أُحمَل فى هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت فمشيت حتي جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ،فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه .

قالت :وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، فبعثوا الجمل وساروا .

ووجدت عقدي عندما سار الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه ، فظننت ان القوم سيفقدونني فيرجعون إلى، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل قد عَرَّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي. فرأي سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أن يضرب على الحجابُ ، فاستيقظت باسترجاعي حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي فوالله ماكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعِهِ حين أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ثم انطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني.

وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، حتي خرجت بعد ما نقهت،وخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع وهو مُتَبَرَّزُنَا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت :تعس مِسْطَح . فقلت لها :بئس ما قلت تسبين رجلا شهد بدرا؟ قالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت :وماذا قال : فأخبرتني بقول أهل الإفك . فازددت مرضا إلى مرضي.

فلما دخل على رسول الله ﷺ قلت : أتأذن لي أن آتي أبوي؟وأنا أريد أن أتيقن من الخبر من قِبَلهما، فاذن لي ـ فجئت لأمي فقلت : يا أماه ما يتحدث الناس ؟ قالت : أي بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

قلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله . فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله ، فقال : يا رسول الله هم

. . . .

أهلك ولا نعلم إلا خيرا .وأما علي فقال :لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك .فدعا بريرة فقال :أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت : والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتاتي المداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فاستعذر من عبد الله بن أبي ، فقال : يا معشر المسلمين من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، والله ماعلمت علي أهلي إلا خيرا .

قالت :وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ثم بكيت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي .

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي، ثم دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شاني شيء فتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ،وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى مقالته قلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدري ما أقول . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ . قالت : والله ما أدري ما أقول. فقلت وأنا جارية حديثة السن :والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتي استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئةوالله يعلم أني بريئة لا تصدقوني -وفي رواية :ولئن اعترفت لكم بامر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، وإني والله لا أجد مثلا إلا كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »

ثم تحولت فاضجعت على فراشي، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ،ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ماكان يأخذه من البرحاء ، فلما سرى عنه كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة ، أما الله فقد برأك .

فقالت أمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ .. عشر آيات .

فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا بعد الذي قال لعائشة .فانزل الله ﴿ ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ إلى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾

قال أبو بكر : والله لأحب أن يغرف الله لي ، فرجع إلى مسطح ما كان ينفق عليه .

لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي

﴿ وَلا يَأْتَلِ ﴾ ولا يحلف افتعال من الألية ، أو ولا يقصر من الألو ، ويؤيد الأول أنه قرئ ولا يتأل .وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين . ﴿ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ في الدين.﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ في المال. وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه رضي الله تعالى عنه . ﴿ أَن يُؤْتُوا ﴾ على ان لا يؤتوا ، أو في أن يؤتوا. وقرئ بالتاء على الالتفات .﴿ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناسًا جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك ، أو لموصوفات أقيمت مقامها فيكون أبلغ في تعليل المقصود .﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ عما فرط منهم .﴿ وَلْيَصْفَحُوا ﴾ بالإغماض عنه . ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه . روي أنه ﷺ قرأها على أبي بكر رضي الله عنه فقال : بلى أحب ورجع إلى مسطح نفقته (١٥) .

الآيات من ٢٣ :٢٧

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾

عظم جريمة القذف

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ العفائف . ﴿ الْغَافِلاتِ ﴾ عما قذفن به . ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بالله وبرسوله استباحة لعرضهن وطعنا في الرسول عليه الصلاة

(١٥) راجع اخر التعليق السابق .

والسلام والمؤمنين كابن أبي .﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ لما طعنوا فيهن . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم ذنوبهم ، وقيل هو حكم كل قاذف ما لم يتب ، وقيل مخصوص بمن قذف أزواج النبي ﷺ ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لا توبة له ، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله تعالى عنها .

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ﴾ ظرف لما في لهم من معني الاستقرار لا للعذاب لأنه موصوف، وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل . ﴿ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم ، أو بظهوره آثاره عليها وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب .

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ جزاءهم المستحق . ﴿ وَيَعْلَمُونَ ﴾ لمعاينتهم الأمر .﴿ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ الثابت الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه ، أو ذو الحق البين أي العادل الظاهر عدله ومن كان هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ أي الخبائث يتزوجن الخباث وبالعكس وكذلك أهل الطيب فيكون كالدليل على قوله :﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ يعني أهل بيت النبي ﷺ أو الرسول وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم .﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته عليه الصلاة والسلام ولم يقرر عليها ، وقيل الخبيثات والطيبات من الأقوال والإشارة إلى الطيبين والضمير في يقولون للآفكين ، أي مبرءون مما يقولون فيهم أو للخبيثين والخبيثات أي مبرءون من أن يقولوا مثل قولهم . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

ولقد برأ الله أربعة بأربعة : برأ يوسف عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها ، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم بإنطاق ولدها ، وعائشة رضي الله تعالى عنها بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة ، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته .

من الآداب الاجتماعية في الإسلام الاستئذان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ التي لا تسكنونها فإن الآجر والمعير أيضًا لا يدخلان إلا بإذن . ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ تستأذنوا من الاستئناس بمعني الاستعلام من آنس الشيء إذا أبصره ، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو يؤذن له ، أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش فإن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن له استأنس ، أو تتعرفوا هل ثم إنسان من الإنس .﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أأدخل؟ . وعنه عليه الصلاة والسلام « **التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع** »(١٦) ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي الاستئذان أو التسليم خير لكم من أن تدخلوا بغتة ، أو من تحية الجاهلية كان الرجل منهم إذا دخل بيتًا غير بيته قال : حييتم صباحًا أو حييتم مساء ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلا قال للنبي ﷺ : «أأستأذن على أمي ، قال :نعم ، قال :إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت ، قال: أتحب أن تراها عريانة ، قال : لا ، قال :فاستأذن » (١٧) . ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزل عليكم ، أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم (١٨) .

---

(١٦) ذكره ابن كثير وعزاه إلى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ، قال :إن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له فانصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، لما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فلينصرف فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا . فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر . فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا ، قام معه أبو سعيد الخدري ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهاني عنه الصفق بالأسواق .

(١٧) أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عطاء بن يسار،ورواه مالك في الموطأ عن صفوان بن سليم عن عطاء، ورواه الطبري من طريق زياد بن سعد عن عطاء مرسلا أيضًا .

(١٨) جاء في أسباب نزول الآية ما رواه السيوطي في لباب النقول عن الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت قال :جاءت امرأة من الأنصار فقالت : يا رسول الله إني أكون في بيتي

من ٢٨ : ٣٠

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ يأذن لكم . ﴿ فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ حتى يأتي من يأذن لكم فإن المانع من الدخول ليس الإطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور ، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها . ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ ولا تلحوا . ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ الرجوع أطهر لكم عما لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب عنه من الكراهة وترك المروءة ، أو أنفع لدينكم ودنياكم . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم ما تأتون وماتذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ كالربط والحوانيت والخانات والخانقات . ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ ﴾ استمتاع . ﴿ لَّكُمْ ﴾ كالاستكنان من الحر والبردوإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة ، وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله المسكونة وغيرها .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وعيد لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلع على عورات(١٩) .

على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا علي تلك الحال فكيف أصنع ؟ فنزلت .

(١٩) أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلوقة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون وليس بها سكان ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ لباب النقول .

غض البصر

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ أي ما يكون نحو محرم . ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، ولما كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغض أطلقه وقيد الغض بحرف التبعيض، وقيل حفظ الفروج ها هنا خاصة سترها .﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أنفع لهم أو أطهر لما فيه من البعد عن الريبة .﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ لا يخفي عليه إجالة أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصدون بها ، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون .

الآيتان من ٣١ : ٣٢

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال .﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا ، وتقديم الغض لأن النظر يريد الزنا .﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له .﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجا ، وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية، والمستثني هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن

الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتَحَمُّلِ الشهادة . ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ستراً . لأعناقهن . وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وهشام بضم الجيم . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له . ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتي الفرج بكره . ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم : لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب ، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معني الإخوان أو لأن الأحوط أن يتسترن عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم. ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى المؤمنات فإن الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال أو النساء كلهن ، وللعلماء في ذلك خلاف . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعم الإماء والعبيد ، لما روي « **أنه ﷺ** أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب ، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال ﷺ : « **إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك** »(٢٠) وقيل المراد بها . الإماء وعبد المرأة كالأجنبي منها . ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أي أولى الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون، وفي المجبوب والخصي خلاف وقيل: البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئًا من أمور النساء ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر غير بالنصب على الحال . ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعني الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف .

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار

---

(٢٠) رواه أبو داود في سننه عن أنس رضي الله عنه ، وذكره ابن كثير في تفسيره ، وأورده الحافظ ابن عساكر وذكر أن هذا العبد كان صغير السن ربته فاطمة رضي الله عنها ولما كبر أعتقته .

الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت . ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل : توبوا مما كنتم تفعلونه ، في الجاهلية فإنه وإن جُبَّ(٢١) بالإسلام لكنه لم يجب الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما يتذكر، وقرأ ابن عامر أيه المؤمنون وفي الزخرف ﴿ **يا أيه الساحر** ﴾(٢٢) وفي الرحمن ﴿ **أيه الثقلان** ﴾(٢٣) بضم الهاء في الوصل في الثلاثة والباقون بفتحها ،ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقون بغير الألف . ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ بسعادة الدارين .

الترغيب في التزويج

﴿ **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ﴾ لما نهى عما عسى يفضي إلى السفاح المخل بالنسب المقتضى للألفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع ، بعد الزجر عنه مبالغة فيه عَقَّبه بأمر النكاح الحافظ له والخطاب للأولياء والسادة ، وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعار بأن المرأة والعبد لا يستبدان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولى، وأيامى مقلوب أيايم كيتامى، جمع أيِّم وهو العزب ذكرًا كان أو أنثى بكرًا كان أو ثيبًا قال :

فإنْ تَنْكِحي أنْكح وَإنْ تَتَأيَّمي وَإنْ كُنْت أفْتى مِنْكُم أتَأيَّم(٢٤)

وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم ، وقيل: المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه . ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ رد لما عسى يمنع من النكاح ، والمعنى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن

---

(٢١) جُبَّ بالبناء للمفعول : قُطِع ، والجبُّ : القطع .

(٢٢) الزخرف :٤٩ .

(٢٣) الرحمن : ٣١

(٢٤) يقال :آم الرجل ، وآمت المرأة وتأيّما إذا لم يتزوجا بكرين كانا أم ثيبين يقول الشاعر لمحبوبته في هذا البيت

إن تزوجت تزوجتُ، وإن أمسكتِ عن الزواج أمسكتُ عنه على الرغم من أنني أفتى منك والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ولم ينسبه لقائل .

في فضل الله غُنْيَةٌ عن المال فإنه غادورائح ، أو وعد من الله بالإغناء لقوله ﷺ « اطلبوا الغنى في هذه الآية » [٢٥] لكن مشروطة بالمشيئة كقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾[٢٦] . ﴿ والله واسعٌ ﴾ ذو سعة لا تنفد نعمته إذ لا تنتهي قدرته . ﴿ عليمٌ ﴾ يبسط الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته .

الآيتان من ٣٣ : ٣٤

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾

وجوب العفة عند عدم القدرة على النكاح

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ﴾ وليجتهد في العفة وقمع الشهوة . ﴿ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أسبابه ، ويجوز أن يراد بالنكاح ماينكح به أو بالوجدان التمكن منه . ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به .

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ ﴾ المكاتبة وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من الكتاب لأن السيد كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال ، أو لأنه مما يكتب لتأجيله أو من الكتب بمعنى الجمع لأن العوض فيه يكون منجمًا بنجوم بضم بعضها إلى بعض . ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ عبدًا كان أو أمة والموصول بصلته مبتدأ خبره . ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ أو مفعول لمضمر هذا تفسيره والفاء لتضمن معني الشرط ، والأمر

---

(٢٥) أخرج الثعلبي حديثا بمعناه ذكره الزمخشري في الكشاف وهو : « التمسوا الرزق بالنكاح » .

(٢٦) التوبة : ٢٨ .

فيه للندب عند أكثر العلماء لأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها واحتجاج الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيف لأن المطلق لا يعم مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السلم.فيما لا يوجد عند المحل.

﴿ **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً** ﴾ أمانة وقدرة على أداء المال بالاحتراف، وقد روي مثله مرفوعًا .وقيل :صلاحًا في الدين . وقيل : مالاً ، وضَعْفُهُ ظاهر لفظًا ومعنى ، وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدم الجواز .﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ أمر للموالي كما قبله بأن يبذلوا لهم شيئا من أموالهم ، وفي معناه حط شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر ويكفي أقل ما يتمول. وعن علي رضي الله تعالى عنه يُحَطُّ الربع ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث ، وقيل : ندب لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤتوا ويعتقوا ، وقيل : أمر لعامة المسلمين بإعانة المكتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة ويحل للمولى وإن كان غنيًا ، لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله ﷺ في حديث بريرة « **هو لها صدقة ولنا هدية** » .

﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ** ﴾ إماءكم . ﴿ **عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ على الزنا، كانت لعبد الله بن أُبيّ ست جوار يكرههن علي الزنا وضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت (٢٧) .

﴿ **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً** ﴾ تعففًا شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه ، وإن جعل شرطًا للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بامتناع المنهي عنه، وإيثار إن على إذا لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر .﴿ **لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي لهن أوله إن تاب، والأول أوفق للظاهرولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ﴾ ولا يرد عليه أن المكرهة غير آثمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذة بالذات ولذلك حرم علي المكره القتل وأوجب عليه القصاص .

---

(٢٧) رواه السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى مسلم عن طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله .

قال : وأخرجه البزاروالطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ يعني الآيات التي بنيت في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود ، وقرأ ابن عامروحفص وحمزة والكسائى بالكسر في هذا وفي الطلاق لأنها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة من بين بمعنى تبين ، أو لأنها بينت الأحكام والحدود. ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أو ومثلا من أمثال من قبلكم أي وقصة عجيبة مثل قصصهم ، وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها ، فإنها كقصة يوسف ومريم . ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى ما وعظ به في تلك الآيات ، وتخصيص المتقين لأنهم المنتفعون بها ، وقيل المراد بالآيات القرآن والصفات المذكورة صفاته .

الآيتان من ٣٥ : ٣٦

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾

آية النور

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاًوبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين علي الأجرام الكثيفة المحاذية لهما ، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك : زيد كرم بمعنى ذو كرم ، أو على تجوز إما بمعنى منور السموات والأرض وقد قرئ به فإنه تعالي نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء . أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير : نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور . أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم ، والله سبحانه وتعالىٰ موجود بذاته موجد لما عداه. أو الذي به تدرك أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه ،ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكًا فإنها

تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات ، وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل ، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقتها . فهي إذن من سبب يفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداء أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سموا أنوارا ، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : معناه هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالهما على الأنوار . الحسية والعقلية وقصور الإدراكات عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما . ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ** ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن، وإضافته إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره .﴿ **كَمِشْكَاةٍ** ﴾ كصفة مشكاة ، وهي الكوة الغير النافذة. وقرأ الكسائى برواية الدوري بالإمالة . ﴿ **فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ سراج ضخم ثاقب، وقيل: المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة.﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ في قنديل من الزجاج . ﴿ **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ مضيء متلألئ كالزهرة في صفائه وزهرته منسوب إلى الدرء وفُعيل كمُريق من الدرء فإنه يدفع الظلام بضوئه ، أو بعض ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قلبت همزته ياء ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائى درىء كشريب وقد قرئ به مقلوباً.﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ** ﴾ أي ابتداء ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذبالته بزيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتونة عنها تفخيم لشأنها ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أوقد، وحمزة والكسائى وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرئ توقد من تتوقد ويوقد بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب . ﴿ **لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ** ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون على قلة، أو صحراء واسعة فإن ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى، أو لا نابتة في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون،أولا في مَضْحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها أو في مقنأة[٢٨] تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث « **لا خير**

---

(٢٨) المقناة : المكان الذي لا تطلع عليه الشمس ـ الصحاح ـ

في شجرة ولا نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحى»(٢٩) ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ أي يكاد يضئ بنفسه من غير نار لتلألئه وفرط وبيصه ﴿ **نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾. نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته .

وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه ، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوته ، أو تشبيه للـهدي من حيث إنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإنما ولى الكاف المشكاة لاشتمالها عليه،وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس.

أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي : مثل نور المؤمن .

أو تمثيل لما منح الله به عباده من القوي الدراكة الخمس المترتبة التي منوط بها المعاش والمعاد وهي : الحساسة التي تدرك بها المحسوسات بالحواس الخمس ، والخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت ، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية ، والمفكرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم ، والقوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾(٣٠) بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي : المشكاة ، والزجاجة ، والمصباح ، والشجرة ، والزيت ، فإن الحساسة كالمشكاة لأن محلها كالكوي ووجهها إلى الظاهر لا تدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات ، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية ، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها

---

(٢٩) ذكره الزمخشري في الكشاف، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده .

(٣٠) الشورى : ٥٢ .

الزيتونة المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصابيح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية ، أو لوقوعها بين الصوروالمعاني متصرفة في القبيلين منتفعة من الجانبين ، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدة ذكائها تكاد تضئ بالمعارف من غيرتفكرولا تعلم .

أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدءأمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة ، ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئة في نفسها قابلة للأنوار، وذلك التمكن إن كان بفكرواجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدس فكالزيت ، وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضئ لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتعل عنه ، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متي شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور .

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ لهذا النور الثاقب . ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها .﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ إدناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ معقولا كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفيا، وفيه وعد ووعيد لمن تدبرها وإن لم يكترث بها .

المساجد أحب البقاع إلى الله في الأرض

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييدا للممثل به بما يكون تحبيراً ومبالغة فيه فإن قناديل المساجد تكون أعظم، أو تمثيلا لصلاة المؤمنين أوأبدانهم بالمساجد، ولا ينافي جمع البيوت وحدة المشكاة إذ المراد بها ماله هذا الوصف بلا اعتبار وحدة ولا كثرة أو بما بعده وهو يسبح ، وفيها تكرير مؤكد لا بيذكر لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمراد بها المساجد لأن الصفة تلائمها . وقيل المساجد الثلاثة والتنكير للتعظيم . ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ بالبناء أو التعظيم ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ ينزهونه أي يصلون له فيها

بالغدوات والعشيات، والغدو مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل ، وقرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسَبَّح بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه ، وقرئ تسبح بالتاء مكسورًا لتأنيث الجمع ومفتوحًا على إسناده إلى أوقات الغدو .

الآيات من ٣٧ : ٣٩

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة . ﴿ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة ، أو بأفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء، وقيل المراد بالتجارة الشراء فإنه أصلها ومبدؤها، وقيل الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماء بأنهم تجار . ﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال كقوله :

وَأَخْلَفُوكَ عدا الأمرِ الَّذي وَعَدُوا

﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ ما يجب إخراجه من المال للمستحقين . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقهه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوب مع توقع النجاة وخوف الهلاك، والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتي كتبهم .

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ متعلق بيسبح أولا تلهيهم أو يخافون . ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أحسن جزاء ما عملوا الموعود لهم من الجنة . ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾

أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم .﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان .

حال الكفار

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ والذين كفروا حالهم علي ضد ذلك فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لاغية مخيبة في العاقبة كالسراب ، وهو ما يري في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أي يجري ، والقيعة بمعنى القاع وهو الأرض الخالية عن النبات وغيره المستوية، وقيل : جمعه كجار وجيرة، وقرئ بقيعات كديمات في ديمة. ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ أي العطشان وتخصيصه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة .﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ ﴾ جاء ما توهمه ماء أو موضعه . ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ مما ظنه . ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ﴾ عقابه أو زبانيته أو وجده محاسبا إياه .﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ استعراضًا أو مجازاة . ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ لا يشغله حساب عن حساب . روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية تعبد في الجاهلية والتمس الدين فلما جاء الإسلام كفر .

الآيات من ٤٠ : ٤٣

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) ﴾

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ عطف على كسراب وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب، ولكونهاخالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا

* الإعجاز العلمي

من كتاب الإعجاز العلمي في الإسلام للشيخ / محمد كامل عبد الصمد تحت عنوان : من الظواهر البحرية :

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

تجمع هذه الآية أهم ظواهر عواصف البحروأمواجه ، فمن المعروف أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع أو السعة أو الصفات عموماً ، يلاحق بعضها بعضا فيبدو الموج منطلقًا بعضه فوق بعض، فيحجب ضياء الشمس أو أية إضاءة أخرى لما تثيره هذه العواصف من سحب ركامية سميكة يصل سمكها إلى أكثر من ١٥ كم يخيم معها الظلام في سلسلة من عمليات الإعتام التي تصل إلى حد انعدام رؤية الأجسام .

وجدير بالذكر أن الرسول ﷺ كانت نشأته في البادية حيث قضي طول حياته في الصحراء بعيدًا عن البيئة البحرية ، فضلاً عن أنه لم يكن قد سافر قط عبر تلك المحيطات حتي يذكر مثل هذا الوصف الدقيق ، مما يثبت قطعاً أنه من وحي الخالق العظيم ، الذي يتجلى فيه الإعجاز العلمي ا لدقيق .

ونخلص من ذلك كله إلى أن هذه الآيات الكريمة تشير لبعض الحقائق العلمية التي لم يكتشفها العلم إلا مؤخرا ، وهي بذلك تضيف معجزة أخرى لمعجزات القرآن الكريم وما أكثرها، قال عن البحار والأمواج إنه توجد ثلاثة أنواع من الأمواج :

* سطحية وتنشأ بدفع الرياح والأمواج .
* أمواج المد والجزر نتيجة لجاذبية القمر .
* أمواج تحدث في الأعماق السحيقة من المحيطات ،وهي أمواج عاتية وتسير بسرعة كسرعة الطائرات ، وتنتج من حركات زلزالية في قاع المحيطات أو انهيار كتل من جوانب المحيط ، وقد لا يحس بها راكب السفينة في عرض البحر ، ولكنها تكون مدمرة قرب الساحل ، وهذا ما حدث في بعض البلاد وما أثبته العلم الحديث ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم :

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا

وكالسراب في الآخرة . ﴿في بَحْرٍ لُجّيٍّ ﴾ ذي لج أي عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء .﴿ يَغْشَاهُ ﴾يغشى البحر .﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي أمواج مترادفة متراكمة . ﴿مِّن فَوْقِهِ ﴾ من فوق الموج الثاني.﴿سَحَابٌ ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها ، والجملة صفة أخرى للبحر . ﴿ظُلُمَاتٌ ﴾ أي هذه ظلمات .﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ وقرأ ابن كثير ظلمات بالجر على إبدالها من الأولي أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزي . ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة :

إِذَا غَيَّرَ النَّأي المُحبِّينَ لَمْ يَكدْ ... رَسِيسُ الهَوَيمِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ(٣١)

(٣١) هذا البيت لذي الرمة

والنأي : البعد ، والرسيس: بقية المرض اللازمة داخل البدن وهو من أَرَسَّ أي لزم، ويبرح: يذهب.

* الإعجاز العلمى

فَوْقَ بَعْضٍ ﴾

كما استعرضنا ذلك ، إن البحار وما فيها من أعاجيب وأسرار وغموض لم يستطع العلم الحديث المزود بأحدث التكنولوجيا أن يكتشف سوى النزر اليسير منها .. ومن هذه الأعاجيب وجود الأنهار والتيارات البحرية التي تسير في أعماق البحار حاملة المياه العذبة إلى مسافات شاسعة دون أن يكتشفها العلم الحديث إلا مؤخراً .

إن الأغرب من التيارات البحريةوالأنهار هو تواجد أنهار بحريه ذات مياه أقل ملوحة وحرارة قد تصل درجة التجمد ، وتتحرك هذه الأنهار في أعماق البحار وبشكل معاكس للتيارات التي تسير فوقها، وهذا ما وجد تحت «تيار الخليج» الآنف الذكر ، حيث اكتشف هذا التيار وسمي فيما بعد بـ« تيار Cromwell باسم مكتشفه في عام ١٩٥١حينما استعملت شباك عميقة ذات حبال طويلة وصنارات لصيد أسماك القاع حيث وجدت أن الحبال تتجه وتسير بتيار معاكس لتيار الخليج الذي يسير فوقه ، وأغرب مثال على تواجد تيارين بحريين في مكان واحدأحدهما فوق الآخر هو ما يوجد بالقرب من منطقة جبل طارق بالتقاء البحر المتوسط مع المحيط الاطلنطي ، في أيام الشتاء ونتيجة لزيادة معدل تبخر الماء من البحر المتوسط نسبة إلى ما يتبخر من المحيط الأطلنطي ، فإن المياه البحرية ذات الملوحة العالية تغور إلى أعماق البحروتؤلف تياراً يندفع باتجاه المحيط ، ويشاهد أثر هذا النهرا لعميق وسط المحيط الأطلنطي في حين تتجه المياه السطحية الأقل ملوحة والأكثر حرارة من المحيط الأطلنطي باتجاه البحر المتوسط مؤلفة تياراً علوياً فوق التيار السابق ومعاكساً له في الاتجاه . . هكذا أكدت المشاهدات العلمية ما سبق أن أشار إليه القرآن الكريم .

والضمائر للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه .﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً** ﴾ ومن لم يقدر له الهداية . لم يوفقه لأسبابها . ﴿ **فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾خلاف الموفق الذي له نور على نور .

كل شيء يسبح بحمد الله

﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي أو الاستدلال .﴿ **أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ينزه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض ، ومن لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال. ﴿ **وَالطَّيْرُ** ﴾ على الأول تخصيص لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله :﴿ **صَافَّاتٍ** ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره .﴿ **كُلٌّ** ﴾كل واحد مما ذكر أو من الطير . ﴿ **قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ﴾ أي قد علم الله دعاءه وتنزيهه اختيارا أو طبعًا لقوله : ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾أو علم كل على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخصه بحال من علم ذلك مع أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسبيحًا كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء .﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنة واجبة الانتهاء إلى الواجب . ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ مرجع الجميع .

من مظاهر قدرة الله

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا** ﴾ يسوقه ومنه البضاعة المزجاة فإنه يزجيها كل أحد . ﴿ **ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ** ﴾ بأن يكون قزعًا فيضم بعضه إلى بعض ، وبهذا الاعتبار صح بينه إذ المعني بين أجزائه ، وقرأ نافع برواية ورش يولف غير مهموز .﴿ **ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا** ﴾ متراكمًا بعضه فوق بعض . ﴿ **فَتَرَى الْوَدْقَ** ﴾ المطر .﴿ **يَخْرُجُ مِنْ**

يقول: إن البعد إذا غير المحبين وأنساهم من يحبون ، فإن حب مية لا يفارقني مهما بعدت عني وبعدت عنها.

خلاله ﴾ من فتوقه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من خاله .﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الغمام وكل ما علاك فهو سماء .﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا ﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها . ﴿ مِن بَرَدٍ ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف

* الإعجاز العلمي

من كتاب القرآن والعلم للدكتور / جمال الدين الفندي تحت عنوان :

البرد وعواصف البرق والرعد :

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾

والقرآن الكريم قرر في بساطة علمية معجزة أن البَرَدَ هو المسئول عن تلك الشحنات الكهربائية التي تسبب عواصف البرق والرعد ، التي كانت من أهم ميادين البحث والتنقيب خلال عشرات السنين، وظهر في هذا السبيل العديد من النظريات ، حتى انتهي العلماء إلى تلك الحقيقة التي قررها الحكيم الخبير في كتابه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، ولا يقف الإعجاز العلمي للآية السابقة عند هذا الحد ، بل نجدها تربط بين البرد والبرق .

وعندما يقوى الهواء علي عزل الشحنة السالبة العليا عن الشحنة الموجبة في أسفل يحدث التفريغ الكهربائى على هيئة برق وينجم عن التسخين الشديد المفاجئ الذي يحدث البرق في منطقة انبعاثه أن يتمدد الهواء فجأة ويتمزق محدثًا الرعد . . وما جلجلة الرعد إلا عملية طبيعية بسبب سلسلة الانعكاسات التي تحدث من قواعد السحب لصوت الرعد الأصلي . . وقد يحدث في بعض العواصف أن يتكرر حدوث البرق داخل السحابة أربعين مرة في الدقيقة الواحدة . . أما إذا حدث التفريغ الكهربائى بين السحابة وأي جسم مرتفع عن سطح الأرض فإنه يسمى صاعقة .

وعندما صورت بالرادار وجد أن السحابة الركامية الواحدة تبدأ بنتف صغيرة تظهر في السماء ثم تتخذكل خليتين أو أكثر مع بعضها البعض لتكون الخلية الكبيرة التي سرعان ما تصبح كالجبل الشامخ وينزل منها المطر . . ومن روائع إعجاز القرآن في هذا الشأن تلك الآية التي نحن بصددها .

وقد دلت التجارب العلمية الحديثة على أن المكونات الثلجية عندما تنمو أو تنصهر ، تكتسب شحنات كهربائية ، كما تشير الآية السابقة في إيجاز رائع إلى أن أهم أخطار البرق ، الذهاب بالبصر . . والعجيب أن هذا هو ما يعانيه الطيار من أخطار في حالات عواصف

أي ينزل مبتدأ من السماء من جبال فيها من برد بردًا ، ويجوز أن تكون من الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول ، وقيل : المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من بَرَد كما في الأرض جبال من حجر ، وليس في العقل قاطع يمنعه والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد هناك اجتمع وصار سحابًا ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطرًا ، وإن اشتد فإن وصل

* **الإعجاز العلمى**

الرعد ، لا سيما في المناطق الحارة الرطبة ، حيث تبلغ ومضات البرق في الدقيقة الواحدة أربعين ومضة أو شرارة هائلة ، فيصيبه بفقد البصر . ولا يقوى علي الاستمرار في قيادة طائرته .

أما الصواعق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في عدة آيات ، مثل قوله تعالى :

﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾

وقوله : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾

وقوله : ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾.

فقد قرر العلم الحديث أنه إذا ما أصيب شخص بمس من صاعقة ،وجبت المبادرة إلى إجراء التنفس الصناعي له مدة لا تقل عن ساعة ، فقد تعود إليه الحياة من جديد ، إلا أنها مدمرة في عمومها ، يرسلها الله نقمة ينتقم بها ممن يشاء .

والصواعق تصاحب البرق والرعد والسحاب في بعض الأحيان ، وهي بذاتها ذات أثر قاتل في النفس ؛ ولذا كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق يقول : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

أما الرعد الذي ورد ذكره في القرآن حيث يقول تعالى : ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾.

ويقول : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ .

والرعد هو ذلك الصوت المفرقع المدوي ، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله أيا كانت طبيعته وأسبابه ، فهو رجع صنع الله في هذ الكون .

وهو يشهد بقدرة الخالق وعظمته ، مما جعل صوت الرعد تسبيحًا للحمد ، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه .

ويقرر العلم الحديث أن صوت الرعد يدفع إلى الخوف والرجاء والتعظيم لقدرة الخالق . . وهذا من الإعجاز في التصوير النفسي الذي أوضحه القرآن من خلال آياته الكونية العظيمة .

إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجًا وإلانزل بردًا ، وقد يبرد الهواء بردًا مفرطًا فينقبض وينعقد سحابًا . ينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالها وأوقاتها وإليها أشار بقوله ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَاءُ ﴾ والضمير للبرد . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ ضوء برقه ، وقرئ بالمد بمعنى العلو وبإدغام الدال في السين ، وبرقه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع .﴿ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد، وقرئ يذهب على زيادة الباء .

الآيات من ٤٤ : ٤٩

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) ﴾

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو بما يعم ذلك . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما تقدم ذكره . ﴿ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ لدلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه عن الحاجة وما يفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ حيوان يدب على الأرض.وقرأ حمزة والكسائى خالق كل دابة بالإضافة .﴿ مِّن مَّاءٍ ﴾ هو جزء مادته، أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون

تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة ، وقيل : من ماء متعلق بدابة وليس بصلة لخلق. ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِه ﴾ كالحية وإنما سمي الزحف مشيًا على الاستعارة أو المشاكلة . ﴿ ومِنْهُم مَّن يمشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنس والطير . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالنعم والوحش ويندرج فيه ماله أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع ، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء والتعبير على الأصناف ليوافق التفصيل الجملة والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة . ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطًا ومركبًا على اختلاف الصوروالأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته .﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاء.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل. ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها . ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة .

من أمثلة المنافقين

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ نزلت في بشر المنافق خاصم يهوديًا فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي ﷺ . وقيل في مغيرةبن وائل خاصم عليًّا رضي الله عنه في أرض فأبي أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ(٣٢) . ﴿ وأَطَعْنَا ﴾ أي وأطعناهما . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه . ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد قولهم هذا .﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلامًا من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبهم ، أو إلى الفريق منهم وسلب الإيمان عنهم لتوليهم ، والتعريف فيه للدلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفتهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليحكم النبيﷺ فإنه

---

(٣٢) أخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبى ﷺ وهو محق اذعن وعلم ان النبى ﷺ سيقضي له بالحق ، وإذا أراد ان يظلم فدعى إلي النبى ﷺ أعرض وقال : انطلق إلى فلان ، فانزل الله الآية .

لباب النقول للسيوطي .

الحاكم ظاهراً والمدعو إليه ، وذكر الله لتعظيمه والدلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكم الله تعالى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم ، وهو شرح للتولي ومبالغة فيه .

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ ﴾ أي الحكم لا عليهم . ﴿ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم ، وإليه صلة ليأتوا أو لمذعنين وتقديمه للاختصاص .

الآيات من ٥٠ : ٥٤

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم . ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال يقينهم وثقتهم بك . ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ في الحكومة . ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم فتعين الأول ، ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل ، لأن منصب نبوته وفرط أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف والفصل لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعو إلى حكمه .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرئ قول بالرفع وليحكم على البناء للمفعول وإسناده إلى ضمير مصدره على معنى ليفعل الحكم .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمرانه أو في الفرائض والسنن . ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ، ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾فيما بقي من عمره ، وقرأ يعقوب وقالون عن نافع بلا ياء وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء ، وحفص بسكون القاف فشبه تقه بكتف وخفف والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق . ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إنكار للامتناع عن حكمه . ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ الخروج عن ديارهم وأموالهم . ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية . ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا ﴾ على الكذب . ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة، أو طاعة معروفة أمثل منها أو لتكن طاعة، وقرئت بالنصب على أطيعوا طاعة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفي عليه سرائركم .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبكيتهم . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي على محمد ﷺ . ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ من التبليغ . ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ من الامتثال . ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ ﴾ في حكمه . ﴿ تَهْتَدُوا ﴾ إلى الحق . ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ التبليغ الموضح لما كلفتم به ، وقد أدى وإنما بقي ما حملتم فإن أديتم فلكم وإن توليتم فعليكم .

الآيات من ٥٥ : ٥٧

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

وعد الله الصادق للمؤمنين

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة ، أوله ولمن معه ومن للبيان ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم ، وهو جواب قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، أو الوعد في تحققه منزل منزلة القسم ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد الجبابرة، وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدءوا كسروا الألف . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت .﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من الأعداء ، وقرأ ابن كثيروأبو بكر بالتخفيف. ﴿ أَمْنًا ﴾ منهم وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فاظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع . وقيل: الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة . ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾حال من الذين لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن. ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين . ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة .﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد الوعد أو حصول الخلافة . ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات ، أو كفروا تلك النعمة العظيمة (٣٣) .

---

(٣٣) أخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ أصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله . فنزلت ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ ..

وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء قال : فينا نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد .

ـ لباب النقول للسيوطي ـ.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعد على المأمور به ، فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ كما علق به الهدى .

﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم ، وفي الأرض صلة معجزين . وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء أو الذين كفروا فاعل والمعنى ولا يحسبن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله ، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه أو لا يحسبونهم معجزين فحذف المفعول الأول لأن الفاعل والمفعولين لشيء واحد فاكتفي بذكر اثنين عن الثالث . ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل : الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار ، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإعجاز . ﴿ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه .

الآيات من ٥٨ : ٦٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

استئذان الأقارب بعضهم على بعض

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ رجوع إلى تتمة

الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها ، والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت . وقيل : أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصاري وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعو عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية . ﴿ **وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ** ﴾ والصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ **ثَلَاثَ مَرَّاتٍ** ﴾ في اليوم والليلة مرة . ﴿ **مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ** ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، ومحله النصب بدلا من ثلاث مرات أو الرفع خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر . ﴿ **وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم** ﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة . ﴿ **مِّنَ الظَّهِيرَةِ** ﴾ بيان للحين . ﴿ **وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ** ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف .﴿ **ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ** ﴾ أي هي ثلاث أوقات يختل فيها تستركم ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده وأصل العورة الخلل ومنها أعور المكان ورجل أعور . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ثلاث بالنصب بدلا من ثلاث مرات . ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان ، وليس فيه ما ينافي آية الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليك المدخول عليه وتلك في الأحرار البالغين . ﴿ **طَوَّافُونَ عَلَيْكُم** ﴾ أي هم طوافون استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة ، وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها بأنها عورات . ﴿ **بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ بعضكم طائف على بعض أو يطوف بعضكم على بعض .﴿ **كَذَٰلِكَ** ﴾ مثل ذلك التبيين . ﴿ **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ** ﴾ أي الأحكام .﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ** ﴾ بأحوالكم . ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما شرع لكم .

﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلها ، واستدل به من أوجب استئذان العبد البالغ على سيدته ، وجوابه أن المراد بهم المعهودين الذين جعلوا قسيماً للمماليك

فلا يندرجون فيهم . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل . ﴿ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ لا يطمعن فيه لكبرهن . ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ، والفاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو لوصفها بها . ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائه في قوله تعالى ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾[٣٤] وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفي من قولهم : سفينة بارجة لا غطاء عليها ، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطًا بسوادها كله لا يغيب منه شيء، إلا أنه خص بتكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال . ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ من الوضع لأنه أبعد من التهمة . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهن للرجال . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقصودهن .

الآيتان من ٦١ : ٦٢

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

---

(٣٤) النور : ٣١ .

نفي لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم ، أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيح لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب ، أو من إجابة من دعوهم إلى بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيطعمونهم كراهة أن يكونوا كلاً عليهم ، وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة أو كان في أول الإسلام ، ثم نسخ بنحو قوله : ﴿ **لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام** ﴾(٣٥) . وقيل نفي للحرج عنهم في القعود عن الجهاد وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده . ﴿ **وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ** ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله ﷺ « **أنت ومالك لأبيك** »، وقوله ﷺ « **إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه وإن ولده من كسبه** » .﴿ **أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ** ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظاً . وقيل بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وهو ما يفتح به وقرئ مفتاحه . ﴿ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** ﴾ أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر به ، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط ، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم ، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطع بسرقة مال المحرم.﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** ﴾ مجتمعين أو متفرقين . نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده. أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه . أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنهمة . ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا** ﴾ من هذه البيوت ﴿ **فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾ على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة . ﴿ **تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، ويجوز أن تكون

---

(٣٥) الأحزاب :٥٣ .

صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عنده تعالى وانتصابها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم . ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب .﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع . وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحي فإنها صلاة الأبرار الأوابين»(٣٦) . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ كرره ثلاثًا لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وفصل الأولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال : ﴿لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ ﴾ أي الحق والخير في الأمور (٣٧) .

---

(٣٦) أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان،والبيهقي في الشعب في الحادي والستين، وأخرجه الثعلبي من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بتمامه .
وأخرجه البزار من طريق عويد بن عمران الجوني عن أبيه من حديث أنس رضي الله عنه قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم علي من لقيت من أمتي تكثُر حسناتك ، وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين ، وارحم الصغير ، ووقر الكبير تكن من رفاقي » . من تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر .

(٣٧) في أسباب نزول هذه الآية قال السيوطي في لباب النقول : قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمي والأعرج والمريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته ، فكانت الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم . قال : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ تحرج المسلمون وقالوا : الطعام من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك ، فنزل ﴿ ليس على الأعمي حرج ... إلى قوله ... أو مفاتحه ﴾ .
قال : وأخرج الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج ، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم .
وأخرج عن مقسم قال : كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج فنزلت .

الاستئذان عند الانصراف

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ من صميم قلوبهم . ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور ،ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرئ أمرجميع . ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لهم ،واعتباره في كمال الإيمان لأنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل والفرار ، ولتعظم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ولذلك أعاده مؤكداً علي أسلوب أبلغ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب

وأخرج الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج الحارث غازياً مع رسول الله ﷺ فخلف على أهله خالد بن زيد ، فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهودا فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح ﴾ .. الآية ..

وأخرج البزار بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يرغبون في النفر مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى زمناهم ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، وكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا ، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس ، فأنزل الله ﴿ليس عليكم جناح . .إلى قوله ... أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الزهري أنه سئل عن قوله ﴿ ليس على الأعمي حرج ﴾ : ما بال الأعمي والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال :أخبرني عبد الله بن عبد الله قال : إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم ، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانو يتحرجون من ذلك ، ويقولون : لا ندخلها وهم غُيَّب ، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم .

وأخرج عن قتادة قال : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا ﴾ نزلت في حي من العرب كان الرحل منهم لا يأكل طعامه وحده ، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكل معه .

وأخرج عن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتي يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم .

لباب النقول للسيوطي .

بغير إذن ليس كذلك . ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ ما يعرض لهم من المهام ،وفيه أيضًا مبالغة وتضييق الأمر .﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ تفويض للأمر إلى رأى الرسول ﷺ . واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه فكأن المعني : فاذن لمن علمت أن له عذرًا . ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لفرطات العباد . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتيسير عليهم (٣٨) .

الآيتان من ٦٣ : ٦٤

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾

الأدب في مخاطبة الرسول ﷺ

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضًا في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع

---

(٣٨) أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر المدينة ، قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتي نزلوا بنعمي إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله ﷺ الخبر ، فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه ، وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له ، وإذا قضي حاجته رجع ، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرجامع .. إلى قوله .. والله بكل شيء عليم ﴾ المرجع السابق .

بغير إذن ، فإن المبادرة إلي إجابته ﷺ واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة . وقيل : لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم مثل يا نبي الله ، ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت ، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجب ، أو لا تجعلوا دعاءه ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخري فإن دعاءه مستجاب . ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ** ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة ونظير تسلل تدرج وتدخل . ﴿ **لِوَاذًا** ﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه ، وانتصابه على الحال وقرئ بالفتح .﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته . وعن لتضمنه معني الإعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه ، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى ، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر . ﴿ **أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ محنة في الدنيا . ﴿ **أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ في الآخرة واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضي الأمر مقتض لأحد العذابين ، فإن الأمر بالحذر عنه يدل علي خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب .

﴿ **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص ، وإنما أكد علمه بقد لتأكيد الوعيد . ﴿ **وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ** ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء ، ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات ، وقرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم .﴿ **فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا** ﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه . ﴿ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ لا يخفي عليه خافية .

فضل سورة النور .

عن النبي ﷺ : « **من قرأ سورة النورأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى** » (٣٩) .

(٣٩) ذكره الزمخشري في الكشاف ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : رواه الثعلبي وابن مردويه بإسناديهما إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة الفرقان مكية (١)

وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٤

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾

تمجيد الله وتنزيهه الذي نزل الفرقان على عبده ﷺ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ تكاثر خيره من البركة وهي كثرة الخير، أو تزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، فإن البركة تتضمن معني الزيادة ، وترتيبه عن إنزاله الفرقان لما فيه من كثرة الخير أو لدلالته على تعاليه . وقيل دام من بروك الطير على الماء ومنه البركة لدوام الماء فيها ، وهو لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا لله تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما سمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره أو المحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال، وقرئ على عباده وهم رسول الله ﷺ وأمته كقوله تعالي: ﴿ وقد أنزلنا إليكم آيات ﴾ (٢) أو الأنبياء على أن الفرقان اسم جنس للكتب السماوية . ﴿ لِيَكُونَ ﴾ العبد أو الفرقان . ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ للجن والإنس . ﴿ نَذِيرًا ﴾ منذرا أو إنذارا كالنكير بمعني الإنكار ، هذه الجملة وإن لم تكن معلومة

---

(١) في تفسيري ابن كثير والكشاف مكية إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ فمدنية ونزلت هذه السورة بعد سورة يس .

(٢) النور : ٣٤

لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم وجعلت صلة .
﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كزعم النصاري . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كقول الثنوية أثبت له الملك مطلقًا ونفي ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أحدثه إحداثًا مراعى فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة .
﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال ، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبيرواستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك ، أو فقدره للبقاء إلى أجل مسمى . وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتًا .

جهل المشركين باتخاذهم آلهة من دون الله

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ لما تضمن الكلام إثبات التوحيد والنبوة أخذ في الرد على المخالفين فيهما . ﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصورونهم . ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ ﴾ ولا يستطيعون . ﴿ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا ﴾ دفع ضر . ﴿ وَلا نَفْعًا ﴾ ولا جلب نفع . ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ ولا يملكون إماتة أحد وإحياءه أولا وبعثه ثانيا ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها ، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادرًا على البعث والجزاء .

دعواهم الباطلة بافتراء القرآن

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ كذب مصروف عن وجهه . ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ اختلقه . ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته ، وقيل جبر ويسار وعداس ، وقد سبق في قوله ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾(٣) . ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ بجعل الكلام المعجز إفكا مختلقا متلقفا من اليهود . ﴿ وَزُورًا ﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته .

---

(٣) النحل : ١٠٣

الآيات من ٥ : ٩

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ۝ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ۝ ﴾

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ما سطره المتقدمون . ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها ، وقرئ على البناء للمفعول لأنه أمي وأصله : اكتتبها كاتب له ، فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل وبنى الفعل للضمير فاستتر فيه . ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ ليحفظها فإنه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو لتكتب .

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لأنه أعجزكم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلة وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم علي ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صبا .

استهانتهم بالرسالة وتهكمهم منها

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ ﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة وفيه استهانةوتهكم . ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ كما نأكل . ﴿ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ لطلب المعاش كما نمشي،والمعني إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا ؟ ، وذلك لعمههم وقصور نظرهم على المحسوسات، فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله :﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾[٤] . ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾

---

(٤) الكهف : ١١٠ .

لنعلم صدقه بتصديق الملك .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ هذا على سبيل التنزل أي إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين (٥) والمياسير فيتعيش بريعه ، وقرأ حمزة والكسائي بالنون والضمير للكفار . ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ وضع الظالمون موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون . ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ سحر فغلب على عقله ، وقيل : ذا سَحَر(٦) وهو الرئة أي بشرًا لا ملكًا .

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي والمميز بينه وبين المتنبي (٧) فخبطوا خبط عشواء ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى .

الآيات من ١٠ : ١٥

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) ﴾

(٥) الدهاقين : جمع دُهقان وهو رئيس القرية ، ورئيس الإقليم ، والقوى القادر على التصرف مع شدة وخبرة ، وصاحب المال والعقار ، والتاجر ـ ويجمع على دهاقين ودهاقنة ـ المعجم الوسيط .

(٦) السَّحْر ـ بفتح السين الرئة والقلب ، ومن حديث عائشة رضي الله عنها توفي النبي ﷺ بين سحري ونحري ـ أي وهو مسند إلى صدرها .

(٧) المتنبى : مدعي النبوة كذبا .

﴿ تَبَارَكَ الَّذي إن شاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا .﴿ خَيْراً مِّن ذَلِكَ ﴾ مما قالوا لكن أخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى . ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ بدل من خيراً. ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورا ﴾عطف على محل الجزاء ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع لأن الشرط إذا كان ماضيًا جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله :

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ ... يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلا حَرِمٌ(٨)

ويجوز أن يكون استئنافًا بوعد ما يكون له في الآخرة ، وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو .(٩) .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لما تمحلوا من المطاعن الفاسدة ، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾ ناراً شديدة الاستعار ، وقيل هو اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان .

وصف جهنم أعاذنا الله منها

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ إذا كانت بمرأي منهم كقوله عليه السلام « لا تتراءى ناراهما » أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأي من الأخرى على المجاز والتأنيث لأنه بمعنى النار أو جهنم . ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه

---

(٨) رواه الزمخشري في الكشاف :

« وإن أتاه خليل يوم مسألة » . . وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت

والخليل من الخلةوهي الحاجة ، والمسغبة : شدة الجوع .

والمعنى أنه لا يتعلل أمام من يقصده بغياب ماله وعدم حضور أهله الذين يقدمون القرى للضيف أو لا يحرم من يقصده من العطاء .

والشاهد في البيت أن الفعل المضارع (يقول) لم يجزم في جواب الشرط إنْ .

(٩) جاء في أسباب نزول هذه الآية : أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئًا في الآخرة ، وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة، قال : بل اجمعهما لي في الآخرة . فنزلت الآية . ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

.﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً ﴾ صوت تغيظ ، شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه ، هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر. وقيل إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف .

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ﴾ في مكان ومنها بيان تقدم فصار حالاً . ﴿ ضَيِّقًا ﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها كعرض السموات والأرض. ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل. ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المكان . ﴿ ثُبُوراً ﴾ هلاكاً أي يتمنون الهلاك .وينادونه فيقولون تعال يا ثبوراه فهذا حينك .

﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً ﴾ أي يقال لهم ذلك . ﴿ وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته ، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾(١٠) أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور .

وصف الجنة التي وعد المتقون

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم أو إلى الكنز والجنة ، والراجع إلى الموصول محذوف وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها، أو التمييز عن جنات الدنيا . ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ في علم الله أو اللوح ، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع . ﴿ جَزَاءً ﴾ على أعمالهم بالوعد . ﴿ وَمَصِيراً ﴾ ينقلبون إليه ، ولا يمنع كونها جزاء لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب لأنهم في مقابلتهم .

الآيات من ١٦ : ١٩

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا

(١٠) النساء : ٥٦ .

السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ ما يشاءونه من النعيم ، ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبتة إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأو الكامل بالتشهي ، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من أحد ضمائرهم. ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾ الضمير في كان لما يشاءون والوعد الموعد أي : كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب ، أو مسئولا سأله الناس في دعائهم ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ (١١) . أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالي ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز ، فإن تعلق الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز .

الآلهة المزعومة تتبرأ ممن عبدها يوم القيامة

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ للجزاء ، وقرئ بكسر الشين وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء . ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يعم كل معبود سواه تعالى ، واستعمال ما إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف ، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيراً أو اعتبار الغلبة عبادها، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب ، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل . ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب، وقرأ ابن عامر بالنون ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة ، وأصله أأضللتم أو ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب ، وحذف صلة الضل مبالغة .

---

(١١) آل عمران : ١٩٤ .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ تعجبًا مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء أو إشعارًا بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده، أو تنزيهًا لله تعالى عن الأنداد .﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا ﴾ ما يصح لنا . ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحدًا دونك، وقرئ نتخذ على البناء للمفعول من اتخذ الذي له معولان كقوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾(١٢) ومفعوله الثاني من أولياء ومن للتبعيض وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي . ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات.﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك ، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه ، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجة علينا للمعتزلة (١٣) . ﴿ وَكَانُوا ﴾ في قضائك . ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه الواحدوالجمع ، أو جمع بائر كعائذ وعوذ .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول والمعنى فقد كذبكم المعبودون . ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا والباء بمعنى في ، أو مع المجرور بدل من الضمير ، وعن ابن كثير بالياء أي : كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا . ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي المعبودون وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين . ﴿ صَرْفًا ﴾ دفعًا للعذاب عنكم ، وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال .﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ يعينكم عليه . ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون .﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ هي النار والشرط وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقًا ، وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعًا وبالعفو عندنا .

---

(١٢) النساء : ١٢٥ .

(١٣) راجع تفصيل هذه القضية في تعليق الإمام أحمد بن المنير الاسكندري على تفسير الكشاف في هذا الموضع ورده على الزمخشري وهو معروف بالاعتزال .

الآيات من ٢٠ : ٢٣

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣)﴾

طبيعة الرسل أنهم بشر اصطفاهم الله وميزهم بصفات سنية

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾أي إلا رسلاً إنهم فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله تعالى : ﴿**وما منا إلا له مقام معلوم**﴾ (١٤) ، ويجوز أن تكون حالاً اكتفى فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**﴾(١٥) وقرئ يمشون أي تمشيهم حوائجهم أو الناس. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس . ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاء ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء ، والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم ، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه ، وفيه دليل على القضاء والقدر. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علة للجعل والمعنى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيكم يصبر ونظيره قوله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ (١٦) ، أو حث على الصبر على ما افتتنوا به.﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ بمن يصبر أو بالصواب فيما يبتلى به وغيره .

تعنت الكفار في طلبهم الآيات

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ﴾ لا يأملون . ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث ، أو لا يخافون لقاءنا بالشر على لغة تهامة ، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه

---

(١٤) الصافات ١٦٤ . (١٥) الفرقان : ٧ . (١٦) الملك : ٢.

الرؤية فإنه وصول إلى المرئى ، والمراد به الوصول إلى جزائه ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول. ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا . ﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فتخبرنا بصدق محمد ﷺ ، وقيل : فيكونوا رسلاً إلينا . ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه . ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك . ﴿ وَعَتَوْا ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ بالغًا أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها ، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامع النفوس القدسية ، واللام جواب قسم محذوف ، وفي الاستئناف بالجملة حسن وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم كقوله :

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبأنا بِنَابِهَا كُلَيْبًا عَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بواؤُهَا(١٧) .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ، ويوم نصب باذكر أو بما دل عليه .﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإنه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها ، ويومئذ تكرير أو خبر وللمجرمين تبيين أو خبر ثان أو ظرف لما يتعلق به اللام ، أو لبشرى أن قدرت منونة غير مبنية مع لا فإنها لا تعمل ، وللمجرمين إما عام يتناول حكمه حكمهم من طريق البرهان ، ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفي البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخر ، وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعارًا بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابلها . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ ، هذه الكلمة استعاذة وطلبًا من الله تعالى أن يمنع لقاءهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاء

---

(١٧) هذا البيت لرجل من قبيلة بكر قوم جساس بن مرة صهر كليب وقاتله ، والشاعر يفتخر على قبيلة تغلب قوم كليب واشتعلت بسبب ذلك حرب البسوس التي دامت سنين طويلة.

وجارة جساس : هي خالته البسوس التي كانت سببا في إشعال الحرب .

وأبأنا : قابلنا وساوينا .

ونابُها : ناقتها المسنة التي رمي كليب ضرعها وهي ترعي في أرضه فصاحت البسوس : واذلاّه فأثارت حمية ابن اختها جساس فقتل كليبا .

وبَواؤها : كفؤها .

عدو أو هجوم مكروه ، أو تقولها الملائكة بمعنى حراماً محرماً عليكم الجنة أو البشرى . وقرئ حجراً بالضم وأصله الفتح غير أنه لما اختص بموضع مخصوص غير كقعدك وعمرك ولذلك لا يتصرف فيه ولا يظهرناصبه ، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم : موت مائت .

لا جدوى لأي عمل صالح ليس أساسه الإيمان

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ أي وعمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره ، وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا على سلطانهم فقدم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثراً ، والهباء غبار يرى في شعاع يطلع من الكوة من الهبوة وهي الغبار ، ومنثوراً صفته شبه عملهم المحبط بالهباء في حقارته وعدم نفعه ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها ، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾(١٨) .

الآيات من ٢٤ : ٢٨

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) ﴾

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ مكاناً يستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث . ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ مكاناً يؤوي إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه ، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة وفي أحسن رمز إلي ما يتميز به مقيلهم من حسن الصور وغيره من التحاسين ، ويحتمل أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم

(١٨) البقرة : ٦٥ .

وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة ، والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا . روي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

من أهوال القيامة

﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ** ﴾ أصله تتشقق فحذفت التاء ، وأدغمها ابن كثير ونافع وابن عامر ويعقوب . ﴿ **بِالْغَمَامِ** ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة** ﴾(١٩) .
﴿ **وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً** ﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد ، وقرأ ابن كثير وننزل وقرئ ونزلت وأنزل ونزل ونزل الملائكة بحذف نون الكلمة .

﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ** ﴾ الثابت له لأن كل مُلْكٍ يبطل يومئذ ولا يبقى إلا ملكه فهو الخبر وللرحمن صلته ، أو تبيين ويومئذ معمول الملك لا الحق لأنه متأخر أو صفته والخبر يومئذ أو للرحمن . ﴿ **وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا** ﴾ شديداً .

﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ** ﴾ من فرط الحسرة ، وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيط والحسرة لأنها من روادفهما ، والمراد بالظالم الجنس . وقيل : عقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسة النبي ﷺ ، فدعاه إلى ضيافته فأبي أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت فقال : لا ، ولكن آلي أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له ، فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه ، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ، فقال ﷺ : لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله وطعن أبيًا بأُحُدْ في المبارزة فرجع إلى مكة ومات . ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾ طريقًا إلى النجاة أو طريقًا واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة(٢٠) .

---

(١٩) البقرة : ٢١٠ .

(٢٠) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أبي بن خلف يحضر النبي

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ وقرئ بالياء على الأصل . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴾ يعني من أضله وفلان كناية عن الأعلام كما أن هنا كناية عن الأجناس .

الآيات من ٢٩ : ٣٣

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) ﴾

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول ، أو كلمة الشهادة . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ وتمكنت منه . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالفته ومخالفة الرسول ، أو كل من تشيطن من جن وإنس . ﴿ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، فعول من الخذلان .

التحذير من هجر القرآن وعدم تلاوته وتدبره

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ محمد يومئذ أو في الدنيا بثًا إلى الله تعالى . ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ قريشًا . ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ بأن تركوه وصدوا عنه ، وعنه ﷺ : « **من تعلم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول : يا رب عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه** »(٢١) أو هجروا ولغوا فيه إذا سمعوه أو زعموا أنه هجر وأساطير الأولين ، فيكون أصله مهجوراً فيه فحذف الجار ويجوز أن يكون بمعنى الهجر كالمجلود

ﷺ فيزجره عقبة بن أبي معيط فنزل ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ إلى قوله ﴿ خذولا ﴾ وأخرج مثله عن الشعبي ومقسم . ـ لباب النقول للسيوطي ـ.

(٢١) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدبة عن أنس وأبو هدبة كذاب .

والمعقول ، وفيه تخويف لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبروا، وفيه دليل على أنه خالق الشر، والعدو يحتمل الواحد والجمع . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ إلى طريق قهرهم . ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ لك عليهم .

من صور تعنت الكفار

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قوله : ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة ، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقا مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقًا فتقوى بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه ، لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى، حيث كان ﷺ أميا وكانوا يكتبون ، فلو ألقي عليه جملة لعيل [٢٢] بحفظه ، ولعله لم يستتب له فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئًا فشيئًا ، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى ، ولأنه إذا نزل منجمًا وهو يتحدى بكل نَجْم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه ، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ، فإنه يعين على البلاغة ، وكذلك صفة مصدر محذوف والإشارة إلى إنزاله مفرقًا فإنه مدلول عليه بقوله : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وقف عليه فيكون حالاً والإشارة إلى الكتب السابقة ، واللام على الوجهين متعلق بمحذوف . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ وقرأناه عليك شيئًا بعد شيء على تؤدة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين ، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك . ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الدامغ له في جوابه . ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

---

(٢٢) عِيلَ: ضاق .

وبما هو أحسن بيانًا أو معنى من سؤالهم ، أو لا يأتونك بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفًا لما بعثت له .

الآيات من ٣٤ :٣٨

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) ﴾

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها . وعنه ﷺ : « **يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ، صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه** » وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره . ﴿ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ والمفضل عليه هو الرسول ﷺ على طريقة قوله تعالى : ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه** ﴾[٢٣] كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه وتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانًا وأضل سبيلا، وقيل إنه متصل بقوله ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا** ﴾ ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة .

إشارة إلى قصص الأنبياء السابقين لتسلية النبي ﷺ

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة ، لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه .

﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ يعنى فرعون وقومه .﴿ بِآيَاتِنَا

---

(٢٣) المائدة : ٦٠ .

﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم والتعقيب باعتبار الحكم لا الوقوع ، وقرئ فدمرتهم فدمراهم فدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ كذبوا نوحًا ومن قبله ، أو نوحًا وحده ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو بعثة الرسل مطلقًا كالبراهمة . ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ بالطوفان . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم. ﴿ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ عبرة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يحتمل التعميم والتخصيص فيكون وضعا للظاهر موضع المضمر تظليمًا لهم .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ عطف على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأن المعنى ووعدنا الظالمين ، وقرأ حمزة وحفص وثمود على تأويل القبيلة . ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيبا فكذبوه ، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبديارهم . وقيل : الرسل قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا. وقيل: الأخدود ، وقيل : بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار ، وقيل : هم أصحاب حنظلة ابن صفوان النبي ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون ، وسموها عنقاء لطول عنقها ، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد ، ولذلك سميت مغربًا فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة ، ثم أنهم قتلوه فأهلكوا . وقيل : هم قوم كذبوا نبيهم ورسوه أي دسوه في بئر . ﴿ وَقُرُونًا ﴾ وأهل أعصار ، قيل : القرن أربعون سنة ، وقيل سبعون ، وقيل مائة وعشرون . ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر . ﴿ كَثِيراً ﴾ لا يعلمها إلا الله .

الآيات من ٣٩ : ٤٤

﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) وَإِذَا

رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾

﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا كما قال : ﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ فتتناه تفتيتاً ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ، وكلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا كأنذرنا والثاني بتبرنا لأنه فارغ .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ يعنى قريشًا مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام . ﴿ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يعنى سدوم عظمى قري قوم لوط أمرت عليها الحجارة . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ في مرار مرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا بها كما مرت ركابهم ، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب ، أو لا يخافونه (٢٤) على اللغة التهامية .

استهزاء المشركين بالرسول ﷺ

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزواً به .﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ محكى بعد قول مضمر والإشارة للاستحقار، وإخراج بعث الله رسولاً في معرض التسليم يجعله صلة وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً .

﴿ إِن ﴾ إنه . ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حجج ومعجزات. ﴿ لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا في مثله تفيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ .﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ كالجواب لقولهم ﴿ إن كان ليضلنا ﴾ فإنه يفيد نفي ما

---

(٢٤) لغة تهامة فيها : يرجون بمعنى يخافون .

يلزمه ويكون الموجب له ، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أمهلهم .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلاً ، وإنما قدم المفعول الثاني للعناية به . ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ حفيظا تمنعه عن الشرك والمعاصي وحاله هذا فالاستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار .

﴿ أَمْ تَحْسَبُ ﴾ بل أتحسب . ﴿ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ فتجدي لهم الآيات أو الحجج فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه ،وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكبارًا وخوفًا على الرئاسة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات .

﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسئ إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ، ولأنها إن لم تعتقد حقًا ولم تكتسب خيرًا لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شرًا ، بخلاف هؤلاء ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم .

الآيات من ٤٥ : ٤٨

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾

من المظاهر الكونية الدالة على قدرة الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ألم تنظر إلى صنعه . ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ كيف بسطه :

أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك ، فغير النظم إشعاراً بأنه المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه ، وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئى فكيف بالمحسوس منه ، أو ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال ، فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ، ولذلك وصف به الجنة فقال وظل ممدود . ﴿ **وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا** ﴾ ثابتًا من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد . ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً** ﴾ فإنه لا يظهر للحس حتي تطلع فيقع ضوؤها على بعض الأجرام ، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها .

﴿ **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا** ﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن أحداثه بالحد بمعني التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف . ﴿ **قَبْضًا يَسِيراً** ﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقات ظهورها ، وقيل : مد الظل لما بني السماء بلا نَيِّر ، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتًا على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلطًا عليه مستتبعاً إياه كما يستتبع الدليل المدلول، أو دليل الطريق من يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها ، ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيراً شيئًا فشيئًا إلى أن تنتهي غاية نقصانه ، أو قبضًا سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها .

*** الإعجاز العلمي**

قوله تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾

هذه الآية من أقوى الآيات الدالة على حركة الأرض ولو أن الأرض ساكنة ثابتة لظلت الشمس وأشعتها في مكان ثابت من أحد جوانب الأرض والجانب الآخر معتم دائما ، ولكن تغير الظل من موضع إلى آخر دليل قوي على حركة الأرض وانظر إلى جمال التعبير البلاغي العلمي الدقيق في زمن التنزيل ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ للدلالة على حركة الدوران .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ شبه ظلامه باللباس في ستره . ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ راحة للأبدان بقطع المشاغل ، وأصل السبت القطع أو موتًا كقوله ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾(٢٥) لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت . ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعث من النوم بعث الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور . وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر(٢٦) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الـــرِّيَاحَ ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس. ﴿ بُشْراً ﴾ ناشرات للحساب جمع نشور ، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف وحمزة والكسائى به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به وعاصم بشرًا تخفيف بشر جمع بشور بمعنى مبشر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعنى قدام المطر . ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ مطهرا لقوله ﴿ ليطهركم به ﴾ (٢٧) وهو اسم لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به. قال ﷺ : « التراب طهور المؤمن ،

(٢٥) الأنعام : ٦٠ .

(٢٦) جعل الله النوم من آياته ، فقال : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ [الروم : ٢٣] .

والنوم ضرورة من ضرورات الحياة ونعمة من نعمه سبحانه وتعالى كما أنه راحة ورحمة ، وأكد الطب أن النوم ناشئ عن تغيرات كيميائية تحدث من الحركة في الأنسجة البدنية ، فإذا ما استمرت هذه التغيرات ومنع الإنسان النوم قهرا أدت إلى الموت حتما .

أما النوم فإنه يعيد هذه التغيرات الكيمائية إلي ما كانت عليه قبل الحركة ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ اي العمل والتفكير والنشاط والحركة في سبيل الكسب بعد النوم بالليل والنهار ، فلولا النوم بالليل والنهار ما ابتغى من فضل الله حي من إنسان وحيوان ، إذ في النوم ليلا أو نهاراً يسترد الحي مابذله من قوى وما فقده من بدنه في سبيل العمل والسعي للعيش .

فما النوم إلا تجديد يعيد إلى الجسم نشاطه وقوته كما يعيد إلى عقل الإنسان صفاءه وقدرته . .

من كتاب معجزة القرآن ـ نعمت صدقي ـ ص ١٨٦ .

(٢٧) الأنفال : ١١ .

طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعًا إحداهن بالتراب »[٢٨] .
وقيل : بليغًا في الطهارة ، وفعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث[٢٩] وللمصدر كالقَبول واللاسم كالذَنوب[٣٠] ، وتوصيف الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته ، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى .

الآيات من ٤٩ : ٥٤

﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ بالنبات وتذكير ميتاً لأن البلدة في معني البلد، ولأنه غير جار علي الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجري الجامد . ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ يعنى أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي ، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقري يقيمون بقرب الأنهار ، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبًا ، مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة ، فهو لتعداد أنواع النعمة ، والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية

(٢٨) أخرج السيوطي شطره الثاني في الجامع الصغير جـ ٢ صـ ٥٧ ، وقال أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة ورمز له السيوطي بالصحة والحسن .
(٢٩) الضَّبوث : من ضبث الشيء وبه وعليه أي قبض عليه بكفه قبضًا شديداً فضبوث بفتح الضاد بمعنى مضبوث أي مقبوض عليه .
(٣٠) الذنوب ـ بفتح الذال : الدلو العظيمة ، والنصيب من كل شيء .

معايشهم منوطة بها ، ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها ، وقرئ نسقيه بالفتح وسقي وأسقى لغتان ، وقيل : أسقاه جعل له سقيًا وأناسي بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظرابي (٣١) في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب ، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوته من وابل وطل وغيرهما ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية ، أو في الأنهار والمنافع . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم . ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها ، أو جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يري أنها من خلق الله ، و الأنواء وسائط وأمارات بجعله تعالى .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ نبيًا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن قصرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيما لشأنك وتفضيلا لك على سائر الرسل ، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق .

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ فيما يريدونك عليه ، وهو تهييج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين . ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه فلا تطع ،والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم . ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف ، أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوهم وظهورهم ، أو لأنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى .

---

(٣١) الظربان ـ بفتح الظاء وكسر الراء ـ حيوان أصغر من السِّنَّوْر أصلم الأذنين مجتمع الرأس قصير القوائم منتن الرائحة ـ يجمع على ظرابئ ـ بالياء ، وظرابين بالنون ، ويجمع كذلك على ظِرْبَى ـ المعجم الوجيز ـ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خَلاَّها ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قامع للعطش من فرط

*** الإعجاز العلمي**

من كتاب تفسير الآيات القرآنية للدكتور / عبد الله شحاته .

البرزخ الكائن بين البحار :

قال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالي : ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً ﴾ .

« إن اليد التي تدبر هذا الكون ، مرجت البحرين ، وجعلت بينهما برزخا وحاجزا من طبيعتهما ، ومن طبيعة هذاالكون المتناسق الذي تجري مقاديره بيد الصانع الحكيم الذي ترك البحرين ، الفرات العذب ، والملح المر يجريان ويلتقيان فلا يختلطان ولا يمتزجان ، إنما يكون بينهما برزخ ، فمجاري الأنهار غالبا أعلى من سطح البحر ، و لا يقع العكس إلا شذوذًا حيث ثبت علميا أن مياه الأنهار التي تصب في المحيطات كثافتها أقل من كثافة المياه الملحية فتظل سابحة فوق المياه المالحة فلا تختلط بها ، وبهذا التقدير الدقيق، لا يطغى البحر وهو أضخم وأغزر على النهر الذي منه الحياة للناس ولجميع الكائنات الحية .

ومن عجائب قدرة الله تعالى أنه جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته ، كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر .

وتدل المشاهدات الواقعية علي أن مياه نهر الأمزون الذي يصب في المحيط الاطلنطي تندفع مسافة ٢٠٠ ميل في المحيط ، حافظة لعذوبتها طول هذه المسافة .

وفي الخليج العربي نجد عيونا من الماء العذب تفيض داخل مياه الخليج الملح بماء عذب .

وقد روعي في نواميس هذا الكون ألا تطغي مياه المحيطات الملحة ، لا على الأنهار، ولا على اليابسة ، حتى في حالات المد والجزر التي تحدث من جاذبية القمر للماء الذي على سطح الأرض ، ويرتفع بها الماء ارتفاعاً عظيماً ، قد يصل إلى ستين قدما في بعض الأماكن ، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر ، ويبدو لنا كل شى منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحني أمامها قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية .

عذوبته . ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بليغ الملوحة ، وقرئ ملح على فعل ولعل أصله مالح فخفف كبرد في بارد ﴿ وجعل بينهما برزخا ﴾ حاجزا من قدرته . ﴿ وحجرًا محجورا ﴾ وتنافرا بليغا كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوذ للمتعوَّذ عنه ، وقيل : حدًّا محدودًا وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها ، وقيل : المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل، وبالبحر الملح البحر الكبير ، وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة ، مع أن مقتضي طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ تعنى الذي خمر به طينة آدم ، أو جعله جزءًا من مادة البشر لتجتمع لتبشر وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة ، أو النطفة . ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكورا ينسب إليهم ، وذوات صهر أي إناثا يصاهر بهن كقوله تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾(٣٢) . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين ، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا و أنثى .

الآيات من ٥٥ : ٥٩

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾

إصرار الكفار على الشرك

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ ﴾ يعنى الأصنام أو كل ما

(٣٢) القيامة : ٣٩ .

عبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر . ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل . وقيل هينًا مهينًا لا وقع له عنده من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ﴾(٣٣) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيراً ﴾ للمؤمنين والكافرين .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه إلا مبشراً ونذيراً . ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ ﴾ إلا فعل من شاء . ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة ، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله واستثناه منه قلعًا لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة ، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافيًا مرضيًا به مقصوراً عليه ، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدلالته . وقيل : الاستثناء منقطع معناه لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل .

دعوة إلى التوكل والتسبيح بحمد الله

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناءعن أجورهم ، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم. ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ونزهه عن صفات النقصان مثنيًا عليه بأوصاف الكمال طالبًا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه . ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ ما ظهر منها وما بطن . ﴿ خَبِيراً ﴾ مطلعا فلا عليك إن آمنوا أوكفروا .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ قد سبق الكلام فيه ، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقا بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه ، وتحريض على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج ، والرحمن خبر الذي إن جعلته مبتدأ ولمحذوف إن جعلته صفة للحي ، أو بدل من المستكن في استوى وقرئ بالجر صفة للحي . ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾

---

(٣٣) آل عمران : ٧٧ .

فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالمًا يخبرك بحقيقته وهو الله تعالى ، أوجبريل أو من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه ، وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجئ ما يرادفه في كتبهم ، وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معني التفتيش يعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء . وقيل إنه صلة خبيراً .

الآيات من ٦٠ : ٦٥

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله ، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيره ولذلك قالوا : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾أي للذي تأمرناه يعني تأمرنا بسجوده أو لأمرك لنا من غيرعرفان . وقيل لأنه كان معرباً لم يسمعوه . وقرأ حمزة والكسائى يأمرنا بالياء على أنه قول بعضهم لبعض . ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ أي الأمر بالسجود للرحمن . ﴿ نُفُورًا ﴾ عن الإيمان .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ يعنى البروج الاثنى عشر سميت به وهي القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ يعنى الشمس لقوله ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾(٣٤) وقرأ حمزةوالكسائى سراجا وهي الشمس والكواكب الكبار. ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ مضيئًا بالليل،وقرئ وقمراً أي ذا قمر وهو جمع قمراء ويحتمل

---

(٣٤) نوح : ١٦ .

أن يكون بمعنى القمر كالرشدوالرشد والعرب والعرب .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه ، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾(٣٥) وهي للحالة من خلف كالركبة والجلسة. ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد . ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم ، أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخرة ، وقرأ حمزة أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر وكذلك ليذكروا ووافقه الكسائى فيه .

صفات عباد الرحمن

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ مبتدأ خبره أولئك يجزون الغرفة أو ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ وإضافتهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل ، أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن عباد جمع عابد كتاجر وتجار .﴿ هَوْنًا ﴾ هينين أو مشيًا هينًا مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ تسلمًا منكم ومتاركة لكم لا خير بيننا ولا شر ، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم ، ولا ينافيه آية القتال لتنسخه فإن المراد به الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام (٣٦) .

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ في الصلاة ، وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمز وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للروى وهو جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه .

---

(٣٥) البقرة : ١٦٤ .

(٣٦) روي الإمام أحمد في مسنده عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله ﷺ : « سب رَجُلٌ رجلا عنده ـ أي عند رسول الله ﷺ ـ فجعل المسبوب يقول : عليك السلام. فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ملكا بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قلت له وعليك السلام قال : لا بل عليك وأنت أحق به » إسناده حسن .

ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٢٠ ـ .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ لازمًا ومنه الغريم لملازمته ، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وَجِلُون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم

الآيات من ٦٦ : ٧٢

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست مستقرًا ، وفيها ضمير مبهم يفسره المميز والمخصوص بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملة باسم إن ، أو أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقرًا حال أو تمييز والجملة تعليل للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم . ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، وقيل الإسراف هو الإنفاق في المحارم والتقتير منع الواجب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر ، وقرئ بالتشديدوالكل واحد . ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وسطًا عدلاً سمى به لاستقامة الطرفين كما سمي سواء لاستوائهما ، وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة ، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغوًا ، وقيل إنه اسم كان لكنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشئ عن نفسه .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلها . ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بالقتل المحذوف ، أو بلا يقتلون ﴿ وَلا يَزْنُونَ ﴾ نفي عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكورموعود للجامع بين ذلك ، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء إثم أو إثماً بإضمار الجزاء ، وقرئ أياماً أي شدائد يقال يوم ذو أيام أي صعب .

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بدل من يلق لأنه في معناه كقوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا ... تَجِدْ حَطَبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأَجَّجَا(٣٧) .

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ وابن كثير ويعقوب يضعف بالجزم وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في يضعف ، وقرئ ويخلد على بناء المفعول مخففاً ، وقرئ مثقلاً وتضعيف العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إلى الكفر ويدل عليه قوله :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم (٣٨) ، أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة . وقيل بأن يوفقه لأضدادما سلف منه ، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات .

---

(٣٧) تأجج : تشتعل ، وأصلها : تتاجج حذفت إحدى التاءين تخفيفا كقوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ . وقد سبق شرح هذا البيت .

(٣٨) روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتي برجل فيقول : نَحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا كذا وكذا . فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا، فيقال إن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يا رب عملت أشياء لا أراها هنا . قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه » وانفرد بإخراجه مسلم .

﴿ وَمَن تَابَ ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها . ﴿ وعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يتلافى به ما فرط ، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة .﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يرجع إلى الله بذلك . ﴿ مَتَابًا ﴾ مرضيا عند الله ماحيا للعقاب محصلاً للثواب ، أو يتوب متابًا إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم ؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعًا حسنًا وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة ، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه . ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ ما يجب أن يلقى ويطرح . ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به .

الآيات من ٧٣ : ٧٧

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ بالوعظ أو القراءة . ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية ، فالمراد من النفي نفي الحال دون الفعل كقولك : لا يلقاني زيد مسلماً . وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل ، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة، ومن ابتدائية أو بيانية كقولك : رأيت منك أسدا ،وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو

بكر وذريتنا وقرأ ابن عامر والحرميان وحفص ويعقوب وذرياتنا بالألف ، وتنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيماً وتقليلها لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم . ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل ، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾[٣٩] أو لأنه مصدر في أصله ، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم . وقيل جمع آم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ أعلي مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى :﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾[٤٠] وللقراءة بها ، وقيل هي من أسماء الجنة . ﴿ بما صبروا ﴾ بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات . ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم ، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقية دائمة وسلامة من كل آفة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يلقون من لقي .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون . ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ مقابل ساءت مستقراً معنى ومثله إعراباً .

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ ما يصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته أو لا يعتد بكم . ﴿ لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء . وقيل : معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة وما إن جعلت استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنه قيل : أي عبء يعبأ بكم . ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بما أخبرتكم من حيث خالفتموه .وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم : كذب القتال إذا لم يبالغ فيه . وقرئ فقد كذب الكافرون أي الكافرون منكم لأن توجه الخطاب إلى الناس عامة بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب . ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ يكون جزاء التكذيب لازماً

---

(٣٩) غافر : ٦٧ .

(٤٠) سبأ : ٣٧ .

يحيق بكم لا محالة ، أو أثره لازمًا بكم حتى يكبكبكم في النار ، وإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتنهه الوصف، وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزامًا وقرئ لزامًا بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت .

فضل سورة الفرقان

عن النبي ﷺ : « **من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب** » (٤١) .

---

(٤١) ذكره الزمخشري في تفسيره وعلق عليه الحافظ ابن حجر بقوله : أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢٦) سورة الشعراء مكية

إلا قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخرها

وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية (١)

وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٦

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾

﴿ طسٓمٓ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة ، ونافع بين كراهة للعود إلى الياد المهروب منها ، وأظهر نونه حمزة لأنه في الأصل منفصل عما بعده .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الظاهر إعجازه وصحته ، والإشارة إلى السورة أو القرآن على ما قرر في أول البقرة .

شدة حزن النبي ﷺ على إعراض قومه عن الهداية

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قاتل نفسك ، وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح ، وقرئ باخع نفسك بالإضافة ، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة . ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لئلا يؤمنوا أو خيفة أن لا يؤمنوا .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاسرة

---

(١) في تفسير ابن كثير : آية ١٩٧ مدنية بالإضافة إلى الآيات من ٢٢٤ إلى آخر السورة .
ونزلت هذه السورة بعد الواقعة .
وفي تفسير مالك المروي عنه : تسمى هذه السورة : سورة الجامعة .

عليه . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله . وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم .وقيل المراد بها الرؤساء أو الجماعات من قولهم : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم ، وقرئ خاضعة وظلت عطف على ننزل عطف وأكن على فأصدق لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن .﴿ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ يوحيه إلى نبيه . ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ مجدد إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير . ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ماكانوا عليه .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمنًا في قوله : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ أي إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة . ﴿ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ من أنه كان حقا أم باطلا ، وكان حقيقًا بان يصدق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره .

الآيات من ٧ : ١٧

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾

لفت أنظارهم إلى مظهر من مظاهر قدرة الله

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها . ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ كَرِيمٍ ﴾ محمود كثير المنفعة ، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى ، وههنا يحتمل أن تكون مقيدة لما يتضمن الدلالة على القدرة ، وأن

تكون مبنية منبهة على أنه ما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره ، وكل

* الإعجاز العلمي

التلقيح والتزاوج :

قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ .

وقال : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

وقال : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

وقال : ﴿ ألم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

وقال : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

وقال : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ .

وقال : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ .

وقال : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنابه أزواجا من نبات شتى ﴾ .

من إعجاز القرآن أيضاً الإعلان عن نظرية التلقيح والتزاوج بين الذكورة والأنوثة في الغرائس والنباتات ، كما هي سنة الحياة في البشر والحيوان والطيور .. وإذا كانت الحياة في الإنسان تبدأ كجنين صغير تحتضنه الأم ، فالحياة في النبات تبدأ هي الأخرى كجنين صغير تحتضنه الحبة أو النواة ، وتختزن له من الغذاء ما يكفيه أثناء الإنبات والنمو .

وتبقى الأجنة ساكنة هادئة حتي تضمها الأرض ، وتتهيأ لها الظروف المناسبة من حرارة وماء ، فينفلق الحب والنوى وينمو الجنين .

وإذا اكتمل نمو النبات ووصل به السن إلى البلوغ تفتحت أزهاره وأينعت ثماره [من مقال لعبد الحميد المشهدي تحت عنوان التبليغ والاقتناع بالمعجزات] . ويقرر العلم الحديث أن أزهار النباتات على اختلاف أنواعها تنقسم ثلاثة أقسام : أزهار مذكرة ، وأزهار مؤنثة ، وأزهار خنثى تجمع الناحيتين من عضو التذكير ، وعضو التأنيث معا ، ومن الأمثلة الموضحة لذلك النخيل ، فمنه نوع مذكر وآخر مؤنث ، ونبات الذرة يحمل في وقت واحد أزهاراً مذكرة وأخرى مؤنثه .

وهنالك صور غريبة ومثيرة للكيفية التي يتم بها اللقاح بين الذكر والأنثى .. ومن هذه الصور :

« إن هناك كثيراً من الأزهار تسجن الحشرات داخلها ، ومن أمثلتها : الزهرة المسماة « جاك في المقصورة » .. ولهذا النبات نوعان من المجموعات الزهرية ، ذكور وإناث .. وهي

لإحاطة الأزواج وكم لكثرتها .

* الإعجاز العلمي

تتكون داخل مقصورات تضيق عند منتصفها ، و يتم التلقيح بواسطة ذبابة دقيقة، تدخل إلى المقصورة، ولاتكاد تجتاز المنطقة الضيقة الوسطى حتى تجد نفسها سجينة ، ليس بسبب الضيق فحسب ، بل بسبب تغطية الجدران الداخلية بمادة شمعية منزلقة يتعذر معها على الحشرة أن تثبت أقدامها ، وعندئذ تدور الحشرةبصورة جنونية داخل المكان ، فتعلق هبوات اللقاح بجسمها . . وبعد قليل تتصلب جوانب المقصورة بعض الشيء ، فتستطيع الحشرة الخروج بعد أن يكون جسمها قد تغطى بهبوات اللقاح .

فإذا زارت مقصورة مذكرة أخري تكررت نفس العملية السابقة ، أما إذا دخلت مقصورة أنثى ، فإنها تسجن في داخلها سجناً دائما حتى تموت هي . . وعند محاولتها اليائسة للخروج، تقوم بتلقيح الأزهار الأنثى .

إن النبات في هذه الحالة لا يهتم بخروج الحشرة ؛ لأنها تكون قد أدت رسالتها . . أما عندزيارتها للمقصورات المذكرة فإنه يسمح لها بالخروج ؛ لأنهالا تكون قد أدت رسالتها ».

والزهرة هي عضو النبات المنوط بالتكاثر ، ففيها أعضاء التذكير أو أعضاء التأنيث . . وتحاط هذه الأعضاء بطبقتين من الأوراق تمتاز الخارجية منها بأوراقها الخضراء ، وتتميز الداخلية بأوراقها التي كثيراً ما تكون ملونة أو ذات رائحة جذابة ، ورحيق حلو المذاق . . وربما احتوت الزهرة الواحدة على كل من أعضاء التذكير والتأنيث . . وإما أن تكون مذكرة فقط أو مؤنثة فقط ، وفي كل من الحالتين لا بد أن تتحد حبّة اللقاح بنواة البيضة ؛ ليتم تكوين الحبة أو البذرة التي تجمع من صفات الأب وصفات الأم . . وللتلقيح طرق كثيرة منها ما يقوم به الإنسان ، كما في النخيل، ومنها ما تقوم به الحشرات ، ومنها ما يقوم به الهواء ، ومنها ما يتم بواسطة تيارات الماء .

وتمتاز الأزهار التي تلقح بالهواء أن أعضاءها التناسلية معرضة للهواء ، فتطول خيوط الأسدية وتستدق وتكبر المتك ، وتتدلّى خارج الزهرة حتى تهزها الرياح ، فتتساقط منها حبات اللقاح خفيفة ملساء ، حتي يسهل حملها بالهواء إلى المياسم التي أعدتها هي الأخرى لهذا اللقاء »

فإذا ما قام الهواء بنصيبه وسقطت حبة اللقاح على الميسم ، التصقت به وبرزت منها أنبوبة تعرف بأنبوبة اللقاح التي لا تلبث أن تنمو وتخترق أنسجة الميسم والقلم ، حتي تصل إلى المبيض حيث توجد البويضات ، ويتم تلقيح البويضة . . تلك هي التي أشار إليها القرآن في قوله :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾

مما يعد إعجازا علميا يشهد لهذا الكتاب الحكيم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف أو في كل واحد. ﴿ لَآيَةً ﴾ على أن منبتها تام القدرة والحكمة ، سابغ النعمة والرحمة . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن .

تذكير بقصص الأنبياء ـ قصة موسى عليه السلام

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ مقدر باذكر أو ظرف لما بعده . ﴿ أَنِ ائْتِ ﴾ أي ائت أو بأن ائت .﴿ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل. وذبح أولادهم .

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له ، ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه . وقرئ بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم و غضباً عليهم ، وهم وإن كانوا غيباً حينئذ أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم و إسماعه مبدأ إسماعهم ، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده ، وقرئ بكسر النون اكتفاء بها عن ياء الإضافة ، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون كقوله : ألا يا اسجدوا.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة : خوف التكذيب ، وضيق القلب انفعالاً عنه ، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق ، لأنها إذا اجتمعت مسة الحاجة إلى معين يقوي قلبه وينوب منابه متى تعتريه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته ،وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر ، بل طلباً لما يكون معونة على امتثاله وتمهيد عذره فيه ، وقرأ يعقوب ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفاً على يكذبون فيكونان من جملة ما خاف منه .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمى باسمه ، والمراد قتل القبطي (٢) وإنما سماه ذنبًا على زعمهم ، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع . ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به قبل أداء الرسالة ، وهو أيضًا ليس تعللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة ، كما إن ذاك استعداد واستظهار في أمر الدعوة وقوله :

﴿ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ﴾ إجابة له إلى الطلبتين بوعده بدفع بلائهم اللازم ردعه عن الخوف ، وضم أخيه إليه في الإرسال ، والخطاب في فاذهبا على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبته .﴿ إِنَّا مَعَكُم ﴾ يعنى موسى وهارون وفرعون. ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأظهركما عليه ، مَثَّل نفسه تعالى بمن حضر مجادلة قوم استماعًا لما يجري بينهم وترقبًا لإمداد أوليائه منهم، مبالغة في الوعد بالإعانة ، ولذلك تَجَوَّز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات ، وهو خبر ثان أو الخبر وحده ومعكم لغو .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة، قال الشاعر :

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتَ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلاَأَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ(٣)

ولذلك ثني تارة وأفرد أخرى ، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به، أو لأنه أراد أن كل واحد منا .

---

(٢) ستأتي هذه القصة مفصلة في سورة القصص.

(٣) هذا البيت لكثير عزة من أبيات هي :

حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كل جديل
لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
فلا تعجلي يا عز أن تتفهمي بنصح أتى الواشون أم بحبول

والراقصات هي المطايا ، والجديل : زمام الناقة .

وما فهت : ما تكلمت ، والرسول المقصود به الرسالة .

والحبول : جمع حِبل بالكسر وهو الداهية ، والمقصود بها الكذب عكس النصح .

من تعليق الشيخ محمد عليان في مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف .

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معني القول ، والمراد خلهم ليذهبوا معنا إلى الشام .

الآيات من ١٨ : ٢٤

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك . ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ في منازلنا . ﴿ وَلِيدًا ﴾ طفلا سمي به لقربه من الولادة . ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل : لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين ، ثم بقي بعد الغرق خمسين .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعنى قتل القبطي ، وبخه به معظمًا إياه بعدما عدد عليه نعمته ، وقرئ فعلتك بالكسر لأنها كانت قتلة بالوكز .﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بنعمتي حتى عمدت إلى قتل خواصِّي ، أو ممن تكفرهم الآن فإنه ﷺ كان يعايشهم بالتقية (٤) فهو حال من إحدى التاءين ، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأعليه بأنه من الكافرين بإلهيته أو بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة ، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ من الجاهلين وقد قرئ به ، والمعنى من الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه ، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله ، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكز لأنه أراد به التأديب ، أو الناسين من قوله تعالى :﴿ أن تضل إحداهما ﴾ (٥) .

---

(٤) التَّقِيَّة : الخشية والخوف ، وهي عند بعض الفرق الإسلامية : إخفاء الحق ومصانعة الناس في غير دولتهم تحرزا من التلف ـ المعجم الوجيز .

(٥) البقرة : ٢٨٢ .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ حكمة . ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحًا في نبوته ، ثم كَرَّ على ما عد عليه من النعمة ، ولم يصرح برده لأنه كان صدقًا غير قادح في دعواه ، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمة لكونه مسببًا عنها فقال .

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي وتلك التربية نعمة تمنها علي ظاهراً ، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وقصدهم بذبح أبنائهم ، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك . وقيل : إنه مقدر بهمزة الإنكار أي تلك نعمة تمنها علي وهي أن عبدت ،ومحل أن عبدت الرفع على أنه خبر محذوف أو بدل في نعمة أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها . وقيل : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيانهاوالمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده ، والخوف والفرار منه ومن ملئه .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما سمع جواب ما طعن به فيه ورأي أنه لم يَرْعَوِ (٦) بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل .

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ عرفه بأظهر خواصه وآثاره لما امتنع تعريف الأفراد إلا بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله :

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركبها وتعددها وتغير أحوالها ، فلها مبدئ واجب لذاته وذلك المبدئ لا بد وأن يكون مبدأً لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته .

الآيات من ٢٥ : ٣٠

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا

(٦) لم يَرْعَو : لم يتعظ ولم يتنبه ولم يكف .

بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جوابه سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله ، أو يزعم أنه رب السموات وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية ، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن أن يتوهم فيه مثله ويشك في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل .

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر ، وسماه رسولاً على السخرية .

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك لاينهم أولاً ، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ عدولاً إلى التهديد عن المحاجة بعد الانقطاع وهكذا ديدن المعاند المحجوج ،واستدل به على ادعائه الألوهية وإنكاره الصانع وأن تعجبه بقوله ﴿ ألا تستمعون ﴾ من نسبة الربوبية إلى غيره ، ولعله كان دهريا (٧) اعتقد أن من ملك قطرًا أو تولى أمره بقوة طالعه استحق العبادة من أهله ، واللام في المسجونين للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك جعل أبلغ من لأسجننك .

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صدق دعواي ، يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدعي نبوته ، فالواو للحال وليها الهمزة بعد حذف الفعل .

---

(٧) الدهري : الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ويقول ببقاء الدهر ، وهم الذين يقولون : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ الجاثية : ٢٤ .

الآيات من ٣١ : ٤٣

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣)﴾

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن لك بينة أو في دعواك ، فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة .

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته ، واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب إذا فجرته فانفجر .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ روي أن فرعون لما رأي الآية الأولى قال فهل غيرها ؟ فأخرج يده ، قال : فما فيها ؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق .

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال . ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر .

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارهم وتنفيرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه .

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر أمرهما . وقيل : احبسهما . ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ شرطًا يحشرون السحرة .

﴿ يأتوك بكل سحار عليم ﴾ يفضلون عليه في هذا الفن ، وأمالها ابن عامر وأبو عمرو و الكسائي . وقرئ بكل ساحر .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة .

﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثا على مبادرتهم إليه كقول تأبط شرا :

هَل أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بن مِخْرَاقِ(٨)

أي ابعث أحدهما إلينا سريعا .

﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا والترجي باعتبار الغلبة المقتضية للاتباع ، ومقصودهم الأصل أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾

﴿ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا فإذا على ما يقتضيه من الجواب والجزاء ، وقرئ نعم بالكسر وهما لغتان .

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أي بعدما قالوا له إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ، ولم يرد به أمرهم بالسحر والتمويه بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق .

الآيات من ٤٤ : ٥٣

﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٤٤) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (٤٥) فألقي السحرة ساجدين (٤٦) قالوا

---

(٨) البيت لتابط شرا ، وقيل : لجرير بن الخطفي .
وهل أداة استفهام والغرض من الاستفهام الاستبطاء ، وفيه حث على إجابة الطلب ودينار : اسم رجل ، وعبد رب : اسم رجل أيضا ، وأخا عون صفة له ، وقيل : منادي ، وعون ومخراق علمان .

آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتي به من السحر .

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع ، وقرأ حفص تلقف بالتخفيف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر ، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئًا لا حقيقة له ، وأن التبحر في كل فن نافع .وإنما بدل الخرور بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم ، وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق.

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بدل من ألقى بدل الاشتمال أو حال بإضمار قد .

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئا دون شيء ولذلك غلبكم ، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه ، وأراد به التلبيس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ، وقرأحمزة والكسائي وأبو بكر وروح أأمنتم بهمزتين .﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم وقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيان له .

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك .﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بما توعدنا به فإن الصبر عليه محاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى ، أو بسبب من أسباب الموت والقتل أنفعها وأرجاها .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا ﴾ . ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من أتباع فرعون ، أو من أهل المشهد والجملة في المعني تعليل ثان لنفي الضمير ، أو تعليل للعلة المتقدمة . وقرئ إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة ، أو على طريقة المدل بأمره نحو إن أحسنت إليك فلا تنس حقي .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتواً وفساداً ، وقرأ ابن كثير ونافع أن أسر بعبادي بكسر النون ووصل الألف من سري وقرئ أن سرْ من السير .
﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده وهو علة الأمر بالإسراء أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فاغرقهم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبر بسراهم . ﴿ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ العساكر ليتبعوهم .

الآيات من ٥٤ : ٦٥

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ﴾

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ على إرادة القول وإنما استقلهم وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا بالإضافة إلى جنوده ، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبعمائة

الف والشرذمة الطائفة القليلة ، ومنهاثوب شراذم لما بلي وتقطع ، وقليلون باعتبار أنهم أسباط كل سبط منهم قليل .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ لفاعلون ما يغيظنا .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ وإنا لجميع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور ، أشار أولا إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثًا عليه ، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يظن به ما يكسر سلطانه ، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان و الكوفيون حاذرون والأول للثبات والثاني للتجدد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضًا من الحذر لأن ذلك إنما يفعل حذرًا ، وقرئ حادرون بالدال المهملة أي أقوياء قال :

أحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ(٩)

أو تامو السلاح فإن ذلك يوجب حدارة في أجسامهم .

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم ﴾ بأن خلقنا داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه .﴿ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى المنازل الحسنة والمجالس البهية .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر ، أو مثل ذلك المقام الذي كان لهم على أنه صفة مقام ، أو الأمر كذلك فيكون خبر المحذوف . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ وقرئ فاتبعوهم . ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس .

---

(٩) هذا البيت ذكره الزمخشري في الكشاف ولم ينسبه لقائل ،وكذلك لم ينسبه الشيخ محمد عليان في كتابه مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف .

والحادر : القوي الشديد ، أو الشجاع الباسل ، والمعنى أن مدار حب الولد متوقف على حب أمه لا على حسن أوصافه ، ولكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء .

وما ذنب الولد أن يبغضه أبوه إن كان يبغض أمه ؟ وكم انحرف نشء بسبب انحراف هذه العاطفة الشاذة عن مسارها السوي ! .

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ تقاربا بحيث رأي كل واحد منهما الآخر ، وقرئ تراءت الفئتان ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ لملحقون ، وقرئ لمدركون من أدرك الشيء إذا تتابع ففنى، أي : لمتتابعون في الهلاك على أيديهم .

﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم .﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالحفظ والنصرة . ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ طريق النجاة منهم ، روي أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى فقال : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون ، قال : أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴾ .

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ بحر القلزم أو النيل (١٠) . ﴿ فَانفَلَقَ ﴾ أي فضرب فانفلق وصار اثنى عشر فرقا بينها مسالك . ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ وقربنا . ﴿ ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا .

الآيات من ٦٦ : ٧٦

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

---

(١٠) قيل أيضا : إنه بحر من وراء مصر يقال له أساف .. وبحر القلزم هو الذي يسمى الآن البحر الأحمر ، وهو الطريق الطبيعي إلى سيناء ثم إلى الشام وبيت المقدس ، وروي أن موسى عليه السلام ناجى ربه قائلا : يا من كان قبل كل شيء ؛ والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء .

كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ وأية آية . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بهاأحد ممن بقي في مصر من القبط وبنو إسرائيل بعد مانجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتي نرى الله جهرة ﴾(١١) .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنتقم من أعدائه . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه .

قصة إبراهيم مع أبيه وقومه

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ على مشركي العرب . ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحاً به وافتخاراً، ونظل ها هنا بمعنى ندوم . وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه وقرئ يسمعونكم أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم ومجيئه مضارعاً مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها .

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ على عبادتكم لها .﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ من أعرض عنها .

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضر أو نفع ،والتجاوا إلى التقليد .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ .

﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً .

---

(١١) البقرة : ٥٥.

الآيات من ٧٧ : ٨٧

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه ، أو إن المغرى بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان ، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في النصح من التصريح ، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول ، إفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب . ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد كما قال ﴿ والذي قدر فهدى ﴾(١٢) هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار ، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها ، والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية وقوله :

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ على الأول مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده ، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ عطف على يطعمني ويسقين لأنه من

---

(١٢) الأعلى : ٣ .

روادفهما، من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب ،وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم ، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحسن به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض ، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحقر دونها الحياة الدنيوية وخلاص من أنواع المحن والبليات ، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر ، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهرا وذلك بقدرة الله العزيز العليم .

﴿ **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ في الآخرة .

﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر ، وطلبا لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفاراً لما عسى يندر منه من الصغائر ، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث : إني سقيم ، بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله هي أختى ، ضعيف لأنها معاريض وليست خطايا .

﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا** ﴾ كما في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق .﴿ **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره .

﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين ، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبون له مثنون عليه ، أو صادقا من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ .

﴿ **وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الوراثة فيها .

﴿ **وَاغْفِرْ لِأَبِي** ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان . ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ طريق الحق وإن كان هذا الدعاء بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمان تقية من نمرود ولذلك وعده به (١٣) ، أو لأنه لم يمنع بعد من الاستغفار للكفار .

(١٣) يرد هذا الاحتمال ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى :﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ بمعاتبتي على ما فرطت ، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث ، أو بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً ، أو بتعذيب والدي ، أو يبعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان ، أو من الخزاية بمعنى الحياء .

﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو للضالين .

الآيات من ٨٨ : ١٠١

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته ، أو لا ينفعان إلا مال من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر ، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة . وقيل : الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنى إلا غناه . وقيل : منقطع والمعنى لكن سلامة من أتي الله بقلب سليم تنفعه .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون بأنهم المحشورون إليها .

عن النبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلي وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنةعلى الكافرين، ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار »

الأحاديث القدسية ص ٣٠٢ ، دار الكتاب العربي .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ فيرونها مكشوفة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، وفي اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾

﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم ؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم . ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتهم يدخلون النار كما قال : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ أي الآلهة وعبدتهم ، والكبكبة تكرير الكب لتكرير معناه كأن من ألقى في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ متبعوه عن عصاة الثقلين ، أو شياطينه . ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير وما عطف عليه وكذا الضمير المنفصل وما يعود إليه في قوله :

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾

﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ على أن الله ينطق الأصنام فتخاصم العبدة ويؤيده الخطاب في قوله :

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي في استحقاقه للعبادة ، ويجوز أن تكون الضمائر للعبد كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة ، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء .

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ إذ الأخلاء يومئذبعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعدهم شفعاء وأصدقاء ، أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق، وجمع الشافع وَوَحَّد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدو لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل .

الآيات ١٠٢ : ١١٥

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) ﴾

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ تَمَنٍّ للرجعة أقيم فيه لو مقام ليت لتلاقيهما في معنى التقدير ، أو شرط حذف جوابه ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمنى أو عطف على كرة أي : لو أن لنا أن نكر فنكون من المؤمنين .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم .﴿ لَآيَةً ﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر ، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير ، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينيةوالتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصور الأمر في نفسه ، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وأيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول .﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أكثر قومه . ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ به .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر على تعجيل الانتقام .﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم .

قصة نوح مع قومه

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ القوم مؤنثة ولذلك تصغر على قويمة وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ لأنه كان منهم . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله فتتركوا عبادة غيره .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيكم .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح . ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره للتأكيدوالتنبيه على دلالة كل واحد من أمانته وحسم طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في أجري في الكلمات الخمس .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ الأقلون جاهًا ومالاً جمع الأرذل على الصحة ، وقرأ يعقوب وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تبع كبطل وأبطال ، وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الحطام الدنيوية ، حتى جعلوا اتباع المقلين فيها مانعًا عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه ، وأشارو بذلك إلى أن اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إنهم عملوه إخلاصًا أو طمعًا في طعمة وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي ﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطلع عليها . ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاه طردهم وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه وقوله :

﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء كانوا أعزاء أو أذلاء فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء ، أو ما عليَّ إلا إنذاركم إنذارًا بينًا بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطردهم لاسترضائكم .

الآيات من ١١٦ : ١٢٩

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)

فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ ﴾ عما تقول . ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق إلا تخويفهم له واستخفافهم عليه .

﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفتاحة . ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ بعد إنجائه . ﴿ الْبَاقِينَ ﴾ من قومه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ شاعت وتواترت .﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قصة عاد قوم هود

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تصدير القصص بها دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه ، وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن

اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ بكل مكان مرتفع ، ومنه ريع الأرض لارتفاعها. ﴿ آيَةً ﴾ علماً للمارة. ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام، أو بنيانًا يجتمعون إليه للعبث بمن يمر عليهم ، أو قصوراً يفتخرون بها .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ مآخذ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصونًا . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ فتحكمون بنيانها .

الآيات من ١٣٠ : ١٤٥

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم ﴾ بسيف أو سوط .﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ونظر في العاقبة .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك هذه الأشياء . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ كرره مرتبًا على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع ، ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساويهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ألا تتقون مبالغة في الإيقاظ والحث على التقوى قال :

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ .

﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ثم أوعدهم فقال .

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدنيا والآخرة ، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام.

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغيير شق النفي عما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه .

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين ، أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة خلق الأولين بضمتين أي ما هذا الذي جئت به إلاعادة الأولين كانوا يلفقون مثله ، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون ، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم تزل الناس عليها .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

قصة ثمود قوم صالح

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الآيات من ١٤٦ : ١٥٥

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

(١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ إنكار لأن يتركوا كذلك أو تذكير للنعمة في تخلية الله إياهم وأسباب تنعمهم آمنين ثم فسره بقوله .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ لطيف لين للطف الثمر ، أو لأن النخل أنثى وطلع وأناث النخل أليف وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو، أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ بطرين أوحاذقين من الفراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرهين وهو أبلغ من فارهين .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استعيرت الطاعة التي هي انقياد الأمر لامتثال الأمر، أو نسب حكم الآمر إلى أمره مجازاً .

﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ وصف موضح لإسرافهم ولذلك عطف: ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ على يفسدون دلالة على خلوص فسادهم .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سحروا كثيرا حتى غلب على عقلهم، أو من ذوي السَّحْر وهي الرئة أي من الأناسي فيكون .

﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكيداً له . ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك .

﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كمااقترحوها . ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي والقوت وقرئ بالضم . ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها .

الآيات من ١٥٦ : ١٧٠

﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) ﴾

﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه ، وهوأبلغ من تعظيم العذب .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقر إلي كلهم لأن عاقرها إنما عقرها برضاهم ولذلك أخذوا جميعا .﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ علي عقرها خوفا من حلول العذاب لا توبة، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم .

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي العذاب الموعود .﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وإن قريشا إنما عصموا عن مثله ببركة من آمن منهم .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قصة لوط وقومه

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم ، أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم ، فالمراد بالعالمين علي الأول كل من ينكح وعلي الثاني الناس .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ ﴾لأجل استمتاعكم . ﴿ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ للبيان إن أريد به جنس الإناث ، أو للتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فيكون تعريضا بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا علي سائر الناس بل الحيوانات ، أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك ، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة .

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا وتقبيح أمرنا . ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ من المنفيين من بين أظهرنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال .

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ من المبغضين غاية البغض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد ، وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه من جملتهم .

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤمه وعذابه .

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أهل بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم .

الآيات من ١٧١ : ١٨٧

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ

﴿ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) ﴾

﴿ إِلاَّ عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط . ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ مقدرة في الباقين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم . وقيل كائنة فيمن بقي في القرية فإنها لم تخرج مع لوط .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ أهلكناهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ وقيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة فأهلكهم .

﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ اللام فيه للجنس حتي يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قصة شعيب وقومه

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة فبعث الله إليهم شعيبًا كما بعثه إلى مدين وكان أجنبيًا منهم فلذلك قال :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب . وقيل : الأيكة شجر ملتف وكان شجرهم الدَّوْم وهو المقل ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ليكة بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدتهم ، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعًا للفظ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾
﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أتموه ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ بالميزان السوي ، وهو إن كان عربيًا فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف . ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ولا تنقصوا شيئًا من حقوقهم . ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ وذوي الجبلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾
﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه . ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في دعواك .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قطعة منها ، ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد . وقرأ حفص بفتح السين . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك .

الآيات من ١٨٨ : ٢٠١

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبعذابه منزل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت أنهارهم وأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به ، واطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به ، واقتراحهم لهم استهزاء وعدم مبالاة به يدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاء لهم لا مؤاخذة على تكذيبهم .

حديث عن القرآن العظيم

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ ، فإن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل ، والقلب إن أراد به الروح فذاك وإن أراد به العضو فتخصيصه ، لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخلية ، والروح الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمين الله على وحيه . وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائى بتشديد الزاي ونصب الروح الأمين . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك .

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضح المعنى لئلا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بنزل ، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين أي لتكون ممن أنذروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً ﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقرير لكونه دليلاً . وقرأ ابن عامر تكن بالتاء وآية بالرفع على أنها الاسم والخبر لهم وأن يعلمه بدل أو الفاعل وأن يعلمه بدل وهم حال ، أو أن الاسم ضمير القصة وآية خبر أن يعلمه والجملة خبر تكن .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ كما هو زيادة في إعجازه أو بلغة العجم .

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم ، أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم ، والأعجمين جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أدخلناه . ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ فتدل الآية على أنه بخلق الله ، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه ثم لم يؤمنوابه عناداً .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ الملجئ إلى الإيمان .

الآيات من ٢٠٢ : ٢١٥

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه .

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسراً وتأسفاً .

استعجال الكفار بالعذاب

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فيقولون أمطر علينا حجارة من السماء ، فائتنا بما تعدنا ، وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ أنذروا أهلها إلزامًا للحجة .

﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها في معنى الإنذار ، أو الرفع على أنها صفة منذرون بإضمار ذوو ، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة ، أو خبر محذوف والجملة اعتراضية . ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فنهلك غير الظالمين ، أو قبل الإنذار .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلى الشياطين على الكهنة .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾ وما يصح لهم أن يتنزلوا به . ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ وما يقدرون .

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ ﴾ لكلام الملائكة . ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية ، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة .

وصايا للنبي ﷺ

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم روي أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذًا فخذًا حتى اجتمعوا إليه فقال : لو

أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي ، قالوا نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لين جانبك لهم ، مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط ، ومن للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره ، أو للتبعيض على أن المراد من المؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان .

الآيات من ٢١٦ : ٢٢٣

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) ﴾

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ ولم يتبعوك . ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم . وقرأ نافع وابن عامر فتوكل على الإبدال من جواب الشرط .

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ وترددك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه ﷺ لما نسخ قيام فرض الليل طاف ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم ، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن . أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم ، وإنما وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تنويه .

الشياطين تتنزل على الكاذبين الآثمين

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ لما بين أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمدا ﷺ لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين : أحدهما أنه إنمايكون على شرير كذاب كثير الإثم ، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لما بينهما من التناسب والتواد وحال محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله :

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنونًا وأمارات لنقصان علمهم ، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء في الحديث « **الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة** » ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ، وقد فسر الأكثر بالكل لقوله تعالى : ﴿ **كل أفاك أثيم** ﴾ . والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجني . وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يرجموا فيختطفون منهم بعض المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم ، أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم .

الآيات من ٢٢٤ : ٢٢٧

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

ذم الشعراء الكاذبين

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك ، وهو استئناف أبطل كونه عليه الصلاة والسلام شاعرًا وقرره بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة

لها ، وأغلب كلماتهم في النسيب بالحرم والعزل ، والابتهار وتمزيق الأعراض ، والقدح في الأنساب ، والوعد الكاذب ، والافتخار الباطل ، ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه ، وإليه أشار بقوله :

﴿ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** ﴾ وكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى ، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين ، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلم في القسمين وبين منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما . وقرأ نافع يتبعهم على التخفيف، وقرئ بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً .

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله ، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته ، ولو قالوا هَجْوًا أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هجاة قريش ، ومن هؤلاء الشعراء المؤمنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان (١٤) ، وكان ﷺ يقول لحسان : « **قل وروح القدس معك** »(١٥) . وعن كعب بن مالك أنه ﷺ قال له :« **اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل** » (١٦) .

﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم ، وفي أي منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهد إليه ، وقرئ أي منفلت ينفلتون من الانفلات وهو النجاة والمعنى : أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات .

---

(١٤) يعنى كعب بن مالك وكعب بن زهير رضي الله عنهما .

(١٥) متفق عليه من حديث البزار ولفظ النسائى ، وأخرجه الحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر رضي الله عنه.

(١٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه ، ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

فضل سورة الشعراء

عن النبي ﷺ « من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام » (١٧) .

---

(١٧) ذكره الزمخشري في تفسيره دون إسناد ، وقال عنه الحافظ ابن حجر رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنهما .

تعليق على سبب تسمية السورة بالشعراء

لعل في اختصاص هذه السورة بهذا الاسم « الشعراء » مع ما فيها من قصص الأنبياء وغيرها من مختلف المعاني لفتا للأذهان إلى أهمية الموهبة الفنية وبخاصة الشعر والأدب ، ووجوب استعمالها فيما يجب أن تكون فيه من الدفاع عن الحق وإبراز الجوانب الطيبة في الحياة ، والنأي بها عن مزالق الهوي والشيطان وإثارة الفتنة والرذيلة .

إن الشعر موهبة من الرحمن ، وهو سلاح قوي فعال فيجب وضعه في خدمة دين الله كما كان السلف الصالح يفعلون من توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة و الزهد والآداب الحسنة ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة ، وما لا بأس به من المعاني النبيلة المختلفة والمثل العليا والقيم الرفيعة . ومحاربة الباطل والشر والدعوات الهدامة .

الشعر رسالة سامية يجب أن تؤدي لتنصر الحق وترفع لواءه ، لا لتثير الشهوات وتنشر الموبقات ، قال رسول الله ﷺ في حق الجهاد بالكلمة « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » أخرجه الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك ، وكان كعب قد قال للنبي ﷺ : يا رسول الله إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . فقال له النبي ﷺ الحديث المتقدم .

(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون[١]
بسم الله الرحمن الرحيم
الآيات من ١ : ٥

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) ﴾

حديث عن القرآن ومدح المؤمنين به وذم الجاحدين له

﴿ طسٓ ﴾

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ الإشارة إلى آي السورة ، والكتاب المبين إما اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه ، وتأخيره باعتبار تعلق علمنابه وتقديمه في الحجر باعتبار الوجود ، أو القرآن وإبانته لما أودع فيه من الحكم والأحكام ، أو لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيره للتعظيم . وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة ، أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة . ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف ، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه ، أوجملة اعتراضية كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون

---

(١) هي ثلاث وتسعون آية في مختلف المصاحف ونزلت بعد الشعراء .

بالآخرة ، فإن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والوثوق على المحاسبة وتكرير الضمير للاختصاص .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ زين لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس ، أو الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عنها لا يدركون ما يتبعها من ضر أو نفع .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر . ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ أشد الناس خسرانًا لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة .

الآيات من ٦ : ١٠

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ لتؤتاه . ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي حكيم وأي عليم ، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والإخبار عن المغيبات ، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله :

إشارة إلى قصة موسى

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أي اذكر قصته إذ قال ويجوز أن يتعلق بعليم . ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله ، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه غير امرأته لما كنى عنها بالأهل ، والسين للدلالة على بعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ . ﴿ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ شعلة نار

مقبوسة ، وإضافة الشهاب إليه لأنه قد يكون قبسا وغير قبس ، ونونه الكوفيون ويعقوب ، على أن القبس بدل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس ، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهمابصيغة الترجي في طه (٢) ، والترديد للدلالة على أنه إن لم يظفر بهما لم يعدم ، أحدهما بناء على ظاهر الأمر أو ثقة بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده . ﴿ **لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة .

﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ** ﴾ أي بورك فإن النداء فيه معنى القول ، أو بأن بورك على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة . ﴿ **مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ من في مكان النار وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى :﴿ **نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة** ﴾(٣) ومن حول مكانها والظاهر أنه عام في كل من في تلك الأرض ، وفي ذلك الواد وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتًا وخصوصا تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى . وقيل : المراد موسى والملائكة الحاضرون ، وتصدي الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر بركته في أقطار الشام . ﴿ **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ من تمام ما نودي به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجيب من عظمة ذلك الأمر ، أو تعجب من موسى لما دهاه من عظمته .

﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ** ﴾ الهاء للشأن وأنا الله جملة مفسرة له ، أو للمتكلم وأنا خبره والله بيان له . ﴿ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره ، يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير .

﴿ **وَأَلْقِ عَصَاكَ** ﴾ عطف على بورك أي نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك ، ويدل عليه قوله وأن ألق عصاك بعد قوله أن يا موسى إني أنا الله بتكرير

---

(٢) الآية رقم ١٠ من سورة طه جاءت بلفظ « لعلي آتيكم » .

(٣) القصص : ٣٠ .

أن . ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك باضطراب . ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية خفيفة سريعة ، وقرئ جأن على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين . ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع من عقب المقاتل إذ كر بعد الفرار ، وإنما رعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به ويدل عليه قوله ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقا لقوله : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي حين يوحي إليهم من فرط الاستغراق فإنهم أخوف الناس أي من الله تعالى ، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة فيخافون منه .

الآيات ١١ : ١٥

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) ﴾

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استثناء منقطع استدراك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم ، وفيهم من فرطت منه صغيرة فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فعلها ما يبطلها ويستحقون به من الله مغفرة ورحمة فإنه لا يخاف أيضا ، وقصد تعريض موسى بوكزه القبطي . وقيل : متصل وثم بدل مستأنف معطوف على محذوف أي عن ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة .

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ لأنه كان بمدرعة صوف لا كم لها . وقيل : الجيب القميص لأنه يجاب أي يقطع . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ آفة كبرص . ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ في جملتها أو معها على أن التسع هي ، الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الأخيرين

واحدا ولا يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون . أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به . ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ وعلي الأولين يتعلق بنحو مبعوثًا أو مرسلاً . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ تعليل للإرسال .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا ﴾ بأن جاءهم موسى بها . ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينة اسم فاعل أطلق للمفعول ، وإشعاراً بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر ، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمي لا تهتدى فضلا عن أن تهدي ، أو مبصرة كل من نظر إليها وتأمل فيها . وقرئ مبصرة أي مكانًا يكثركم فيه التبصر . ﴿ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واضح سحْرِيَّتُه .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾ وكذبوا بها . ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال . ﴿ ظُلْمًا ﴾ لأنفسهم . ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ ترفعًا عن الإيمان وانتصابهما . على العلة من جحدوا . ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة .

قصة سليمان مع بلقيس

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ طائفة من العلم وهو علم الحكم والشرائع، أو علماً أي علم . ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ بالواو إشعارًا بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة كأنه قال : ففعلا شكرًا له ما فعلا وقالا الحمد لله . ﴿ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى من لم يؤت علمًا أو مثل علمهما ، وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما ، وتحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير .

الآيات من ١٦ : ٢٠

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ

ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ النبوة أو العلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر . ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه ، والنطق والمنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركبًا ، وقد يطلق لكل ما يصوت به على التشبيه ، أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد ، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات مُنَزَّلَة منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه ، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية التخيل الذي صوته والغرض الذي توخاه به . ومن ذلك ما حكى أنه مر ببلبل يُصَوِّتُ ويترقص فقال : يقول إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ، وصاحت فاختة فقال : إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا ، فلعله كان صوت البلبل عن شبع وفراغ بال وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب (٤) ، والضمير في علمنا

---

(٤) ذكر الزمخشري في الكشاف عدة أصوات للطيور فهمها سليمان عليه السلام وفسرها ، قال : وصاح طاووس فقال : يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد ، فقال : يقول : استغفروا الله يا مذنبين ، وصاح طيطوي فقال يقول : كل حي ميت وكل جديد بال ، وصاح خطاف فقال : يقول قدموا خيرا تجدوه ، وصاحت رخَمَة فقال : تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه ، وصاح قُمْرِيٌّ فأخبر أنه يقول : سبحان ربي الأعلي ، وقال : الحدأ يقول كل شيء هالك إلا الله ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه ، والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين ، والنسر يقول : يا بن آدم عش ما شئت آخرك الموت ، والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس ، والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس .

وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة ، والمراد من كل شيء كثرة ما أوتي كقولك : فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء . ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ الذي لا يخفي على أحد . ﴿ وَحُشِرَ ﴾ وجمع . ﴿ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ واد بالشام كثير النمل ، وتعدية الفعل إليه بعلى إما لأن إتيانهم كان من عال أو لأن المراد قطعة من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن يتنزلوا أخريات الوادي . ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا

* الإعجاز العلمي

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

صرحت الآية الكريمة بأن نملة تكلمت لكي تحذر جماعتها من خطر قد يدهمها ، وفي ذلك دليل على أن النمل له لغة يتخاطب ويتحدث بها . . وهذا ما أثبتته الأبحاث الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة ، عن حياة النمل الاجتماعية القائمة على التفاهم فيما بينها .

وأن مجتمع النمل له ــ كما لسائر الكائنات الحية ـ أسلوب تفاهم ولغة خاصة ، ينظم بها عيشه ، ويتفاهم بعضه مع بعض كما في عالم النحل والبعوض ، وسائر الأحياء . . فقد قرر العلم الحديث أن للنمل ولغيره من الحشرات لغة يتجاذب بها أطراف الحديث بكلام خاص ، أو بإشارات مسموعة ، أو غير ذلك مما علمه الله لنبيه سليمان عليه السلام .

ويتفاهم النمل بعضه مع بعض في كل ما يتصل بشئونه المختلفة . . والنمل كما شوهد في مختلف بيئاته يقوم بمشروعات جماعية مثل مد الطرق ، وإقامة الجسور ، وبناء مستعمراته . . ولا يمكن أن يتم التعاون على إنجاز هذه الأعمال إلا بالتفاهم بلغة متداولة بينها .

والنمل هو الوحيد الذي يتلاقي في مجتمعات للتعاون وتبادل المنافع ، كما أنه هو الوحيد من بين سائر الحشرات الذي يهتم بدفن موتاه ، وغير ذلك مما يدل على حياة منتظمة حية نشطة ، لها كيان ودستور يحكمها في كل سلوكها .

وادي النمل ومساكنه

لقد أثبتت الدراسات العلمية أن النمل يقيم واديا له . . أي مستعمرة تتضمن

النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطمهم فتبعها غيرها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتها ،

* الإعجاز العلمي

الأعشاش التي تتكون من مساكنه ، ومساكن النمل في عش النمل . . الطراز الأفقي هو السائد ، وأن به تعاريج كثيرة لا غاية منها . . ودهاليز لا تنتهي ، بحيث إننا لو دخلنا أحدها لما استطعنا أن نخرج منها أحياء .

والنظام المعماري في أعشاش النمل متنوع تنوع أجسامه وعاداته ، حتي ليمكننا أن نقول : إن هناك أنواعًا من الأعشاش تتفق في العدد مع أنواع النمل ، وإن انتمت جميعًا إلى أربعة أو خمسةطرز رئيسية ، والغالبية الساحقة في أعشاش النمل توجد تحت الأرض ، وهي مجوفة في الرمل أو في الأرض الخصبة .

ويحتوي العش عادة على عدد من الطوابق قد يصل إلى عشرين طابقا في جزئه الأعلى . . وعلى عدد مماثل من الطوابق تحت سطح الأرض . . ولكل طابق غرضه الخاص الذي تحدده أساسا درجة الحرارة . . فالجزء الأكثر دفئا في العش يحتفظ به خصيصا لتربية الصغار .

ذكاء النمل

يقرر علماء الحشرات ، بعد المشاهدات العلمية التي قاموا بها ، أن النمل يتميز بذكاءخارق ، والذي يدلل على ذلك قيام النمل بعملية فلق الحبوب قبل تخزينها في مخازن حتى لا تنبت . . والحبوب التي لا يستطيع فلقها فإنه يعمد إلى نشرها في الشمس بصفة دورية ومنظمة حتى لا يصيبها البلل أو الرطوبة فتنبت .

ولكن القول الفصل هو ما أثبته العلم الحديث عندما استطاع تشريح جسم النملة ، ودراسةأجزائها دراسة تفصيلية ، بالاستعانة بأجهزة الفحص الإلكتروني ، واستخدام الأشعة المختلفة . . فوجد أنها تمتاز بوجود مخ عجيب يؤكد ذكاء رهيبًا . .فهو برغم صغره إذ يقل عن المليمتر فلا ير إلا تحت المجهر . . يتكون مخه من فصّين رئيسيين كمخ الإنسان ، ومن مراكز عصبية وخلايا إحساسية كما في الإنسان كذلك . . وقبل أن يصل العلم إلى هذه الحقيقة العلمية عن مخ النمل وذكائه ، تشير الآية الكريمة إلى أن النملة قد توقعت أن يصيب النمل الشر من سليمان وجنوده ففكرت واهتدت .

ومن الموسوعة الطبيعية عن النمل والأرض

النمل والأرض (النمل الأبيض) من الحشرات الاجتماعية أيضًا . وتعيش النمل في

فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق . ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سلَيْمَانُ وَجُنُودُه ﴾ نهى لهم عن الحطم ، والمراد نهيها عن التوقف بحيث يحطمونها كقولهم : لا أَرَيَنَّك ها هنا ، فهو استئناف أو بدل من الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخله في

*** الإعجاز العلمي**

قرى تحت الأرض أو داخل الشجر النخر والنباتات المتحللة وتحوي قرية النمل من بضع عشرات إلى مئات الآلاف وتضم ملكة أو أكثر وعاملات وذكورا وتعمر النملة العاملة بضع سنوات وقد تعيش الملكة خمس عشرة سنة . والنمل متعدد الأنواع وينتشر فى شتى أنحاء المعمورة ويعرف العلماء منه حوالي ستة آلاف نوع بعضها لاحم (يتغذى باللحم) وبعضها يغتذى بالبزور . وبعض النمل تستطيب عسل الأرق فتربى الأرق (وهي حشرات من نوع المن) للحصول عليه كما يربى المزارع أبقاره .

وتطير الذكور والإناث أسرابا للتزاوج ، ثم تموت الذكور وتعود الأنثى أو الملكة إلى الأرض فتقصف أجنحتها وتتخذ لها عُشا أو حجيرة تحت الأرض ، وتبدأ بوضع البيض وتنقطع عن الطعام في هذه الفترة وعندما يفقس البيض تخرج اليرقانات عديمة الأرجل فتعتني بها الملكة وتغذيها بلعابها وتغزل يرقانات النمل شرانق تتحول داخلها إلى خادرات ثم إلى عاملات . وبظهور العاملات يختلف حال العش ، إذ تقوم العاملات بحفر حجرات أكبر وأنفاقا وتتولى جمع الطعام من سطح الأرض والاهتمام براحة الملكة الأم ، وقد تمر أعوام قبل أن يكتمل نمو قرية النمل .

والنمل السلابة هي نوع غريب من النمل يهاجم أعشاش النمل الأخرى فيأسر يرقاناتها ويعود بها إلى قريته. وعندما تنقف النملات الأسيرة تعمل عبيداً في عش أسيادها !

أما الأَرَضُ أو النملُ الأبيض فتشبه النمل العادي قليلا ، لكنها ليست من النمل فعلا . وهي أيضًا تعيش في جماعات كبيرة في المناطق الحارة وتبني أعشاشا غريبة كالقلاع من حُبيبات الرمل التي تلصقها معا . وتتخللُ الأعشاشَ المرتفعة أنفاق وحجيرات يُستخدم بعضها لاستنبات بعض النبت الفطري . والأرضة الأهم في العش هي الملكة ويضم العش بالإضافة إلى العاملات أرضات مقاتلة وظيفتها حماية القرية والقتال عند الضرورة .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نعتبر ونتفكر في مخلوقات الله في كتابه العظيم بأن جعل لهذه المخلوقات التي يظنها البعض منا حقيرة وضئيلة ولا شيء حقير في خلق الله سبحانه ، جعل لها سورا كاملة بأسمائها مثل سورة النمل ، والنحل ، والعنكبوت .

السعة . ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنهم يحطمونكم إذ لو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء . وقيل استئناف أي فهم سليمان والقوم لا يشعرون .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ تعجبًا من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها ، وسرورًا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضها ولذلك سأل توفيق شكره . ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه ، وقرأ البزي وورش بفتح ياء أوزعني . ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ أدرج فيه ذكر والديه تكثيرًا للنعمة أو تعميمًا لها ، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيما الدينية . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ إتمامًا للشكر واستدامة للنعمة . ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ في عدادهم الجنة .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ وتعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد . ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره فقال : ما لي لا أراه ، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له .

الآيات من ٢١ : ٢٥

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس ، أو حيث النمل

يأكله أو جعله مع ضده في قفص . ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ بحجة تبين عذره ، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضي ذلك وقوع أحد الأمور الثلاثة ثلث المحلوف عليه بعطفه عليهما ، وقرأ ابن كثير أو ليأتينني بنونين الأولى مفتوحة مشددة .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زمانًا غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفًا منه ، وقرأ عاصم بفتح الكاف . ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ يعنى حالاً ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علمًا بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه ، وقرئ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غير مصروف على تأويل القبلة والبلدة (٥) ، والقواس بهمزة ساكنة . ﴿ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بخبر متحقق .

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافي الحرم وأقام بها ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحًا فوافى صنعاء ظهيرة ، فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء ـ وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء ـ فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له ، ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى ، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، والضمير لسبأ أو لأهلها . ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الملوك . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ عظَّمَهُ بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها . وقيل : كان ثلاثين ذراعًا في ثلاثين عرضًا وسمكًا ، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

---

(٥) سبأ قرئ بالصرف ومنع الصرف ، وقرئ بالألف بدون همزة كما يقولون : تفرقوا أيدي سبا، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسما للأب الأكبر أو للحي صرفه .

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ عبادة الشمس وغيرها من مقابح أعمالهم . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ عن سبيل الحق والصواب . ﴿ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ إليه .

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ فصدهم لئلا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من أعمالهم ، أو لا يهتدون إلى أن يسجدوا بزيادة لا . وقرأ الكسائي ويعقوب إلا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف أي : ألا يا قوم اسجدوا كقوله :

وَقَالَتْ أَلا يَا اسْمَعْ أَعِظْكَ بِخطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِيعًا فَانْطِقِي وَأَصِيبِي(٦)

وعلى هذا صح أن يكون استئنافًا من الله أو من سليمان والوقف على لا يهتدون، فيكون أمرًا بالسجود وعلى الأول ذمًا على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوب السجود في الجملة لا عند قراءتها ، وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزة هاء وألا تسجدون وهلا تسجدون علي الخطاب . ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وصف له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم حثًا على سجوده وردًا على من يسجد لغيره ، والخبء ما خفي في غيره وإخراجه إظهاره ، وهو يعم إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع ، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته . وقرأ حفص والكسائي ما تخفون وما تعلنون بالتاء .

الآيات من ٢٦ : ٣٤

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ

(٦) المنادي في البيت محذوف تقديره يا رجلُ أو اسم المخاطب ، اسمعْ ومثله قول الشاعر ذي الرمة : ألا يا سلمى يا دار ميٍّ على البلى والمنادى : يا دارميٍّ اسلمي .

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها فبين العظيمين بَوْن(٧) .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ سنعرف من النظر بمعنى التأمل . ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي أم كذبت والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه . ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي بعد ما ألقى إليها . ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله ، أو لأنه كان مختومًا أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ استئناف كأنه قيل لها ممن هو وما هو فقالت إنه ، أي إن الكتاب أو العنوان من سليمان . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي وإن المكتوب أو المضمون . وقرئ بالفتح على الإبدال من كتاب أو التعليل لكرمه . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أن مفسرة أو مصدرية ، فتكون بصلتها خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلوا أو بدل من كتاب . ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ مؤمنين أو منقادين ، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود ، لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحًا أو التزامًا ، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل ، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتي يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة .

---

(٧) بَوْن : فرق .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ أجيبوني في أمري الفتي واذكروا ما تستصوبون فيه . ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ ما أَبُتُّ أمرا . ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ إلا بمحضركم استعطفتهم بذلك ليمالئوها على الإجابة .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ ﴾ بالأجساد والعدد . ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ نجدة وشجاعة . ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ موكول . ﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ من المقاتلة أو الصلح نطعك ونتبع رأيك .

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ عنوة وغلبة . ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ تزييف لما أحست منهم من الميل إلي المقاتلة بإدعائهم القوى الذاتية والعرضية ، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم ، ثم إن الحرب سجال لا تدري عاقبتها . ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر . ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقرير بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة ، أو تصديق لها من الله عز وجل .

الآيات من ٣٥ : ٣٩

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ بيان لما ترى تقديمه في المصالحة ، والمعنى إني مرسلة رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي . ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك . روي أنها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلمانًا على زي الجواري وجواري على زي الغلمان ، وحُقًّا فيه درة عذراء

وجزعة معوجة الثقب وقالت : إن كان نبيا مَيز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك في الخرزة خيطًا ، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم ، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الْحُقَّ وأخبر عما فيه ، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة ، وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كمايأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية .

﴿ **فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ** ﴾ أي الرسول أو ما أهدت إليه وقرئ فلما جاءوا . ﴿ **قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ** ﴾ خطاب للرسول ومن معه ، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب . وقرأ حمزة ويعقوب بالإدغام وقرئ بنون واحدة وبنونين وحذف الياء . ﴿ **فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ** ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء، والباقون بإسكانها، وبإمالتها الكسائى وحده . ﴿ **خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم** ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي . ﴿ **بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يهدى إليكم حبًا لزيادة أموالكم ، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم ، والإضراب عن إنكار الإمداد بالمال عليه وتقليله إلى بيان السبب الذي حملهم عليه ، وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها .

﴿ **ارْجِعْ** ﴾ أيها الرسول . ﴿ **إِلَيْهِمْ** ﴾ إلى بلقيس وقومها . ﴿ **فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا** ﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم . ﴿ **وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا** ﴾ من سبأ . ﴿ **أَذِلَّةً** ﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز . ﴿ **وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ أسراء مهانون .

﴿ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا** ﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على عظم القدرة وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره ؟ . ﴿ **قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ خبيث مارد . ﴿ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ بيان له لأنه يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر أقرانه ، وكان اسمه ذكوان أو صخراً . ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار . ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ ﴾ على حمله . ﴿ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ لا أختزل منه شيئا ولا أبدله .

الآيات من ٤٠ : ٤٣

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ آصف بن برخيا وزيره ، أو الخضر أو جبريل عليهما السلام أو ملك أيده الله به ، أو سليمان عليه السلام نفسه فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ للعفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك ، أو أراد إظهار معجزة في نقله فتحداهم أولا ثم أراهم أنه يتأتى له ما لا يتأتى لعفاريت الجن فضلا عن غيرهم ، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة أو اللوح، وأتيك في الموضعين صالح للفعلية والاسمية ، والطرف تحريك الأجفان للنظر فوضع موضعه ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف كما في قوله :

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ (٨)

---

(٨) هذا البيت لأعرابية نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها كأنه يراودها عن نفسها فأجابته قائلة

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

من كتاب : مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المرزوقي

وصف برد الطرف والطرف بالارتداد ، والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها بين يديك ، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه . ﴿ فَلَمَّا رَآهُ ﴾ أي العرش ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ حاصلاً بين يديه . ﴿ قَالَ ﴾ تلقيًا للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ تفضل به عليَّ من غير استحقاق ، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ، والكلام في إمكان مثله قد مر في آية الإسراء . ﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه . ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أجد نفسي في البين ، أو أقصر في أداء مواجبه ومحلها النصب على البدل من الياء . ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها ويحط عنها عبء الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره . ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بالإنعام عليه ثانيًا.

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ بتغيير هيئته وشكله . ﴿ نَنظُرْ ﴾ جواب الأمر ، وقرئ بالرفع على الاستئناف . ﴿ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِيــنَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفته أو الجواب الصواب ، وقيل إلى الإيمان بالله ورسوله إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليها الحراس .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ تشبيها عليها زيادة في امتحان عقلها إذا ذكرت عنده بسخافة العقل . ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ولم تقل هو هو الاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها . ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوتك قبل هذه الحالة ، أو المعجزة مما تقدم من الآيات . وقيل : إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله ورسوله حيث جوزت أن يكون ذلك عرشها تجويزًا غالبًا ، وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أي وأوتينا العلم بالله وقدرته وصحة ما جاء به عنده قبلها وكنا منقادين لحكمه ولم نزل على دينه ، ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكر الله تعالى .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام ، أو وصدها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان . ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ وقرئ بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول ، أي صدها نشؤها بين أظهر الكفار أو التعليل له .

الآيات من ٤٤ : ٤٩

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ القصر وقيل عرصَة الدار . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ روي أنه أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه ، فلما أبصرته ظنته ماء راكدًا فكشفت عن ساقيها . وقرأ ابن كثير برواية قنبل سأقيها بالهمز حملاً على جمعه سؤوق وأسؤق . ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ إن ما تظنينه ماء . ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ مملس . ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ من الزجاج .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادتي الشمس ، وقيل بظني بسليمان فإنها حسبت أنه يغرقها في اللجة . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيما أمر به عباده ، وقد اختلف في أنه تزوجها ، أو زوَّجها من ذي تبع ملك همدان .

قصة صالح مع قومه ثمود

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ بأن اعبدوا الله وقرئ

بضم النون على اتباعها الباء . ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ففاجئوا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق ، والواو لمجموع الفريقين .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا . ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إن صدق إيعاده تبنا حينئذ . ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ قبل نزوله . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ .

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا ﴾ تشاءمنا . ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائد ، أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ سببكم الذي جاء منه شركم . ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ تسعة أنفس ، وإنما وقع تمييزًا للتسعة باعتبار المعنى ، والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة ، والنفر من الثلاثة إلى التسعة . ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح .

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض . ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أمر مقول أو خبر وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد . ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ لنباغتن صالحًا وأهله ليلاً . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض ، وقرئ بالياء على أن تقاسموا خبر ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ فيه القراءات الثلاث . ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ لولي دمه . ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ فضلا أن تولينا إهلاكهم ، وهو يحتمل المصدروالزمان والمكان وكذا مهلك في قراءة حفص فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع . وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ونحلف إنا لصادقون ، أو والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفًا ، أولأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين .

الآيات من ٥٠ : ٥٧

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) ﴾

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ بهذه المواضعة . ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم . ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك ، روي أنه كان لصالح في الحِجْر مسجد في شِعْبٍ يصلي فيه فقالوا : زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله :

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وكان إن جعلت ناقصة فخبرها كيف وأنَّا دَمَّرْنَاهُمْ استئناف أو خبر محذوف لا خبر كان لعدم العائد ، وإن جعلتها تامة فكيف حال . وقرأ الكوفيون ويعقوب أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبر محذوف أو بدل من اسم كان أو خبر له وكيف حال .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ خالية من خوى البطن إذا خلا ، أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط ، وهي حال عمل فيها معنى الإشارة . وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ بسبب ظلمهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيتعظون .

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صالحًا ومن معه . ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي فلذلك خصوا بالنجاة .

قصة لوط مع قومه

﴿ وَلُوطًا ﴾ واذكر لوطًا ، أو وأرسلنا لوطًا لدلالة ولقد أرسلنا عليه . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل على الأول وظرف على الثاني . ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تعلمون فحشها من بصر القلب واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه ، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لاقضاء الوطر . ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ اللاتي خلقن لذلك . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها ، أو يكون سفيها لا يميز بين الحسن والقبيح ، أو تجهلون العاقبة والتاء فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا ، أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذرًا .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ قدرنا كونها من الباقين في العذاب .

الآيات من ٥٨ : ٦٢

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ مر مثله .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ أمر رسوله ﷺ بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظم شأنه وما خص به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا ـ بتحميده والسلام على المصطفين من عباده شكرًا على ما أنعم عليهم ، أو علمه ما جهل من أحوالهم وعرفانًا لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين ، أو لوطًا بأن يحمده على هلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك . ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم ، إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأسًا حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء .

من مظاهر قدرة الله ونعمه على عباده

﴿ أَمَّنْ ﴾ بل أمن . ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع . وقرأ أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ لأجلكم . ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته ، والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما أشار إليه بقوله : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ شجر الحدائق وهي البساتين من أحداق وهو الإحاطة . ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أغيره يقرن به ويجعل له شريكًا ، وهو المنفرد بالخلق والتكوين . وقرئ أإلهًا بإضمار فعل مثل أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا ﴾ بدل من أمن خلق السموات وجعلها قرارًا بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتي استقرار الإنسان والدواب عليها . ﴿ وَجَعَلَ خِلالَهَا ﴾ وسطها . ﴿ أَنْهَارًا ﴾ جارية . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ العذب والمالح ، أو خليجي فارس والروم . ﴿ حَاجِزًا ﴾ برزخًا وقد مر بيانه في سورة الفرقان . ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيشركون به .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار ، وهو افتعال من الضرورة واللام فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر . ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوءه . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم . ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكرون آلاءه تذكرًا قليلاً ، وما مزيدة والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة . وقرأ أبو عمرو وهشام وروح بالياء وحمزة والكسائى وحفص بالتاء وتخفيف الذال .

الآيات من ٦٣ : ٦٨

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض ، والظلمات ظلمات الليالي وإضافتها إلى البر والبحر للملابسة ، أو مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتى لا منار بها . ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني المطر ، ولو صح أن السبب الأكثر في تكوين الرياح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خلق الله تعالى ، والفاعل للسبب فعل السبب . ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ يقدر على مثل ذلك . ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق .

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون

بالحجج الدالة عليها . ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك . ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على أن غيره يقدر على شيء من ذلك . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ لما بين اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعه ما هو كاللازم له ، وهو التفرد بعلم الغيب والاستثناء منقطع ، ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها من يعلم الغيب مبالغة في نفيه عنهم ، أو متصل على أن المراد ممن في السموات والأرض من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها ، فإنه يعم الله تعالى وأولى العلم من خلقه وهو موصول أو موصوف . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى ينشرون مركبة من أي وآن ، وقرئت بكسر الهمزة والضمير لمن وقيل للكفرة .

لا يعلم الغيب إلا الله

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلهم لا محالة بالغة فيه ، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً . ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم ، وهذا وإن اختص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل ، والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم ، وقيل : الأول إضراب عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم ، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدم . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بل إدراك بمعنى تتابع حتى استحكم ، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك ، وأبو بكر أدرك وأصلهماتفاعل وافتعل . وقرئ أأدرك بهمزتين وآأدرك بألف بينهما وبل أدرك وبل تدارك وبلى أأدرك وبلى أأدرك وأم إدراك أو تدارك ، وما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فإنكار وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك

على التهكم ، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل إنهم منهاعمون أورد وإنكار لشعورهم .

إنكار الكفار للبعث

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ كالبيان لعمههم والعامل في إذا ما دل عليه أئنا لمخرجون ، وهو نخرج لا مخرجون لأن كلاً من الهمزة وإن واللام مانعة من عمله فيما قبلها ، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار ، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة ، وقرأ نافع إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة ، وقرأ ابن عامروالكسائى إننا لمخرجون بنونين على الخبر.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل وعد محمد ﷺ ، وتقديم هذا على نحن لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أخر فالمقصود به المبعوث .

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار .

الآيات من ٦٩ : ٧٧

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم ، والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفًا بالمؤمنين في ترك الجرائم .

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم . ﴿ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج صدر ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان ، وقرئ ضيق أي أمر ضيق .

﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ العذاب الموعود . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ تبعكم ولحقكم ، واللام مزيدة للتأكيد أو الفعل مضمن معنى فعل بتعدي باللام مثل دنا . وقرئ بالفتح وهو لغة فيه . ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر ، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جري وعد الله تعالى ووعيده .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي ، والفضل والفاضلة الأفضال وجميعها فضول وفواضل . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت أي سترت . ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ خافية فيهما ، وهما من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما في الراوية ، أو اسمان لما يغيب ويخفي كالتاء في عافية وعاقبة . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ بين أو مبين ما فيه لما يطالعه ، والمراد اللوح أو القضاء على الاستعارة .

القرآن وما اشتمل عليه من الهدى والبيان

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة و النار وعزير والمسيح .

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم المنتفعون به .

الآيات من ٧٨ : ٨٤

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ

أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ بين بني إسرائيل . ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ بما يحكم به وهو الحق ، أو بحكمته ويدل عليه أنه قرئ بحكمه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد قضاؤه . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه ، وحكمه .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ولا تبال بمعاداتهم . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره .

﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعه عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسًا ، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم في قوله : ﴿ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد . وقرأ ابن كثير ولا يسمع الصم .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر. وقرأ حمزة وحده وما أنت تهدي العمي . ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما يجدي إسماعك. ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ من هو في علم الله كذلك . ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله .

من علامات الساعة خروج الدابة

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا دنا وقوع معناه وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب . ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ ﴾ وهي الجساسة روي أن طولها ستون ذراعًا ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان ، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب. وروي أنه ﷺ سئل من أين مخرجها فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله ، يعني المسجد الحرام . ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ من الكلام ، وقيل : من الكلم إذ قرئ تكلمهم . وروي أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام ، فتنكت بالعصا في مسجد المؤمن نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسود وجهه . ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا ﴾ خروجها

وسائر أحوالها فإنها من آيات الله تعالى . وقيل القرآن ، وقرأالكوفيون أن الناس بالفتح . ﴿ لا يُوقِنُونَ ﴾ لا يتيقنون ، وهو حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها ، أو تكلمها على حذف الجار (٩) .

حشر الناس

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ من كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ يعني يوم القيامة . ﴿ مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ بيان للفوج أي فوجًا مكذبين ، ومن الأولى للتبعيض لأن أمة كل نبي وأهل كل قرن شامل للمصدقين والمكذبين . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم (١٠) .

---

(٩) ومن الآثار الواردة في خروج الدابة وعلامات الساعة ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : « لا تقوم الساعة حتي تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من مقر عدن تسوق ـ أو تحشر ـ الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذاه رواه مسلم وأهل السنن.

وذكر ابن كثير في تفسيره عن أمر الدابة قال : قال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فيما وصف . . ثم تقول الدابة لهم : يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

وذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف بعض أوصاف الدابة فقال : هي الجساسة ، جاء في الحديث أن طولها ستون ذراعًا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ـ أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة ـ دون قوله هي الجساسة .

قال : وروي : لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان . وعن ابن جريج في وصفها :لها رأس ثور ، وعين خنزير وأذن فيل وقرن إيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هر وذنب كبش وخف بعير ، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام .

وروى أنها لا تخرج إلا رأسها ، ورأسها يبلغ أعنان السماء أو يبلغ السحاب .

راجع تفسير الكشاف .

(١٠) كأنَّ المكذبين يحشرون بين يدي أقوامهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى المحشر . ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتم بها بادئ الرأي غير ناظرين فيها نظرًا يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب ، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها . ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك .

الآيات من ٨٥ : ٨٩

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ حل بهم العذاب الموعود وهو كبهم في النار بعد ذلك . ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله . ﴿فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب .

في مظاهر الحياة ما يشير إلى البعث لمن أراد التدبر

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشدهم إلى تجويز الحشر وبعثة الرسل ، لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر ، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت

أبوجهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى الناس ـ الزمخشري في الكشاف ـ

ولا يخفى جانب العبرة في ذلك فقد قال الله تعالى في حق فرعون ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ هود : ٩٨ .

بالحياة في مواد الأبدان ، وأن من جعل النهار ليبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم . ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بالنوم والقرار . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ فإن أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعول عليها بحيث لا ينفك عنها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لدلالتها على الأمور الثلاثة .

فزع يوم القيامة

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ في الصور أو القرن ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق . ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ من الهول وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه . ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن لا يفزع بأن يثبت قلبه . قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . وقيل الحور والخزانة وحملة العرش ، وقيل : الشهداء ، وقيل موسى عليه الصلاةو السلام لأنه صعق مرة ولعل المراد ما يعم ذلك . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره وقرأ حمزة وحفص أتوه على الفعل ، وقرئ أتاه على التوحيد للفظ الكل . ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين وقرئ دخرين .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ثابتة في مكانها . ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

---

* **الإعجاز العلمي**

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

وإذا كانت الجبال وهي أوتاد الأرض تتحرك وتمرُّ مرَّ السحاب، فالأرض المشدودة المثبتة بهذه الأوتاد لابد وأن تدور بدورتها . . وفي التعبير : ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ إشارة إلى أن مرورالجبال وحركتها ليست مروراً ذاتياً ، وإنما يتم تبعاً لدورة الأرض، ذلك لأن السحاب لا يمشي بقوة ذاتية ، وإنما يمشي بقوة الرياح . ولهذا كان التشبيه القرآني قويًا ودقيقًا في إثبات دوران الأرض .

وإذا قيل : إن مرور الجبال سيكون في يوم القيامة . . فالرد على القائلين بذلك سهل وهو أن الأرض في هذا اليوم ستتغير حيث يقول سبحانه : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾.

وأن الجبال في هذا اليوم ستتحلل وتتفتت ، وتفقد وظيفتها وصلابتها حيث يقول

السَّحَابِ ﴾[11] في السرعة ، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها . ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ** ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمة كقوله ﴿ وعد الله ﴾ [12] . ﴿ **الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي . ﴿ **إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازيكم عليها كما قال :

من الذي يأمن من الفزع؟

﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا** ﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس والباقي بالفاني وسبعمائة بواحدة ، وقيل خير منها أي خير حاصل من جهتها وهو الجنة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام خبير بما يفعلون بالياء والباقون بالتاء . ﴿ **وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** ﴾ يعني به خوف عذاب يوم القيامة ، وبالأول ما يلحق الإنسان من التهيب لما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعم الكافر والمؤمن ، وقرأ الكوفيون

---

(١١) يقول العلماء تعليقا على هذه الآية : هذه السلاسل الجبلية العاتية الهائلة الارتفاع الشامخة والمترامية الأبعاد على سطح الأرض ، والتي تبدو للناظر إليها أنها جامدة راسخة هى متحركة مع حركة دوران الأرض المحورية ، وأنها ستمر مر السحاب يوم قيام الساعة وتنسف نسفا ، وإذا هي قاع بعد ارتفاع ، وحوض صفصف خال من كل نتوء أو اعوجاج . . .

وكما لا يتحرك السحاب بذاته ولكن محمولا علي الرياح والهواء الساخن الصاعد إلى أعلى والهواء البارد الهابط إلى أسفل كذلك الجبال يظنها الناس جامدة في مكانها ولكنها تمر مسرعة محمولة على الأرض في حركتها المحورية والانتقالية . .

من كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم جـ ٢ ، د. حسن أبو العنين ص ١٥٥ .

(١٢) الروم : ٦ .

* الإعجاز العلمي

سبحانه : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ .

وعليه فإن الأرض ستكون غير الأرض ، و الجبال غير الجبال ، وأن مرورها الموصوف بأنه كمرّ السحاب ، إنما يكون في الدنيا غير أننا لا ندركه ولا نحس به .

وهكذا أثبت القرآن نظريته في دوران الأرض قبل أن يثبتها العلم الحديث .

بالتنوين لأن المراد فزع واحد من أفزاع ذلك اليوم ، وآمن يتعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ (١٣) . وقرأ الكوفيون ونافع يومئذ بفتح الميم والباقون بكسرها .

الآيات من ٩٠ : ٩٣

﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ قيل بالشرك . ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ فكبوا فيها على وجوههم ، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾(١٤) . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على الالتفات أو بإضمار القول أي قيل لهم ذلك .

بماذا أُمرَ النبي ﷺ ؟

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم ذلك بعدما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة ، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه ، وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها وقرئ التي حرمها . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقا وملكًا . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئًا فشيئًا ، أو اتباعه وقرئ واتل عليهم وأن أتل . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ باتباعه إياي

---

(١٣) الأعراف : ٩٩ .

(١٤) البقرة : ١٩٥ .

في ذلك . ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فإن منافعه عائدة إليه . ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بمخالفتي . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ فلا علي من وبال ضلاله شيء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به . ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الأرض ، أو في الآخرة . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالياء .

فضل سورة النمل

عن النبي ﷺ « **من قرأ سورة طس كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهودًا وصالحًا وإبراهيم وشعيبًا ، ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله** »(١٥) .

(١٥) ذكره الزمخشري في تفسيره ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ، أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث مسند إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢٨) سورة القصص مكية (١)

وقيل إلا قوله تعالي ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلي قوله ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٥

﴿ طسٓمٓ ⑴ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ⑵ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ⑶ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ⑷ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑸ ﴾

قصة موسي عليه السلام

﴿ طسٓمٓ ﴾

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

طغيان فرعون

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل ، ويجوز أن يكون بمعني ننزله مجازا . ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ بعض نبئهما مفعول نتلو .﴿ بِالْحَقِّ ﴾ محقين. ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ استئناف مبين لذلك البعض، والأرض أرض مصر. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فرقا يشيعونه فيما يريد ،أو يشيع بعضهم بعضا في طاعته أو أصنافا في استخدامه استعمل كل صنف في عمل ، أو أحزابا بأن أغري بينهم العداوة كي لا يتفقوا عليه. ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، والجملة حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف ، وقوله : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

(١) نزلت هذه السورة بعد سورة النمل .

﴿ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ بدل منها ، كان ذلك لأن كاهنا قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك علي يده ، وذلك كان من غاية حمقه فإنه لو صدق لم يندفع بالقتل وإن كذب فما وجهه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فلذلك اجترأ علي قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أن نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه ،ونريد حكاية حال ماضية معطوفة على أن فرعون علا في الأرض من حيث إنهما واقعان تفسيرا للنبأ ، أو حال من يستضعف ولا يلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له ،لجواز أن يكون تعلق الإرادة به حينئذ تعلقا استقباليا مع أن منة الله بخلاصهم لما كانت قريبة الوقوع منه جاز أن تجري مجري المقارن .﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقدمين في أمر الدين .﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه .

الآيات من ٦ : ٩

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أرض مصر والشام ، وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه ثم استعير للتسليط . وإطلاق الأمن . ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم ﴾ من بني إسرائيل . ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم علي يد مولود منهم. وقرأ حمزة والكسائي ويري بالياء وفرعون وهامان وجنودهما بالرفع .

ولادة موسي ووضعه في التابوت

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ بإلهام أو رؤيا . ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤه . ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن يحس به ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ في البحر يريد النيل . ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ عليه ضيعة ولاشدة . ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ لفراقه . ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب بحيث تأمنين عليه . ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) روي أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالي بني إسرائيل فعالجتها ، فلما وقع موسي علي الأرض هالها نور بين عينيه وارتعشت مفاصلها ودخل حبه في قلبها بحيث منعها من السعاية ، فأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألح فرعون في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتا فقذفته في النيل .

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ تعليل لا لتقاطهم إياه بما هو عاقبته ومؤداه تشبيها له بالغرض الحامل عليه . وقرأ حمزة والكسائي وحزنا . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ في كل شئ فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفا لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون ، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالي بأن ربي عدوهم علي أيديهم ، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به ، وقرئ خاطين تخفيف خاطئين أو خاطين الصواب إلي الخطأ .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي لفرعون حين أخرجته من التابوت . ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ هو قرة عين لنا لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه ، أو لأنه كانت له ابنة برصاء وعالجها الأطباء بريق حيوان بحري يشبه الإنسان فلطخت برصها بريقه فبرئت ، وفي الحديث إنه قال : لك لا لي . ولو قال هو لي كما هو

---

(٢) روي عن الأصمعي أنه قال سمعت بالبادية فتاة أعجبتني فصاحتها فقلت لها : ما أفصحك ! فقالت : أين فصاحتي من قوله تعالى :﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ لقد جمعت هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . . حقا ، لقد تنبهت هذه البدوية إلى سر من أسرار بلاغة القرآن ، عرفت ذلك بفطرتها الصافية وذوقها السليم .

لك لهداه الله كما هداها . (٣) ﴿ لا تَقْتُلُوهُ ﴾خطاب بلفظ الجمع للتعظيم . ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ، وذلك لما رأت من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبنا وبرء البرصء بريقه . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أو نتبناه فإنه أهل له . ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من الملتقطين أو من القائلة والمقول له أي وهم لا يشعرون أنهم علي الخطأ في التقاطه أو في طمع النفع منه والتبني له ، أو من أحد ضميري نتخذه علي أن الضمير للناس أي وهم لا يشعرون أنه لغيرنا وقد تبنيناه .

الآيات من ١٠ : ١٤

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالي ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ (٤) أي خلاء لا عقول فيها ، ويؤيده أنه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر ، أو من الهم لفرط وثوقها بوعد الله تعالي أو سماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه . ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أنها كادت لتظهر بموسي أي بأمره وقصته من فرط الضجر أو

---

(٣) هذا طرف من حديث الفتون الطويل المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما . فقد سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضي الله عنهما عن الفتون فقال : خلصناك من محنة بعد محنة : ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا بن جبير ، وألقته أمه في البحر ، وهم فرعون بقتله ، وقتل قبطيا ، وأجر نفسه عشر سنين ، وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة ، وكان يقول عند كل واحدة : فهذه فتنة يا بن جبير ـ من تفسير الكشاف .

(٤) إبراهيم : ٤٣ .

الفرح لتبنيه . ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ بالصبر والثبات . ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدقين بوعد الله ، أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وعطفه . وقرئ موسي إجراء للضمة في جوار الواو مجري ضمتها في استدعاء همزها همز واو وجوه وهو علة الربط ، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله .

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ مريم ﴿قُصِّيهِ ﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره .﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بعد وقرئ عن جانب وهو جنب وهو بمعناه . ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقص أو أنها أخته .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ ومنعناه أن يرتضع من المرضعات ، جمع مرضع أو مرضع وهو الرضاع ، أو موضعه يعني الثدي (٥) ﴿مِن قَبْلُ ﴾ من قبل قصها أثره ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾لأجلكم .﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته ، روي أن هامان لما سمعه قال إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتي نخبر بحاله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله فأتت بأمها وموسي علي يد فرعون يبكي وهو يعلله ، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها : من أنت منه فقد أبي كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت :إني أمرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها وأجري عليها ، فرجعت به إلي بيتها من يومها ، وهو قوله تعالي :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها . ﴿وَلا تَحْزَنَ ﴾ بفراقه . ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ علم مشاهدة . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أن وعده حق فيرتابون فيه ،أو أن الغرض الأصلي من الرد علمها بذلك وما سواه تبع ، وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون .

نبوة موسي

﴿لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلي أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ . وروي أنه لم يبعث نبي إلا علي رأس الأربعين سنة.

---

(٥) مرضع بكسر الضاد ـ على أنه اسم فاعل من أرضع ، أو بفتح الضاد على اسم مكان .

﴿ وَاسْتَوَىٰ ﴾ قدُّه أو عقله ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ أي نبوة . ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بالدين ، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه ، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه، وهو أوفق لنظم القصة لأن الاستنباء بعد الهجرة في المراجعة . ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثل ذلك الذي فعلنا بموسي وأمه . ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ علي إحسانهم .

الآيات من ١٥ : ٢٠

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾

قصة القبطي الذي قتله موسي

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ﴾ ودخل مصر آتيا من قصر فرعون وقيل منف أو حائين ، أو عين شمس من نواحيها . ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه ، قيل : كان وقت القيلولة وقيل : بين العشاءين . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط ، والإشارة على الحكاية . ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي ﴾ هو ﴿ مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فسأله أن يغيثه بالإعانة ولذلك عدى بعلي وقرئ استعانه . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ فضرب القبطي بجمع كفه ، وقرئ فلكزه أي فضرب به صدره . ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فقتله وأصله

فأنهى حياته من قوله ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ (٦) ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مأمونًا فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ ، وإنما عده من عمل الشيطان ، وسماه ظلماً واستغفر منه على عادتهم في استعظام محقرات فرطت منهم . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بقتله . ﴿ فَاغْفِرْ لِي ﴾ ذنبي . ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ لاستغفاره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بهم .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ قسم محذوف الجواب أي أقسم بإنعامك على بالمغفرة وغيرها لأتوبن . ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أو استعطاف أي بحق إنعامك علي اعصمني فلن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلي جرم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إنه لم يستثن فابتلى به مرة أخرى ، وقيل : معناه بما أنعمت على من القوة أعين أولياءك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ يترقب الاستفادة . ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيثه مشتق من الصراخ . ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء لبني إسرائيل . ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ قاله الإسرائيلي لأنه لما سماه غوياً ظن أنه يبطش عليه ، أو القبطي وكأنه توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي. ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ ما تريد . ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر في العواقب . ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن ، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وهموا بقتله فخرج مؤمن آل فرعون وهو ابن عمه ليخبره كما قال تعالى :

---

(٦) الحجر : ٦٦ .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ يسرع صفة رجل ، أو حال منه إذ جعل من أقصى المدينة صفة له لا صلة لجاء لأن تخصيصه بها يلحقه بالمعارف . ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ يتشاورون بسببك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر . ﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ اللام للبيان وليس صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول .

الآيات من ٢١ : ٢٦

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾

فراره إلى مدين

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ من المدينة . ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق طالب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ قبالة مدين قرية شعيب ، سميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولم تكن في سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان . ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ توكلاً على الله وحسن ظن به ، وكان لا يعرف الطريق فَعَنَّ(٧) له ثلاث طرق فأخذ في أوسطها ،

(٧) عَنَّ : ظهر .

وجاء الطلاب عقيبه فأخذوا في الآخرين .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها . ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ وجد فوق شفيرها . ﴿ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ جماعة كثيرة مختلفين . ﴿ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم . ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ في مكان أسفل من مكانهم . ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما تذودان . ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال ، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه . وقرأ أبو عمرو وابن عامر يصدر أي ينصرف . وقرئ الرعاء بالضم وهو اسم جمع كالرخال . ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ كبير السن لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ مواشيهما رحمة عليهما . قيل كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال أو أكثر فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم ، وقيل كانت بئراً أخرى عليها صخرة فرفعها واستقى منها . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ ﴾ لأى شيء أنزلت إلي . ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير وحمله الأكثرون على الطعام . ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج سائل ولذلك عدي باللام ، وقيل معناه إنى لما أنزلت إلى من خير الدين صرت فقيراً في الدنيا ، لأنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه إظهار التبجح والشكر على ذلك .

لقاؤه بشعيب

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أي مستحيية متخفرة . قيل : كانت الصغرى منهما وقيل الكبرى واسمها صفوراء أو صفراء وهي التي تزوجها موسى عليه السلام . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾ ليكافئك . ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ جزاء سقيك لنا ، ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر ، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً فامتنع عنه وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا حتى قال له شعيب عليه

الصلاة والسلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . هذا وأن كل من فعل معروفًا فأهدى بشيء لم يحرم أخذه . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يريد فرعون وقومه .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ يعني التي استدعته . ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ لرعي الغنم. ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ تعليل شائع يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه ، جعل خير اسمًا وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤ مجرب معروف . روي أن شعيبًا قال لها وما أعلمك بقوته ؟ فذكرت إقلال (٨) الحجر وأنه صَوب (٩) رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه .

الآيات من ٢٧ : ٣٠

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) ﴾

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ﴾ أي تأجر نفسك مني أو تكون لي أجيرًا ، أو تثيبني من أجرك الله . ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ظرف

---

(٨) إقلال الحجر : حمله ورفعه من فوق البئر ، وكان هذا الحجر ثقيلا لا يحمله إلا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون ، فرفعه وحده ، وقيل : إنه سألهم دلوا من ماء فاعطوه دلوهم وقالوا : استق بها وكان لا ينزعها إلا أربعون ، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة ... تفسير الكشاف .

(٩) صوب : خفض .

على الأولين ومفعول به على الثالث بإضمار مضاف أي رعية ثماني حجج . ﴿ **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا** ﴾ عملت عشر حجج (١٠) ﴿ **فَمِنْ عِندِكَ** ﴾ فإتمامه من عندك تفضلاً لا من عندي إلزامًا عليك . وهذا استدعاء العقد لا نفسه ، فلعله جرى على أجرة معينة وبمهر آخر أو برعية الأجل الأول ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسر له قبل العقد ، وكانت الأغنام للمزوجة مع أنه يمكن اختلاف الشرائع في ذلك . ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ** ﴾ بإلزام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته . ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة .

﴿ **قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ** ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه . ﴿ **أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ** ﴾ أطولهما أو أقصرهما . ﴿ **قَضَيْتُ** ﴾ وفيتك إياه . ﴿ **فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ** ﴾ لا تعتدي علي بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان ، أو فلا أكون متعديًا بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم علي ، وهو أبلغ من إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيت الأقصر فلا عدوان علي . وقرئ أيما كقوله :

تَنَظَّرْت نَصْرًا وَالسماكين أَيْمَا ... عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُه(١١)

وأي الأجلين ما قضيت فتكون ما مزيدة لتأكيد الفعل أي : أي الأجلين جردت عزمي لقضائه ، وعدوان بالكسر . ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ** ﴾ من المشارطة . ﴿ **وَكِيلٌ** ﴾ شاهد حفيظ .

---

(١٠) حجج : سنين مفردها حِجَّة بكسرالحاء .

(١١) البيت للفرزدق الشاعر الأموي

ونصر هو نصر بن سيار أمير العراقين في عهده ، والسما كان : كوكيان وقد روي « أيما » في الكشاف : أَيْهمَا بسكون الياء تخفيفًا وأصلها أيُّهما بالتشديد .

واستهلت : انصبت ، والمواطر : الأمطار .

والشاعر يمدح نصر بن سيار ويشبهه بالسحاب الممطر في الكرم .

عودته إلى مصر

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ بامرأته . روي أنه قضى أقصى الأجلبن ومكث بعد ذلك عنده عشراً أخرى ثم عزم علي الرجوع . ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أبصر من الجهة التي تلي الطور . ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ بخبر الطريق . ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ عود غليظ سواء كان في رأسه ناراً أو لم يكن . قال :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ... جَزْلَ الْجُذَى غَيْرَ خَوَّارٍ وَلاَ دَعِرِ (١٢)

وقال آخر :

وَأَلْقَي عَلَى قَبس مِنْ النَّارِ جَذْوَةَ ... شَدِيداً عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالتِهَابُهَا (١٣)

ولذلك بينه بقوله : ﴿ مِّنَ النَّارِ ﴾ وقرأ عاصم بالفتح وحمزة بالضم وكلها لغات . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون بها .

تلقي النبوة والرسالة

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ ﴾ أتاه النداء من الشاطئ الأيمن لموسى . ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ متصل بالشاطىء أو صلة لنودي . ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال لأنها كانت ثابتة على الشاطىء . ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ ﴾ أي يا موسى . ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا وإن خالفهما في طه والنمل (١٤) لفظًا فهو طِبْقُهُ في المقصود .

---

(١٢) البيت لابن مقبل الشاعر .
والحواطب جمع حاطبة وهي الجارية التي تجمع الحطب وتقدمه للنار .
والجذل : الحطب الغليظ اليابس الذي يصمد في النار ولا ينطفئ سريعا .
الْجُذَى : جمع جذوة ـ بتثليث الجيم ـ وهي العود الغليظ في رأسه نار أولا .
والخوار : الضعيف . والدعر : الكثير الدخان .

(١٣) ذكره الزمخشري دون أن ينسبه لقائل ، وكذلك لم ينسبه الشيخ محمد عليان المرزوقي في كتابه مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف .

(١٤) في آية رقم ١٠ في سورة طه ، وفي آية رقم ٧ في سورة النمل .

الآيات من ٣١ : ٣٤

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي فألقاها فصارت ثعبانا واهتزت فلما رآها تهتز . ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾في الهيئة والجثة أو في السرعة .﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ منهزما من الخوف .﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع . ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ نودي يا موسي ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾من المخاوف ، فإنه لا يخاف لدي المرسلون .

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أدخلها . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عيب . ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمني تحت عضد اليسري وبالعكس ، أو بإدخالهما في الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر ، وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءةومبدأ لظهور معجزة، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه .﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ من أجل الرهب أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك . وقرأ ابن عامر وحمزةوالكسائي وأبو بكر بضم الراء وسكون الهاء ، وقرئ بضمهما ،وقرأحفص بالفتح والسكون والكل لغات . ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلي العصا واليد ، وشدده ابن كثير وأبو عمرو ورويس .﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ حجتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض ،ويقال برهاء وبرهرهة للمرأة البيضاء [١٥] وقيل : فعلال لقولهم برهن .﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾

---

(١٥)برهرهة بتكرير العين واللام معا .

مرسلا بهما . ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها .

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ معينا وهو في الأصل اسم مايعان به كالدفء ، وقرأ نافع ردا بالتخفيف . ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة ، وقيل : المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلي السبب ، وقرأ عاصم وحمزة يصدقني بالرفع علي أنه صفة والجواب محذوف .

الآيات من ٣٥ : ٤٠

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ سنقويك به فإن قوة الشخص بشدةاليد علي مزاولة الأمور ، ولذلك يعبرعنه باليد وشدتها بشدة العضد . ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ غلبة أو حجة .. ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ باستيلاء أو حجاج . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا ، أو بنجعل أي نسلطكما بها ، أو بمعني لا يصلون أي تمتنعون منهم ، أو قسم جوابه لا يصلون ، أو بيان للغالبون في قوله :﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ بمعني أنه صلة لما بينه أو صلة له علي أن

اللام فيه للتعريف بمعني الذي .

تبليغ الرسالة

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ سحر تختلقه لم يفعل قبل مثله ، أو سحر تعمله ثم تفتريه علي الله ؛ أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر .﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ يعنون السحر أو ادعاء النبوة . ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ كائنا في أيامهم .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون .وقرأ ابن كثير قال بغير واو لأنه قال ما قاله جوابا لمقالهم ، ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد . ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ العاقبة المحمودة فإن المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنةلأنها خلقت مجازا إلي الآخرة ، والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض .وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ لا يفوزون بالهدي في الدنيا وحسن العاقبة في العقبي .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ نفي علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ، ولذلك أمر ببناء الصرح ليصعد إليه ويتطلع علي الحال بقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما في السماء يمكن الترقي إليه ثم قال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أو أراد أن يبني له رصدا يترصد منه أو ضاع الكواكب فيري هل فيها ما يدل علي بعثةرسول وتبدل دولة ، وقيل : المراد بنفي العلم نفي المعلوم كقوله تعالي ﴿ أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾(١٦) فإن معناه بما ليس فيهن ، وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها لك انتفاؤها ، ولا كذلك العلوم الانفعالية ،قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاده علي وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم ؛ ولذلك نادي هامان باسمه بيا في

(١٦)يونس : ١٨ .

وسط الكلام .

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بغير استحقاق . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور . وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ كما مر بيانه ، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقار للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم ، ونظيره قوله تعالي ﴿ وما قدرو الله حق قدره ﴾ (١٧) ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ (١٨) ﴿ فَانظُرْ ﴾ يا محمد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾وحذر قومك عن مثلها .

الآيات من ٤١ : ٤٦

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قدوة للضلال بالحمل علي الإضلال ، وقيل بالتسمية كقوله تعالي :﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ (١٩) ،أو بمنع الألطاف الصارفةعنه .﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ إلي موجباتها من الكفر والمعاصي . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم .

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ طرداً عن الرحمة ، أو لعن اللاعنين يلعنهم

---

(١٧) الأنعام : ٩١ (١٨) الزمر : ٦٧ . (١٩) الزخرف : ١٩ .

الملائكة والمؤمنون . ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ من المطرودين ، أو ممن قبح وجوههم .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ التوراة . ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط . ﴿ بصائر للناس ﴾ أنوارًا لقلوبهم تتبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل . ﴿وهدى ﴾ إلى الشرائع التي هي سبل الله تعالى . ﴿ورحمة ﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى . ﴿لعلهم يتذكرون ﴾ ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر ، وقد فسر بالإرادة وفيه ما عرفت .

برهان على نبوة محمد ﷺ

﴿وما كنت بجانب الغربي ﴾ يريد الوادي ، أو الطور فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى ، أو الجانب الغربي منه والخطاب لرسول الله ﷺ أي ما كنت حاضرًا . ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه . ﴿وما كنت من الشاهدين ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه ، وهم السبعون المختارون للميقات ، والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله :

﴿ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ﴾ أي ولكنا أوحينا إليك لأنا أنشأنا قرونًا مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد ، فحرفت الأخبار وتغيرت الشرائع واندرست العلوم ، فحذف المستدرك وأقام سببه مقامه . ﴿وما كنت ثاويًا ﴾ مقيما . ﴿في أهل مدين ﴾ شعيب والمؤمنين به . ﴿تتلو عليهم ﴾ تقرأ عليهم تعلمًا منهم . ﴿آياتنا ﴾ التي فيها قصتهم . ﴿ولكنا كنا مرسلين ﴾ إياك ومخبرين لك بها .

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة وبالأول حين ما استنبأه لأنهما المذكوران في القصد (٢٠) . ﴿ولكن﴾ علمناك .

(٢٠) ذكر الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النداء كان موجها إلى أمة النبي ﷺ ، قال : نودوا أن يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني . . وهذا يدل على منزلة هذه الأمة المرحومة . راجع في ذلك تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي .

﴿ رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وقرئت بالرفع على هذه رحمة من ربك . ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ متعلق بالفعل المحذوف . ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى . وهي خمسمائة وخمسون سنة ، أو بينك وبين إسماعيل ، على أن دعوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون .

الآيات من ٤٧ : ٥٢

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

لا عذاب لأمة قبل إنذارها ودعوتها إلي الحق

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾لولا الأولى امتناعية والثانية تحضيضية واقعة في سياقها ، لأنها إنما أجيبت بالفاء تشبيهاً لها بالأمر مفعول يقولوا المعطوف على تصيبهم بالفاء المعطية معنى السببية المنبهة على أن القول هو المقصود بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به ، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة والجواب محذوف والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين ، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قطعًا لعذرهم وإلزامًا للحجة عليهم . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ يعنى الرسول المصدق بنوع من المعجزات . ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ من الكتابة واليد والعصا وغيرها اقتراحاً وتعنتاً . ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى ، أو كان فرعون عربيا من أولاد عاد . ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ ﴾ يعني موسى وهارون ، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاةوالسلام . ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ تعاونا بإظهار تلك الخوارق أو بتوافق الكتابين . وقرأ الكوفيون سحران بتقدير مضاف أو جعلهما سحرين مبالغة، أو إسناد تظاهرهما إلى فعلهما دلالة على سبب الإعجاز . وقرئ اظَّاهرا على الإدغام. ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أي بكل منهما أو بكل الأنبياء .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا ﴾ مما أنزل على موسى وعلى محمد وإضمارهما لدلالة المعنى ، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين موسى ومحمد عليهما الصلاةوالسلام . ﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إنا ساحران مختلفان ، وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت، ولعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به ، ولأن فعل الاستجابة يعدي بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي ، فإذا عدي إليه حذف الدعاء غالباً كقوله :

وَدَاعٍ دَعا يا مَنْ يُجيبُ إِلى النِّدَا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجيبُ(٢١)

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ إذ لو اتبعوا حجة لأتوا بها . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ استفهام بمعنى النفي . ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ في موضع الحال للتأكيد أو التقييد ، فإن هوى النفس قد يوافق الحق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى .

---

(٢١) تقدم الحديث عن هذا الشاهد

والشاهد فيه أن يستجب عدي بغير اللام لأنه يتعدي إلى الدعاء بنفسه ، أما إذا عدي إلى الداعي جاء اللام يقال : استجاب له . قال الزمخشري في الكشاف : ويحذف الدعاء إذا عُدِّيَ إلى الداعي في الغالب فقال : استجاب الله دعاءه أو استجابه له ، ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه .

والبيت المذكور معناه : لم يستجب دعاءه على حذف المضاف . ـ من تفسير الكشاف ـ

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أتبعنا بعضه بعضا في الإنزال ليتصل التذكير ، أو في النظم لتتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ والنصائح بالعبر . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون ويطيعون .

المؤمنون من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ، وقيل في أربعين من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (٢٢) والضمير في من قبله للقرآن كالمستكن في :

الآيات من ٥٣ : ٥٧

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أي بأنه كلام الله تعالى . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن

---

(٢٢) أخرج ابن جريرو الطبراني عن رفاعة القرظي قال : نزل قوله تعالي: ﴿ ولقد فصلنا لهم القول . . . إلى قوله تعالى . . . لا نبتغي الجاهلين ﴾ في عشرة أنا أحدهم .
وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم رفاعة ـ يعني أباه ـ إلى النبي ﷺ فآمنوا به فأوذوا فنزلت : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ .
وأخرج عن قتادة قال : كنا نتحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا علي الحق حتي بعث الله محمدا ﷺ فآمنوا به منهم عثمان وعبد الله بن سلام . ـ لباب النقول للسيوطي ـ

﴿ رَّبِّنَا ﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به . ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ ، وإنما هو أمر تقادم عهده لمارأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن ، أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة .

﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن . ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانين ، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى المشركين ومن هاجرهم من أهل دينهم . ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ويدفعون بالطاعة المعصية لقوله ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ تكرماً . ﴿ وَقَالُوا ﴾ للاغين . ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ متاركة لهم وتوديعا ، أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه . ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ لا تقدر على أن تدخلهم في الإسلام . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ فيدخله في الإسلام . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ بالمستعدين لذلك . والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، قال : يا ابن أخي قد علمت إنك لصادق ولكن أكره أن يقال خدع عند الموت (٢٣) .

منَّةُ اللهِ على قريش

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ نخرج منها . نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، أتي النبي ﷺ فقال : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا

---

(٢٣) رواه السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال أخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعد بن رافع قال : سألت ابن عمر عن هذه الآية ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أفي أبي جهل وأبي طالب؟ قال : نعم .

من أرضنا فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه يتناحر العرب حوله وهم آمنون فيه . ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه ، وقرأ نافع ويعقوب في رواية بالتاء . ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من كل أوب . ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام فكيف نعرضهم للتخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموه ، وقيل إنه متعلق بقوله من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله ، وأكثرهم لا يعلمون إذ لو علموا لما خافوا غيره ، وانتصاب رزقاً على المصدر من معني يجبى ، أو حال من الثمرات لتخصصها بالإضافة ، ثم بين أن الأمر بالعكس فإنهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله علي ما هم عليه بقوله :

الآيات من ٥٨ : ٦٣

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) ﴾

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش حتى أشرو فدمر الله عليهم وخرب ديارهم . ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ خاوية . ﴿ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من السكنى لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم ، أو لا يبقى من يسكنها من شؤم معاصيهم . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم

وسائر متصرفاتهم ، وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفًا بنفسها كقولك : زيد ظني مقيم ، أو بإضمار زمان مضاف إليها أو مفعولاً على تضمين بطرت معنى كفرت .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ﴾ وما كانت عادته . ﴿ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ في أصلها التي هي أعمالها ، لأن أهلها تكون أفطن وأنبل . ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر .

متاع الدنيا زائل ومتاع الآخرة باق خالد

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ من أسباب الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ تتمتعون وتتزينون به مدة حياتكم المنقضية . ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ وهو ثوابه . ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خاصة وبهجة كاملة . ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ لأنه أبدى . ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة .

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود . ﴿ فَهُوَ لاقِيهِ ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعده ، ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية . ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب بالتحسر على الانقطاع . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ للحساب أو العذاب ، وثم للتراخي في الزمان أو الرتبة ، وقرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل ، وهذه الآية كالنتيجة للتي قبلها ولذلك رتبت عليها بالفاء .

توبيخ للمشركين

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر . ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما .

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ بثبوت مقتضاه وحصول مؤداه وهو قوله

تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٢٤) وغيره من آيات الوعيد. ﴿ ربَّنَا هَؤُلاءِ الَّذينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أي هؤلاء الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول . ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي أغويناهم فغووا غيًا مثل ما غوينا ، وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم وأنهم لم يفعلوابهم إلا وسوسة وتسويلاً، ويجوز أن يكون الذين صفة وأغويناهم الخبر لأجل ما اتصل به فإفادة زيادة على الصفة وهو إن كان فضلة لكنه صار من اللوازم . ﴿ تبرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم ومما اختاره من الكفر هوى منهم ، وهو تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا . ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم . وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا .

الآيات من ٦٤ : ٧٠

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ من فرط الحيرة . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ لازماً بهم . ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ لوجه من الحيل يدفعون به العذاب ، أو إلى الحق لما رأوا العذاب ولو للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين . .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء .

---

(٢٤) هود : ١١٩ .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم ، وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يقبض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره ، والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل أو ما يعمها وغيرها ، فإذا كانت الرسل يتتعتعون في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال من أممهم ، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معني الخفاء . ﴿ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والعلم بأنه مثله في العجز .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وجمع بين الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام ، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح .

الله المتفرد بالخلق والاختيار

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأساً والأمر كذلك عند التحقيق ، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل : المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ، ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (٢٥) . وقيل ماموصولة مفعول ليختار والراجع إليه محذوف والمعني : ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصلاح . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزيه له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار . ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ كعداوة الرسول وحقده . ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ كالطعن فيه .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ المستحق للعبادة . ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو . ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم ﴿ الحمد لله الذي أذهب

---

(٢٥) الزخرف : ٣١ .

عنا الحزن ﴾ (٢٦) ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (٢٧) ابتهاجًا بفضله والتذاذًا بحمده . ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ القضاء النافذ في كل شيء . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور .

الآيات من ٧١ : ٧٥

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾

من نعم الله نعمة الليل والنهار

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ دائما من السرد وهو المتابعة والميم مزيدة كميم دلامص . ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ﴾ كان حقه هل إله فذكر بمن على زعمهم أن غيره آلهة . وعن ابن كثير بضئاء بهمزتين . ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واستبصار .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بإسكانها في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ استراحة عن متاعب الأشغال ، ولعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوء نعمة في ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك الليل ، ولأن منافع الضوء أكثر

---

(٢٦) فاطر : ٣٤ . (٢٧) الزمر : ٧٤ .

مما يقابله ولذلك قرن أفلا تسمعون وبالليل . ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ في الليل . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ في النهار بأنواع المكاسب . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها .

توبيخ آخر للمشركين

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، أو الأول لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وإنما كان محض تشه وهوى .

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ وأخرجنا . ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه . ﴿ فَقُلْنَا ﴾ للأمم . ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به . ﴿ فَعَلِمُوا ﴾ حينئذ . ﴿ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وغاب عنهم غيبة الضائع . ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الباطل .

الآيات من ٧٦ : ٨٠

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾

قصة قارون

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوي وكان ممن آمن به . ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره ، أو تكبر عليهم أو ظلمهم . قيل وذلك حين مَلَّكَهُ فرعون على بنى إسرائيل ، أو حسدهم لما روي أنه قال لموسى عليه السلام : لك الرسالةولهارون الحبورة (٢٨) وأنا في غير شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله . ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ من الأموال المدخرة . ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ مفاتيح صناديقه جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح . ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ خبر إن والجملة صلة وهو ثاني مفعولي آتي ، ونائبه الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة واعصوصبوا اجتمعوا . وقرئ لينوء بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ منصوب بتنوء ﴿لا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر والفرح بالدنيا مذموم مطلقًا لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح كما قيل :

أشدّ الغمِّ عندِي في سُرُورٍ   تَيقّن عَنْهُ صَاحِبهُ انْتِقَالاً (٢٩)

ولذلك قال تعالى :﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾(٣٠) ، وعلل النهي ها هنا

---

(٢٨) الحبورة : منزلة علمية دينية يقال : فلان حَبْر هذه الأمة أي عالمها المتقدم ، وكانت لهارون منزلة عليا بين قومه ، فله المذبح والقربان والرئاسة في قومه وكان القربان لموسى فجعله موسى لأخيه فوجد قارون في نفسه وحسدهما ، فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر ؟ قال موسى : هذا صنع الله . قال قارون : لا أصدق حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه ، فخرمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . . . من تفسير الكشاف للزمخشري ـ .

(٢٩) البيت لأبي الطيب المتنبي الشاعر العباسي .

ومعناه : أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه ، وهكذا سرور الدنيا كله ـ مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف .

(٣٠) الحديد : ٢٣ .

بكونه مانعًا من محبة الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي بزخارف الدنيا .

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ من الغنى .﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها . ﴿ وَلا تَنسَ ﴾ ولا تترك ترك المنسي . ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك . ﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى عباد الله . ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ فيما أنعم الله عليك . وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن إليك بالإنعام . ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي ، نهى له عما كان عليه من الظلم والبغي . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لسوء أفعالهم .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالجاه والمال ، وعلى علم في موضع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها ، وقيل هو الكيمياء ، وقيل : علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب ، وقيل العلم بكنوز يوسف ، وعند صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك : جاز هذا عندي أي في ظني واعتقادي . ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ ، أو رد لادعائه للعلم وتعظمه به بنفي هذا العلم عنه أي أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعي . ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين . ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ سؤال استعلام فإنه تعالى مطلع عليها أو معاتبة فإنهم يعذبون بها بغتة ، كأنه لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مطلعًا على ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم معاقبهم عليها لا محالة .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان (٣١) وعليها سَرْج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة . ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا

(٣١) الأرجوان : قطيفة حمراء وهي فارسية معربة أصلها : أرغوان .

﴿ أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً عن الحسد . ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الدنيا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ بأحوال الآخرة للمتمنين . ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضي . ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ ﴾ في الآخرة . ﴿ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ مما أوتى قارون بل من الدنيا وما فيها . ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا ﴾ الضمير فيه للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب ، فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿ إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ على الطاعات وعن المعاصي .

الآيات من ٨١ : ٨٤

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ روي أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتي نزلت الزكاة ، فصالحة عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره ، فعمد إلى أن يفضح موسي بين بني إسرائيل ليرفضوه ، فبرطل(٣٢) بَغِيَّةً لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال : من سرق قطعناه ، ومن زنى غير محصن جلدناه ، ومن زنى محصناً رجمناه ، فقال قارون : ولو كنتَ ؟ قال : ولو كنت ، قال : إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت ، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت : جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي ، فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت

(٣٢) بَرْطَل : رشا .

فقال : يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه ، ثم قال خذيه إلى وسطه ، ثم قال خذيه فأخذته إلى عنقه ، ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه ، فأوحى الله إليه ما أفظك استرحمك مراراً فلم ترحمه ، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته (٣٣) ، ثم قال بنو إسرائيل : إنما فعله ليرثه ، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ أعوان مشتقة من فَأَوْت رأسه إذا ميلته . ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيدفعون عنه عذابه . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع .

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ ﴾ منزلته . ﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب . ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ يبسط ويقدر بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض ، وويكأن عند البصريين مركب من وي للتعجب وكأن للتشبه والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط الرزق . وقيل : من ويك بمعنى ويلك وأن تقديره ويك أعلم أن الله . ﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فلم يعطنا ما تمنينا . ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لتوليده فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله . وقرأ حفص بفتح الخاء والسين . ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة .

الآخرة للمتواضعين الزاهدين المتقين

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ إشارة تعظيم كأنه قال : تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ، والدار صفة والخبر : ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ غلبة وقهراً . ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ المحمودة . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ما لا يرضاه الله .

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً . ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ

---

(٣٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه والطبراني من رواية علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

فَلا يُجْزَى الَّذينَ عَمِلُوا السَّيِّئَات ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير تهجينا لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم . ﴿ **إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم ما كانوا يعملون مقامه مبالغة في المماثلة .

الآيات من ٨٥ : ٨٨

﴿ **إِنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)** ﴾

المقام المحمود للنبي ﷺ

﴿ **إِنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ** ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه . ﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ أي معاد وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه ، أو مكة التي اعتدت بها على أنه من العادة رده إليها يوم الفتح ، كأنه لما حكم بأن العاقبة للمتقين وأكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين وعده بالعاقبة الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغ جحفة في مهاجره اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت[٣٤] ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ** ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يفسره أعلم . ﴿ **وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾وما استحقه من العذاب والإذلال يعني به نفسه والمشركين ، وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله :

﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ** ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه . ﴿ **إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ ولكن ألقاه رحمة منه ، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى كأنه قال : وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة . ﴿ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابةإلى طلبتهم .

---

(٣٤) رواه السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الضحاك .

﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها . ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ وقرئ يصدنك من أصد . ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى عبادته وتوحيده . ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم .

﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك في حد ذاته معدوم . ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ القضاء النافذ في الخلق . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء بالحق .

فضل سورة القصص

عن النبي ﷺ : « من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا »(٣٥) .

---

(٣٥) ذكره الزمخشري في تفسيره دون إسناد ، وعلق عليه الحافظ ابن حجر بقوله في تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢٩) سورة العنكبوت مكية

وآياتها تسع وستون (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٥

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ ﴾

---

(١) في تفسير الكشاف وابن كثير مكية إلا من آية ١ إلى غاية الآية ١١ فمدنية ونزلت بعد سورة الروم .

* الإعجاز العلمى

سمي القرآن الكريم بعض سور القرآن بأسماء حشرات مثل النحل ، النمل ، والعنكبوت ليلفت أنظارنا إلى قدرة الله خالقها خالق كل شيء إلى عظيم قدرته وعدم تحقير شأنها والتأمل في أحوال هذه الحشرة العجيبة ليزيد النفس إيمانا ويقينا بقدرة الله عز وجل .

فالعناكب تنتمي إلى طائفة العنكبوتيات ، لكن العناكب أكبر حجما ، بل إن بعض عناكب المنطقة الاستوائية هي من الكبر بحيث تغطي طبقا (صحنا) عاديا مع امتداد أرجلها . والعنكبوت كالقملة لا يعتبر من الحشرات . فالعنكبوت له ثماني أرجل بدل ست في الحشرات . وينقسم جسم العنكبوت إلى قسمين ـ رأس صدري وبطن بخلاف جسم الحشرة المؤلف من ثلاثة أقسام ـ رأس وصدر وبطن . وبمساعدة عدسة مكبرة ترى أن للحشرة عينين مركبتين وقرنى استشعار بينما للعنكبوت ثماني عيون بسيطة (وأحيانا ست) ولا قرون استشعار لها . وما يشبه قرني الاستشعار في العناكب هما ملمسان تستخدمهما العناكب في التزاوج .

يتألف الشع ، وهو بيت العنكبوت ، من خيوط حريرية دقيقة تفرزهاالمغازل في مؤخر جسم العنكبوت . يبدأ العنكبوت بإفراز خيط يتركه ينساق في الهواء حتي يعلق بغصن أو =

ضرورة الامتحان للتحقق من الإيمان

﴿ الٓمٓ ﴾ سبق القول فيه ووقوع الاستفهام بعده دليل استقلاله بنفسه أو بما يضمر معه .

* الإعجاز العلمي

ورقة فيشده العنكب ويقويه . ثم يقيم العنكبوت إطارا حريريا يمد عبره خيوطًا تمتد من المركز إلى المحيط كبرامق العجلة ، ثم يبدأ بمد الخيوط الدوارة من المركز باتجاه المحيط فيمد بعضها لتقوية الإطار وينتقل إلى حواشي الشع يقويه بخيط حريري لولبي موسع الفسحات ، وبروح بعد ذلك يكمل النسج الدوار من الخارج إلى الداخل بخيوط حريرية لزجة ــ ولن تمضي ثلاثون دقيقة حتى يكون الشع قد اكتمل . وينسج العنكبوت شعا جديداً كل يوم . ويحرص العنكب في أثناء عملية النسج على ربط نفسه بخيط أمان ، تماما كما يفعل متسلقو الجبال ، فإذا هبت ريح قوية وعصفت بالعنكبوت بعيدا فإنه يترجح بخيط الأمان عائدا بعد لحظة إلى الشع لمواصلة عمله .

بعد أن ينصب العنكبوت شركه الشعي يختبئ على مقربة منه وينتظر . وعندما تعلق ذبابة بالشرك تبعث حركاتها ، وهي تكافح للتفلت ، ذبذبات عبر خيط الأمان إلى العنكبوت . وسرعان ما يهرول العنكبوت نحو الفريسة دون أن تعلق أرجله الزيتية التغليف نوعا بالشع ، فيعضها بمخلبيه ويشلها بسمه ، ثم يلفها بغشاء حريري ويجرها إلى وسط الشع ليتغذى بعصارتها أو قد يعود بها إلى مخبئه بانتظار فريسة أخرى .

وسم العناكب قلما يُضير الإنسان ، لكن سم بعض الأنواع كالأرملة السوداء (وهي سميت كذلك لأن العنكبة منها تقتل العنكب بعد التزاوج) قد يكون قاتلا . وتتميز عنكبوت الأرملة السوداء بجسمها الأسود المرقط في أسفله بالأحمر ، وهي ليست من العناكب الكبار ، وتستوطن المناطق الدفيئة . ويعجز مخلبا العنكبوت عادة عن اختراق جلد الإنسان لمتانته وضعفهما نسبيا . ومن العناكب الكبار نوع يسمي آكل الطيور . وهي وإن استطاعت أحيانا اقتناص بعض الطيور الطنانة فإن غذاءها الرئيسي هو الديدان والفيران والحشرات الكبيرة .

تتباين أنواع الشع بتباين أنواع العناكب ، فبعضها مداري كشع عنكبوت الحدائق وبعضها نفقي كشع العنكب البوابي وبعضها ملائى تنصبه عنكبة تتدلى مقلوبة من وسطه بانتظار ذبذبات الفريسة العالقة .

وليست العناكب كلها من صانعات الأشعاع ، فالكثير منها جواس دائم التربص بحثا =

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ الحسبان مما يتعلق بمضامين الجمل للدلالة على جهة ثبوتها، ولذلك اقتضى مفعولين متلازمين أو ما يسد مسدهما كقوله : ﴿ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ فإن معناه أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا ، فالترك أول مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم آمنا هو الثانى كقولك : حسبت ضربه للتأديب ، أو أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف ، كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والثابت فى الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر عليها عوالى الدرجات ، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب . روى أنها

* **الإعجاز العلمى**

عن فريسة . وهذه الأنواع سريعة العدو تنطلق من مخبئها في اللحظة المناسبة لتنقض على الفريسة ، ومن هذه الأنواع العنكبوت الذئبي الرمادي أو البني . أما العنكبوت السرطاني الصغير فيعمد إلى الاختباء بين تويجيات الزهر البيضاء أو الصفراء غالبًا ليندمج لونه معها تمويها . وحين تحط الحشرات على الزهر يُهاجمها من مكمنه . وتعمد العناكب القفازة إلى مطاردة فرائسها فتنقض عليها من البعد المناسب وتعمل مخلبيها فيها أما العنكبوت البصاق فيبخ فريسته حين تعن أمامه بمادة لزجة من خلايا خاصة في جسمه فيسمرها في مكانها .

تضع العنكبة البيوض على طبقة حريرية شعية وتغطيها بطبقة أخرى . وقد تجد هذه البيوض على ورقة شجر أو على حجر أو تحت جذع مقطوعة أو قد تجدها مدلاة بخيوط حريرية . وتحمل بعض العناكب بيوضها في كيس مثبت بجسمها . والعناكب الناقفه عديمة اللون والشعر وعاجزة عن الاغتذاء والنسج . وفي مدي يومين ينسلخ جلدها فتبدو عناكب مكتملة صغارا وقد تبقى فترة داخل كيسها الحريري لكنها أخيراً تشق طريقها عبره . وترافق العناكب الصغار الأم فترة أخرى محمولة على ظهرها أو مكتلة معا في حمايتها إلى أن تتفرق بعد حين لتسعى كل عنيكبة في سبيلها . وتعمد بعض العنيكبات إلى مكان مشرف فوق غصن أو شجرة فتنسج حول نفسها خيوطا حريرية تسفيها الريح حاملة العنيكبات معها إلى أرجاء المنطقة القريبة والبعيدة . وعندما تهدأ الريح أو تنقطع الخيوط تحط العنيكبات لتبدأ حياة جديدة . وقد يهلك من هذه العناكب الكثير فرائس للطير أو غرقا في الماء لكن الكثير منها يصل ويستمر النوع .

نزلت فى ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : فى عمار وقد عذب فى الله تعالى ، وقيل : فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته (٢) .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ متصل بأحسب أو بلا يفتنون ، والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية فى الأمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافه . ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ فليتعلقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا فى الإيمان والذين كذبوا فيه ، وينوط به ثوابهم وعقابهم ، ولذلك قيل: المعنى وليميزن أو ليجازين ، وقرئ وليعلمن من الإعلام أى وليعرفنهم الله الناس أو لَيَسِمَنَّهُم بسِمَة يَعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الكفر والمعاصى فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح . ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم على مساويهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر أو أم منقطعة ، والإضراب فيها لأن هذا الحسبان أبطل

---

(٢) قال السيوطي في لباب النقول : أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا ﴾ قال : أنزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتي تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم . فنزلت هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا : تخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ الآية .

وأخرج عن قتادة قال : أنزلت ﴿ الم أحسب الناس ﴾ في أناس من أهل مكة ، خرجوا يريدون النبي ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا ، فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل القرآن ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿ أحسب الناس ﴾ الآية .

من الأول ولهذا عقبه بقوله : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى بئس الذى يحكمونه ، أو حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ فى الجنة ، وقيل : المراد بلقاء الله الوصول إلى ثوابه، أو إلى العاقبة من الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل حاله بحال عبد قدم على سيده بعد زمان مديد وقد اطلع السيد على أحواله ، فإما أن يلقاه ببشر لما رضى من أفعاله أو بسخط لما سخط منها . ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ فإن الوقت المضروب للقائه . ﴿ لآتٍ ﴾ لجاء وإذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء كائناً لا محالة ، فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يستوجب به القربة والرضا ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بعقائدهم وأفعالهم .

الآيات من ٦ : ١٠

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾

﴿ وَمَن جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة والكف عن الشهوات . ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعته لها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم ، وإنما كلف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحهم .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم .

وصاة الإسلام بالوالدين

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حسن ، أو كأنه فى ذاته

حسن لفرط حسنه ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفاً . وقيل هو بمعنى قال أي وقلنا له أحسن بوالديك حسناً ، وقيل حسناً منتصب بفعل مضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى قلنا أولهما أو افعل بهما حسناً وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه ، وقرئ حسناً وإحساناً . ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ بإلهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه . ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ فى ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق . ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه ، والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة ، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح (٣) ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التى فى لقمان والأحقاف(٤) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ فى جملتهم والكمال فى الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله والمرسلين ، أو فى مدخلهم وهو الجنة .

من صفات كاذبي الإيمان

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان . ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ ما يصيبه من أذيتهم فى الصرف عن الإيمان . ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ فى الصرف عن الكفر . . ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فتح وغنيمة . ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ فى الدين فأشركونا فيه ، والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيد الأول . ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ من الإخلاص والنفاق .

---

(٣) الضح : الشمس .

(٤) آيتا لقمان برقم ١٤ ، ١٥ ، وآية الأحقاف برقم ١٥ .

الآيات من ١١ : ١٦

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) ﴾

تحريض المشركين الذين آمنوا على الكفر

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم . ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فيجازى الفريقين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ الذى نسلكه فى ديننا . ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ إن كان ذلك خطيئة أو إن كان بعث ومؤاخذة ، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين علي أمرهم بالاتباع مبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعاً لهم عليه ، وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير : وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أثقال ما اقترفته أنفسهم . ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وأثقالاً أخر معها لما تسببوا له بالإضلال والحمل على المعاصى من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شئ . ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الأباطيل التى أضلوا بها .

الاعتبار من قصة نوح

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ بعد

المبعث ، إذ روى أنه بعث على رأس الأربعين ودعا قوماً تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين ، ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما فى ذكر الألف من تخييل طول المدة إلى السامع ، فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله ﷺ وتثبيته علي ما يكابده من الكفرة واختلاف المميزين لما فى التكرير من البشاعة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ طوفان الماء وهو لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو نحوهما . ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ بالكفر .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ أى نوحاً عليه الصلاة و السلام . ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ ومن أركب معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين . وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث . ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى السفينة أو الحادثة . ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يتعظون ويستدلون بها .

ومن قصة إبراهيم مع قومه

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ عطف على نوحاً أو نصب بإضمار اذكر ، وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ظرف لأرسلنا أى أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به ، أو بدل منه بدل اشتمال إن قدر باذكر . ﴿ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما أنتم عليه . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر وتميزون ما هو خير مما هو شر ، أو كنتم تنظرون فى الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل .

الآيات من ١٧ : ٢٢

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾

﴿ **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا** ﴾ وتكذبون كذباً فى تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله تعالى ، أو تعملونها وتنحتونها للإفك وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل ، وقرئ تخلقون من خلق للتكثير وتخلقون من تخلق للتكلف ، وإفكاً على أنه مصدر كالكذب أو نعت بمعنى خلقاً ذا إفك . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا** ﴾ دليل ثان على شرارة ذلك من حيث إنه لا يجدى بطائل ، ورزقاً يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم وأن يراد المرزوق وتنكيره للتعميم . ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ** ﴾ كله فإنه المالك له ﴿ **وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين لما حفكم من النعم بشكره ، أو مستعدين للقائه بهما فإنه : ﴿ **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ وقرئ بفتح التاء .

﴿ **وَإِن تُكَذِّبُوا** ﴾ وإن تكذبونى . ﴿ **فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ** ﴾ من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم . ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾ الذى يزال معه الشك وما عليه أن يصدق ولا يكذب ، فالآية وما بعدها من جملة قصة إبراهيم إلى قوله ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ** ﴾ (٥) ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبى ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفى قصته من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله ﷺ والتنفيس عنه ، بأن أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممنواً بنحو ما منى به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم فى قومه .

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ** ﴾ من مادة ومن غيرها ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بالتاء على تقدير القول وقرئ يبدأ . ﴿ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ إخبار

---

(٥) العنكبوت : ٢٤ .

بالإعادة بعد الموت معطوف على أو لم يروا لا على يبدئ ، فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن تؤول الإعادة بأن ينشئ فى كل سنة مثل ما كان فى السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما وتعطف على يبدئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة إلى الإعادة أو إلى ما ذكر من الأمرين . ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقر فى فعله إلى شئ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حكاية كلام الله لإبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام . ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ بعد النشأة الأولى التى هي الإبداء ، فإنه والإعادة نشأتان من حيث أن كلا اختراع وإخراج من العدم ، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره فى بدأ والقياس الاقتصار عليه للدلالة علي أن المقصود بيان الإعادة ، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء ينبغى أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأنها أهون والكلام فى العطف ما مر ، وقرئ النشاءة كالرآفة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كل الممكنات على سواء فيقدر على النشأة الأخرى كما قدر على النشأة الأولى .

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ تعذيبه . ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمته . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم عن إدراككم . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ إن فررتم من قضائه بالتوارى فى الأرض أو الهبوط فى مهاويها ، والتحصن فى السماء أو القلاع الذاهبة فيها ، وقيل : ولا من فى السماء كقوله حسان :

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاء (٦)

---

(٦) من شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه في الرد على مشركي قريش من قصيدة مشهورة وفيها يقول :

هجوت محـمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجـزاء
فإن أبي ووالده وعرضـــي ... لعرض محمد منكم وقاء

وقد سبق هذا الشاهد والحديث عنه .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم .

الآيات من ٢٣ : ٢٦

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه . ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث . ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ أى ييأسون منها يوم القيامة ، فعبر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة ، أو أيسوا فى الدنيا لإنكار البعث والجزاء . ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم له ، وقرئ بالرفع على أنه الاسم والخبر. ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وكان ذلك قول بعضهم ، لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقون أسند إلى كلهم . ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى فقذفوه فى النار فأنجاه الله منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فى إنجائه منها . ﴿ لآيَاتٍ ﴾ هى حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها فى زمان يسر وإنشاء روض مكانها . ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، وثانى مفعولى اتخذتم محذوف ويجوز أن تكون مودة المفعول الثانى بتقدير مضاف أى اتخذتم أوثان سبب المودة بينكم أو بتأويلها بالمودودة ، وقرأها نافع وابن عامر وأبو بكر منونة ناصبة بينكم والوجه ما سبق ، وابن كثر وأبو عمرو والكسائى ورويس مرفوعة

مضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى مودودة أو سبب مودة بينكم ، والجملة صفة أوثاناً أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهى المفعول الأول ، وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ ﴿ **لقد تقطع بينكم** ﴾ (٧) وقرئ إنما مودة بينكم . ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً** ﴾ أى يقوم التناكر والتلاعن بينكم ، أو بينكم وبين الأوثان على تغليب المخاطبين كقوله تعالى : ﴿ **ويكونون عليهم ضداً** ﴾ (٨) . ﴿ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ يخلصونكم منها .

﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** ﴾ هو ابن أخيه وأول من آمن به ، وقيل إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه . ﴿ **وَقَالَ** (٩) **إِنِّي مُهَاجِرٌ** ﴾ من قومى . ﴿ **إِلَىٰ رَبِّي** ﴾ إلى حيث أمرني . ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ الذى يمنعنى من أعدائى . ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ الذى لا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى . روى أنه هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط ، وامرأته سارة ابنة عمه إلى حرَّان ، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم .

الآيات من ٢٧ : ٣٢

﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)** ﴾

---

(٧) الأنعام : ٩٤ . (٨) مريم : ٨٢ . (٩) فاعل قال : إبراهيم عليه السلام .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ ولدا ونافلة حين أيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر إسماعيل . ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة ﴾ فكثر منهم الأنبياء . ﴿ والكتاب ﴾ يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة ﴿ وآتيناه أجره ﴾ على هجرته إلينا . ﴿ في الدنيا ﴾ بإعطاء الولد فى غير أوانه ، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإنماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر . ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لفى عداد الكاملين فى الصلاح .

قصة لوط

﴿ ولوطا ﴾ عطف على ما عطف عليه . ﴿ إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ الفعلة البالغة فى القبح ، وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهام فى الثانى . ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى أقدموا عليها لخبث طينتهم .

﴿ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ﴾ وتتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق ، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث . ﴿ وتأتون في ناديكم ﴾ فى مجالسكم الغاصة بأهلها ولا يقال للنادى إلا لما فيه أهلها . ﴿ المنكر ﴾ كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها من القبائح وعدم مبالاة بها . وقيل الحذف (١٠) ورمى البنادق . ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ فى استقباح ذلك أو فى دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ .

﴿ قال رب انصرني ﴾ بإنزال العذاب . ﴿ على القوم المفسدين ﴾ باتباع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم ، وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب .

﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة . ﴿ قالوا إنا

---

(١٠) الحذف ـ بالحاء والخاء ـ بالحصى أي القذف بالحصي ، يقذفون المارة بالحصى ويرمونهم بالبنادق .

مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال . ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم فى ظلمهم الذى هو الكفر وأنواع المعاصى.

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ اعتراض عليهم بأن فيها من لم يظلم ، أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبى بين أظهرهم . ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ تسليم لقوله مع ادعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه ، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله أو تأقيت الإهلاك باخراجهم منها ، وفيه تأخير للبيان عن الخطاب . ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب أو القرية .

الآيات من ٣٣ : ٣٩

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) ﴾

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، وأن صلة لتأكيد الفعلين واتصالهما . ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له ، وذلك لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير

االذراع . ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة . ﴿ لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ ﴾ على تمكنهم منا . ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لننجينه ومنجوك بالتخفيف ووافقهم أبو بكر وابن كثير فى الثاني ، وموضع الكاف الجر علي المختار ونصب أهلك باضمار فعل أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل.

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ عذاباً منها سمى بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجز إذا ارتجس أى اضطرب ، وقرأ ابن عامر منزلون بالتشديد . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ هى حكايتها الشائعة أو آثار الديار الخربة ، وقيل الحجارة المطرة فإنها كانت باقية بعد وقيل : بقية أنهارها المسودة . ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار ، وهو متعلق بتركنا أو آية .

قصة شعيب وقومه

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ وافعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب ، وقيل إنه من الرجاء بمعنى الخوف . ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب ترجف لها . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ في بلدهم أو دورهم ولم يجمع لأمن اللبس . ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين .

قصة عاد وثمود

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ منصوبان بإضمار اذكر أو فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكنا، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب وثمود غير منصرف على تأويل القبيلة . ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ أي تبين لكم بعض مساكنهم ، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ السوي الذي بينه الرسل لهم . ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظروالاستبصار ولكنهم لم يفعلوا ، أو متبينين أن العذاب لا حق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجوا حتى هلكوا .

قصة فرعون وقارون وهامان

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ معطوف على عاداً وتقديم قارون لشرف نسبه . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته .

الآيات من ٤٠ : ٤٤

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾

﴿ فَكُلاًّ ﴾ من المذكورين . ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ عاقبناه بذنبه . ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ ريحاً عاصفا فيها حصباء ، أو ملكاً رماهم بها كقوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ كقارون . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته عز جل . ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالتعرض للعذاب .

من أمثلة القرآن الصادقة المثيرة للعبرة

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً . ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ فيما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما ، أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثلها بالإضافة إلى رجل بني بيتاً من حجر وجص ، والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ،

والتاء فيه كتاء طاغوت ويجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب .
﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه .

* الإعجاز العلمي

إن الإعجاز العلمي في هذه الآية يتجلى بأجلى معانيه في لفظة (اتخذت) بصيغة الفعل المؤنث . . وهي إشارة علمية في غاية الدقة للدلالة على أن ما يقوم ببناء بيوت العناكب هي الأنثى منه ، وأن الذكر من العناكب لا شأن له بذلك . . وهذه حقيقة ما كان أحد مطلقا يفطن إليها وقت نزول القرآن . . ولكن لما اشتغل علماء الأحياء حديثا بدراسة الحشرات ، ووضعوا في دراستها علماً قائماً بذاته ، تبينت لهم حقائق مذهلة عن الحشرات التي تبلغ مئات الآلاف في أنواعها . . وأن كل نوع منها يتميز بأشكاله وأحجامه ، وألوانه وطبائعه وغرائزه المميزة له عما سواه .

ففي الآية رقم ٤١ من سورة العنكبوت يقول الله تعالى : ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت ... ﴾ ونلاحظ أن الله تعالى قد ذكر بعد اسم «العنكبوت» المذكر صيغة مؤنثة حيث قال تعالى ﴿ اتخذت بيتا ﴾ .

إلا أن عالمنا المدقق الدكتور البمبي استاذ وقاية النبات بزراعة عين شمس يرى أنه ليس هناك أي وجه للاستغراب ، فالخالق جل وعلا أعلم بمن خلق .. فلقد ثبت في العصر الحديث بعد دراسات مستفيضة لعالم الحشرات وطبيعة العنكبوت أن ذكر العنكبوت لا يستطيع أن يبني بيتا ، والتي تبني البيت هي أنثى العنكبوت من خلال مغزل خاص موجود في نهاية بطنها ولا يوجد مثله عند الذكر .

لو صحت لغويا لكانت خطأ علميا :

ومن هنا يتضح أنه لو قال تعالى (كمثل العنكبوت يبني بيتا) لكان خطأ علميا لا يمكن أن يصدر عن خالق العنكبوت وخالق الكون كله . . وبالطبع لن يغفره المتفلسفون المفكرون من أهل القرن العشرين . . وستكون فرصا للطعن في صدق الرسالة وأنه من عند الله الخبير العليم ، ولعلها تكون حجة لكل ذي عقل وتثبيتا لمن في قلوبهم شك منه .

وربما يقول قائل : ولماذا لم تقل الآية (كمثل أنثى العنكبوت تبني بيتا) حتى يصح لغويا ولا يؤدي إلى هذا اللبث في العصور السابقة على هذا الكشف .

لو حدث ذلك أولا سوف لا يكون في الآية إعجاز في القرن العشرين . وثانيا لن يصبح المثل الذي أراد أن يضربه الله تعالى صحيحا . . لماذا ؟!

يفسر لنا ذلك الاستاذ الدكتور البمبي بأن بيت العنكبوت بالنسبة للأنثي هو بيت أمن يتحقق فيه الاسترخاء ويوفر الغذاء والأمان لأن هذه الخيوط منسوجة بتداخلات فنية

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك ، ويجوز أن يكون المراد ببيت العنكبوت دينهم سماه به تحقيقًا للتمثيل فيكون

* الإعجاز العلمي

وهندسية خاصة بحيث تجعلها شديدة الحساسية لأية اهتزازات خارجية فتعمل على تنبيه العنكبوتة وتحذيرها في اللحظة المناسبة لتؤمن نفسها من أعدائها كما أن تلك الخيوط بها مادة لزجة بحيث تلتصق بها أية حشرة بمجرد مرورها بالقرب منها وتعمل الخيوط على تكبيل الحشرة فتنقض عليها أنثى العنكبوت فالبيوت توفر للأنثى التي تبنيها الحماية والطعام والأمان .

أمان خادع :

أما بالنسبة لذكر العنكبوت فالأمر يختلف . . لماذا عندما تضع الأنثى بيضها تتركه في مكان آمن بحيث يخرج الصغار ذكورا وإناثا يبحثون عن طعامهم بغير بيوت ولا خيوط . وعندما تبلغ الأنثى وتستعد للزواج تبدأ في بناء بيتها من الخيوط التي تجذب الذكر غير القادر على البناء . . وبعدما يتم التزاوج تنقض الأنثى على الذكر فتأكله ! . . وهذا الأكل لا بد أن يتم حيث أن أنسجة الذكر مهمة في عملية إنضاج البيض .

ومن هنا يتضح مدى وهن البيت الذي تصور العنكبوت أنه بيت أمن له ، حيث كان فيه نهايته وحتفه ،وكانت القراءة العابرة للآية توحي بأن المقصود بالوهن هو ضعف ورقة الخيوط ولكن المغزى كان أعمق وأدق من مجرد الخيوط الضعيفة . فالوهن والضعف يرجع إلى أهداف وأغراض المحتمى ببيته التي يوحي ظاهرها الحسن بغير حقيقتها القاتلة ولولا استعمال اللفظ المؤنث في كلمة « اتخذت» بعد كلمة «العنكبوت» في لفظ أنظارنا إلى أن المقصود بوهن بيته ، هو الذكر وليس الأنثى بانية البيت وهذا المثل والتشبيه يجسد لنا مدى ضلال وضياع الذين يتخذون من دون الله أولياء . . فمصيرهم أن يستنفد هؤلاء الأولياء من دون الله منهم حاجتهم ثم ينقضون عليهم يضيعونهم ويهلكونهم .

ولعل هذا التفسير العلمي الحديث يوحي لنا بتفسيرات أكثر ثراء لقوله تعالى في نهاية الآيــة ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ حيث إنه ليس من الصعوبة لأي مشاهد عادي أن يعرف ويعلم أن بيت العنكبوت وهن بخيوطه الدقيقة ، فلماذا كان الاستفهام الاستنكاري في أخر الآية .

فعموم الناس لا يعلمون السبب الحقيقي وراء وهن بيت العنكبوت ، وإنه شرك وليس مأوي خاصة أن الله تعالى يقول في آخر الآيات ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

المعنى : وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعمل ، وقرأ البصريان بالياء حملاً على ما قبله وما استفهامية منصوبة بتدعون ويعلم معلقة عنها ومن للتبين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول تدعون أو مصدرية وشئ مصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول تدعون عائدها المحذوف ، والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل وعلى الأخيرين وعيد لهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئًا بمن هذا شأنه ، وأن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم ، وأن من هذا وصفه قادر على مجازاتهم .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ ﴾ يعني هذا المثل ونظائره . ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريبًا لما بعد من أفهامهم . ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ ولا يعقل حسنها وفائدتها . ﴿ إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي . وعنه ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ محقا غير قاصد به باطلاً ، فإن المقصود بالذات من خلقها إفادة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

الآيات ٤٥ : ٥٠

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إلاَّ الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

الأمر بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة ومداومة الذكر

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ تقربًا إلى الله تعالى بقراءته وتحفظًا لألفاظه واستكشافًا لمعانيه ، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه . ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ بأن تكون سببًا للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بهاوغيرها من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه . روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ارتكبه ، فوصف له عليه السلام فقال : « إن صلاته ستنهاه » فلم يلبث أن تاب . ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، أو لذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة .

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح ، وقيل : هو منسوخ بآية السيف إذ لا مجادلة أشد منه وجوابه أنه آخر الدواء ، وقيل المراد به ذو العهد منهم . ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم ﴿ يد الله مغلولة ﴾ (١١) أو بنبذ العهد ومنع الجزية . ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن . وعن النبي ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقا لم تكذبوهم » (١٢) . ﴿ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

---

(١١) المائدة : ٦٤ .

(١٢) أخرجه أبو داود في سننه ، وابن حبان في سننه ، وأحمد في مسنده ، وأخرجه كذلك

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله .

﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ ومثل ذلك الإنزال . ﴿ **أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** ﴾ وحيًا مصدقًا لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله ﴿ **فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ هم عبد الله بن سلام وأضرابه ، أو من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب . ﴿ **وَمِنْ هَؤُلاءِ** ﴾ ومن العرب أو أهل مكة أو ممن في عهد الرسول من أهل الكتابين. ﴿ **مَن يُؤْمِنُ بِهِ** ﴾ بالقرآن . ﴿ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا** ﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها . ﴿ **إِلاَّ الْكَافِرُونَ** ﴾ إلا المتوغلون في الكفر فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمل بما يقيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول ﷺ كما أشار إليه بقوله :

أمية النبي ﷺ ومعجزة القرآن

﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة ، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ونفي للتجوز في الإسناد . ﴿ **إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ أي لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين ، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المكاثرة ، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر . ﴿ **بَلْ هُوَ** ﴾ بل القرآن .

﴿ **آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه . ﴿ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ﴾ المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها حتي لم يعتدوا بها .

تعنتهم في طلب الآيات المادية

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة

إسحاق وابن أبي شيبةوأبو يعلي والطبراني من طريق الزهري ، قال أخبرني ابن أبي نملة أن أباه أبا نملة الأنصاري حدثه بذلك .

عيسى ، وقرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص آيات . ﴿ **قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ ينزلها كما يشاء لست أملكها فآتيكم بما تقترحونه . ﴿ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات .

الآيات من ٥١ : ٥٧

﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)** ﴾

﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ** ﴾ آية مغنية عما اقترحوه . ﴿ **أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل بخلاف سائر الآيات ، أو يتلى عليهم يعني اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك . ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ** ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة . ﴿ **لَرَحْمَةً** ﴾ لنعمة عظيمة . ﴿ **وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ وتذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت . وقيل إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتب كتب فيها بعض ما يقول اليهود ، فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت .

﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا** ﴾ بصدقي وقد صدقني بالمعجزات ، أو بتبليغي ما أرسلت به إليكم ونصحي ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعنت . ﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ فلا يخفي عليه حالي وحالكم . ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا**

بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يعبد من دون الله . ﴿ **وَكَفَرُوا بِاللَّهِ**﴾ منكم . ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

استعجالهم العذاب

﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ** ﴾ بقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء . ﴿ **وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى** ﴾ لكل عذاب أو قوم . ﴿ **لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ** ﴾ عاجلاً . ﴿ **وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً** ﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم . ﴿ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ بإتيانه .

﴿ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب ، أو هي كالمحيطة بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم، واللام للعهد على وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على موجب الإحاطة ، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم .

﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ** ﴾ ظرف لمحيطة أو مقدرة مثل كان كيت وكيت . ﴿ **مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾ من جميع جوانبهم . ﴿ **وَيَقُولُ** ﴾ الله أو بعض ملائكته بأمره لقراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالنون . ﴿ **ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ أي جزاءه

وجوب الهجرة من دار الكفر والطغيان

﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ أي إذا لم يتسهل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك ، وعنه ﷺ : « **من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام** » (١٣) . والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها .

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ تناله لا محالة . ﴿ **ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ للجزاء ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له وقرأ أبو بكر بالياء .

(١٣) أخرجه الثعلبي من مرسل الإمام الحسن . وقد رواه الزمخشري في الكشاف بدون إسناد، وقد علق عليه الحافظ ابن حجر بما ذكرناه .

الآيات من ٥٨ : ٦٤

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ لننزلنهم . ﴿ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ علالي، وقرأ حمزة والكسائي لنثوينهم أي لنقيمنهم من الثواء فيكون انتصاب غرفا لإجرائه مجرى لننزلنهم ، أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم . ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ وقرئ فنعم والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ولا يتوكلون إلا علي الله .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره ، وإنما تصبح ولا معيشة عندها . ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله ، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ، فإنهم لما أمروا بالهجرة قال بعضهم كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لقولكم هذا . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بضميركم (١٤) .

---

(١٤) ذكره السيوطي في أسباب النزول : أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض

المشركون يعترفون بالله ويشركون معه غيره

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ المسئول عنهم أهل مكة . ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾لماتقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود . ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على أن البسط والقبض على التعاقب وألا يكون على وضع الضمير موضع من يشاء وإبهامه لأن من يشاء مبهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما عصمك من مثل هذه الضلالة ، أو على تصديقك وإظهار حجتك . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم ، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم .

حقارة الدنيا

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ إشارة تحقير وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة . ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾لهي

حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لي : يا بن عمر مالك لا تأكل ؟ قلت : لا أشتهيه . قال : لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسري وقيصر ، فكيف بك يا بن عمر إذا لقيت قوما يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ : إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكثر دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد . ـ لباب النقول ـ .

دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت عليها ، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة ، والحيوان مصدر حي سمي به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ها هنا . ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لم يوثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال .

الآيات من ٦٥ : ٦٩

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وصفوا به من الشرك فإذا ركبوا البحر . ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجئوا المعاودة إلى الشرك .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة . ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها، أو لام الأمر على التهديد ويؤيده قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع وليتمتعوا بالسكون . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون .

منّةُ الله على قريش وجحودهم لهذه المنة

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعني أهل مكة . ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ أي جعلنا بلدهم مصونًا عن النهب والتعدي آمنًا أهله عن القتل والسبي . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ

حَوْلِهِمْ﴾ يختلسون قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب . **﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾** أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان . **﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾** حيث أشركوا به غيره وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن زعم أن له شريكًا . **﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾** يعني الرسول أو الكتاب ، وفي لمّا تسفيه لهم بأن لم يتواقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه . **﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾** تقرير لثوائهم كقوله : ألستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا أي ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب ، أو لاجترائهم أي ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتي اجترءوا مثل هذه الجراءة .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ في حقنا وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه . **﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾** سبل السير إلينا والوصول إلي جنابنا ، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى : **﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى﴾** (١٥) وفي الحديث « **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم** » . **﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** بالنصر والإعانة .

فضل سورة العنكبوت

قال رسول الله ﷺ « **من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين**» (١٦) .

---

(١٥) محمد : ١٧ .

(١٦) رواه الزمخشري في تفسيره الكشاف بدون إسناد ، وعلق عليه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بقوله : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه .

(٣٠) سورة الروم مكية
إلا قوله فسبحان الله الآية (١)
وآياتها ستون أو تسع وخمسون آية
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾
الآيات من ١ : ٦

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

سبب نزول هذه السورة

﴿ الٓمٓ ﴾

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم ، أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة . ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وقرئ غلبهم وهو لغة كالجلب والجلب . ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى . وقيل بالجزيرة وهي أدنى أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم فنزلت ، فقال لهم أبو بكر : لا يقرن الله أعينكم فوالله لتظهر الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبي بن خلف : كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك(٢) عليه ، فناحبه على عشر قلائص من

---

(١) في تفسيري الكشاف وابن كثير نزلت بعد سورة الانشقاق وهي ستون آية .

(٢) أناحبك : أراهنك .

كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع . فزَايدَه في الخطر ومادَّه في الأجل ، فجعلاه مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أُبَيٌّ من جرح رسول الله ﷺ بعد قفوله من أحد ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية فأخذ أبو بكر الخطر(٣) من ورثة أبيّ ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : تصدق به .

---

(٣) الخطر : الرهن .

* الإعجاز العلمى

تعتبر سورة «الروم» من سور القرآن الذي أراد فيها الحق سبحانه وتعالى أن يلفت أنظارنا إلى عظيم قدرته وحسن تدبيره في شئون خلقه وبدأت أول الآيات بإخبار المسلمين بأمر من أمور الغيب التي سوف تحدث بعد بضع سنين وفيها إظهار أن الله وحده هو المتصرف في شئون هذا الكون .

وفي هذه الآيات يبشر الله المؤمنين بأن الروم سوف ينتصرون ويفرح بنصرهم المؤمنون يومئذ ، فمن يستطيع أن يتنبأ بموازين القوى ومقدرات الأمور غير الله وحده خالق كل شيء مع أن الروم أثناء نزول هذه الآيات كانت مهزومة .

ثم تنقلنا الآيات الكريمة عبر سورة الروم في تنسيق بلاغي معجز وتحدثنا عن علوم كونية مختلفة ومتعددة لتقرع بها رءوس الكفار والمعانيد .

ففي الآية رقم (٨) يطالبنا المولى سبحانه وتعالى بالتفكر في أنفسنا وفي خلق السموات والأرض .

وفي الآية رقم (٢٠) يذكرنا بأنه سبحانه وتعالى خلقنا من تراب .

وفي الآية رقم (٢١) يحدثنا عن عظيم المودة والرحمة التي جعلها بيننا وبين أزواجنا .

وفي الآية (٢٢) يلفت أنظارنا إلى اختلاف ألسنتنا وألواننا رغم أن الأب واحد وهو آدم .

وفي الآية (٢٣) يطالبنا بالتطلع إلى الكون حولنا من آيات تمر علينا كل يوم من منام بالليل وسعي في النهار .

وفي الآية (٢٤) يحدثنا عن علوم الفضاء ،والأرصاد الجوية والزراعة والنبات .

وفي الآية (٤٦) يلفت أنظارنا إلى علوم الفلك والبحار .

وفي ا لآية رقم (٥٤) يحدثنا عن تطورحياة الإنسان بداية من ضعف طفولته إلى قوة شبابه ثم إلى ضعف شيبته .

*** فسبحان الله الذي خلق كل هذا ودبر كل أمر وقدر كل شيء سبحان الله العظيم .**

واستدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب ، وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار ، والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب .

وقرئ غلبت بالفتح وسيغلبون بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام والمسلمون سيغلبونهم ، وفي السنة التاسعة من نزوله غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم ، وعلى هذا تكون إضافة الغلب إلى الفاعل . ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ من قَبْل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي له الأمر حين غلبوا وحين يغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه ، وقرئ من قبل ومن بعد من غير تقدير مضاف إليه كأنه قيل قبلاً وبعداً أي أولاً وآخراً . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ ويوم تغلب الروم . ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ من له كتاب على من لا كتاب له لما فيه من انقلاب التفاؤل وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم ، وقيل : بنصر الله المؤمنين بإظهار صدقهم أو بأن ولى بعض أعدائهم بعضا حتى تفانوا . ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ينتقم من عباده بالنصر عليهم تارة ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى .

﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله في معني الوعد . ﴿ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الكذب عليه تعالى . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم .

الآيات من ٧ : ١٠

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها . ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ ﴾ التي هي غايتها والمقصود منها . ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ لا تخطر ببالهم ، وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره و الجملة خبر الأولى ، وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة المبدلة من قوله : لا يعلمون تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها ، فإن من العلم بظاهرها معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً ، وأما باطنها فإنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا .

الحث على استعمال العقل والتفكير للهداية إلى الله

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ أو لم يحدثوا التفكر فيها ، أو أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومرآة يجتلي فيها للمستبصر ما يجتلي له في الممكنات بأسرها ليتحقق لهم قدرة مبدعها على إعادتها مثل قدرته على إبدائها . ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بقول أو علم محذوف يدل عليه الكلام . ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده . ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بلقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة . ﴿ لَكَافِرُونَ ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون . .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تقرير لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدمَّرين قبلهم . ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ كعاد وثمود . ﴿ وَأَثَارُوا الأَرْضَ ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها . ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ وعمروا الأرض . ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ من عمارة أهل مكة إياها فإنهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في

غيرها ، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ملجئون إلى دار لا نفع لها . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ . ليفعل بهم ما تفعل الظلمة فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عملوا ما أدى إلى تدميرهم.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العاقبة السوأي أو الخصلة السوأي ، فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم وأنهم جاءوا بمثل أفعالهم ، والسوأي تأنيث الأسوأ كالحسني أو مصدر كالبشرى نعت به . ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان للسوأي ، أو خبر كان والسوأي مصدر أساءوا أو مفعوله بمعنى ، ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله واستهزءوا بها ، ويجوز أن تكون السوأي صلة الفعل وأن كذبوا تابعها والخبر محذوف للإبهام والتهويل ، وأن تكون أن مفسرة لأن الإساءة إذا كانت مفسرة بالتكذيب والاستهزاء كانت متضمنة معنى القول ، وقرأ ابن عامر والكوفيون عاقبة بالنصب على أن الاسم السوأي وأن كذبوا على الوجوه المذكورة .

الآيات من ١١ : ١٩

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

حديث عن البعث وحال الكفار فيه

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ ينشئهم . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يبعثهم . ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ يسكتون متحيرين آيسين ، يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وآيس من أن يحتج ومنه الناقة المِبْلاس التي لا ترغو ، وقرئ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ ﴾ ممن أشركوهم بالله . ﴿ شُفَعَاءُ ﴾ يجيروهم من عذاب الله ، ومجيئه بلفظ الماضي لتحققه . ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم ، وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم وكتب في المصحف شفعوا وعلمواء بني إسرائيل بالواو وكذا السوأي بالألف إثباتات للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي المؤمنون والكافرون لقوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار . ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يسرون سروراً تهلل له وجوههم .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه .

تسبيح الله وتحميده لنفسه

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ إخبار في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته ، أو دلالة على أن ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزهه واستحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهل السموات والأرض ، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر ، وتخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار ، من عشى العين إذا نقص نورها ، والظهيرة التي هي وسطه لأن تجدد النعم فيهما أكثر ، ويجوز أن يكون عشياً معطوفاً على حين تمسون وقوله

﴿ **وله الحمد في السموات والأرض** ﴾ اعتراضا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما :أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء ، وتصبحون صلاة الفجر ، وعشيا صلاة العصر ، وتظهرون صلاة الظهر . ولذلك زعم الحسن أنها مدنية لأنه كان يقول كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقتا وإنما فَرْضُه الخمس بالمدينة ، والأكثر على أنها فرضت بمكة . وعنه عليه الصلاة والسلام : « **من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون الآية** » (٤) وعنه ﷺ : « **من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في ليلته ، ومن قاله حين يمسى أدرك ما فاته في يومه** » (٥) وقرئ حيناً تمسون وحيناً تصبحون أي تمسون فيه وتصبحون فيه .

﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة . ﴿ **وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** ﴾ كالنطفة والبيضة ، أو يعقب الحياة الموت وبالعكس. ﴿ **وَيُحْيِي الأَرْضَ** ﴾ بالنبات . ﴿ **بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ يبسها . ﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ ومثل ذلك الإخراج . ﴿ **تُخْرَجُونَ** ﴾ من قبوركم فإنه أيضا تعقيب الحياة الموت ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء .

الآيات من ٢٠ : ٢٢

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)** ﴾

من آيات الله الدالة على قدرته

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ** ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه. ﴿ **ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾ ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض .

---

(٤) أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، والعقيلي ، وابن عدي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، وقال البخاري : لا يصح .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم وسائر النساء خلقن من نطف الرجال ، أو لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر . ﴿ لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ لتميلوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسية علة للضم والاختلاف سبب للتنافر . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي بين الرجال والنساء ، أو بين أفراد الجنس . ﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها به خلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش ، أو بأن تعيش الإنسان متوقف على التعارف والتعاون المحوج إلى التواد والتراحم ، وقيل : المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كقوله تعالى : ﴿ ورحمة منا ﴾(٦) . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحكم (٧) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لغاتكم بأن علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها ، أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية . ﴿ وَأَلْوَانِكُم ﴾ بياض الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها ، وحلاها بحيث وقع التمايز والتعارف

(٦) مريم : ٢١ .

(٧) لعل في كون الزواج من آيات الله أنه لا يمكن أن يتم زواج بين اثنين إلا بقدرة الله تعالى وأن التاليف بين قلبي الزوجين إنما يتم بقدرته تعالي : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ﴾ وكم حاول كثير من الناس أن يربطوا بين اثنين برابطة الزواج ولكنهم فشلوا لأن الله تعالى لا يريد ذلك . وقد فسخت عقود للزوجية في ليلة الزفاف وحكم على الزواج بالإعدام مما يشير إلى أن هذا الأمر لا يمكن أن يتم إلا بقدرة الله تعالى.
وما يدل أيضاً على أن الزواج يتم بقدرة الله تعالى لا بتدبير الناس واجتهاده من ـ وإن كان ذلك سببا في إتمام الزواج ـ أن الله قد يجمع بالزواج بين المتنافرين ، فكم من عربي تزوج من أعجمية ، وبالعكس ، وكم من غريب اللسان تزوج من غريبة اللسان وبالعكس ، وكم من رجل تزوج من امرأة بين أسرتيهما شقاق وخصام وثارات وإحن وأحقاد .
وقد رفع الله بالزواج كل قيد بين الزوجين فمن الممكن أن يطلع الزوج من زوجته على ما لا يمكن أن يطلع عليه أقرب الناس إليها من أب أو أخ . . فهل كان ذلك إلا بفعل الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟

حتي أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شئ من ذلك لا محالة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ لا تكاد تخفي علي عاقل من ملك أو إنس أو جن ، وقرأ حفص بكسر اللام ويؤيده قوله ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٨) .

الآيات من ٢٣ : ٢٧

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوي النفسانية وتقوي القوي الطبيعية وطلب معاشكم فيهما ، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار ، فَلَفَّ وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعارا بأن كلا من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ مقدر بأن المصدرية كقوله :

أَلا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضَرَ الوَغَى وأن أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخلدِى(٩)

---

(٨) العنكبوت : ٤٣ . وليس المقصود باختلاف الألسنة اختلاف اللغة فقط ، بل المقصود أختلاف النبرة ، فلكل إنسان مهما كثرت أفراده نبرة معينة خاصة به ، ويندر أن تجد اثنين يتفقان في نبرة الصوت ولهجته تفخيما وترقيقا وأداء . وهذا من بديع قدرة الله تعالى .

(٩) البيت لطرفة بن العبد من معلقته والشاهد فيه نصب الفعل (أحضر) بأن المصدرية

أو الفعل فيه منزلة المصدر كقولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه (١٠) ، أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق كقوله :

فَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَان فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ (١١)

﴿ **خَوْفًا** ﴾ من الصاعقة للمسافر . ﴿ **وَطَمَعًا** ﴾ في الغيث للمقيم ، ونصبهما علي العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم تستلزم رؤيتهم أوله علي تقدير مضاف نحو إرادة خوف وطمع ، أو تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغما للشياطين ، أو علي الحال مثل كلمته شِفَاهًا (١٢) . ﴿ **وينَزِّلُ مِنَ**

المقدرة أي ان أحضر الوغي .

(١٠) مثل مشهور والتقدير فيه : أن تسمع ، والمصدر المؤول من أن المقدرة والفعل مبتدأ . خبره : خيرٌ ، كأنك تقول : سماعك بالمعيدي خير .

(١١) تارتان : التارة المدة والحين .

والشاهد فيه أن منهما صفة لمحذوف تقديره : تارةٌ منهما

ومعنى البيت : أن الدهر حالتان حالة ينام فيها الإنسان وهي فترة النوم ، وحالة يكون فيها يقظًا يكدح في سبيل الحياة وابتغاء العيش .

(١٢) تعليق العلماء المحدثين على ظاهرة الرعد والبرق .

يرى العلم الحديث أن البرق هو عبارة عن وميض الضوء الذي يحدث نتيجة عمليات الشحن الكهربي في الغلاف الجوي .

أما الرعد فهو عبارة عن الصوت الذي يحدث نتيجة للتمدد الفجائى للهواء بفعل الحرارة الشديدة الفجائية الناجمة عن حدوث البرق ، فقد أكدت الدراسات « الميترورولوجية » الحديثة أن سحب المزن الركامي عبارة عن مولد كهربي ثابت ، لها القدرة على بناء ملايين من وحدات الجهد الكهربي (ڤولت) خلال وقت قصير ، فعند انقسام ذرات مياه الأمطار تكتسب الذرات المنفصلة عن الذرات المائية الأصلية شحنات موجبة ، في حين تبقى الذرات المائية الأصلية بشحناتها السالبة والتي تتساوي في مقدارها مع الشحنات الموجبة ، ومن ثم تتمثل معظم الشحنات الموجبة في القسم الأسفل من سحب المزن الركامي ، أما في القسم الأعلى منها وعند مستوى نقطة الندى فإن تساقط حبات الثلج يكسب البلورات الثلجية شحنات سالبة ، ويشحن الهواء المحيط بها بشحنات سالبة ، وعند صعود الهواء الساخن إلى أعلى فإنه يحمل معه الشحنات الموجبة إلى أعالى المزن

﴿ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وقرئ بالتشديد . ﴿ فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ ﴾ بالنبات . ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيزيهما المعينين من غير مقيم محسوس ، والتعبير بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغني عن الآلة ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ عطف علي أن تقوم علي تأويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فيقول أيها الموتي اخرجوا ، والمراد تشبيه سرعة ترتب حصول ذلك علي تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلي تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع علي دعائه ، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلق بدعا كقولك : دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي ، لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها ، وإذا الثانية للمفاجاة ولذلك نابت مناب الفاء في جواب الأولي .

الركامي، ونتيجة لاصطدام الشحنات الموجبة مع الهواء الصاعد بالشحنات السالبة المتمثلة عند أعالى السحابة يحدث التفرغي الهوائي داخل هذه السحب ويتكون البرق والرعد .
والبرق عبارة عن شحنات كهربائية مباشرة متوالية تبلغ المدة الزمنية للشحنة الواحدة منها ٠٠٠٢ر٠ من الثانية ، وتتراوح شدة تياره من بضعة آلاف إلى نحو ١٠٠٫٠٠٠ أمبير ، ومتوسط الجهد الكهربي نحو ١٠٠ الف ڤولت ، ويتخذ وميض البرق أشكالا متعددة ، فقد يكون شوكي المظهر ، أو متعرج الامتداد ، أو مخططا أو مقلما أو صفائحيا ، وقد يكون وميص البرق على شكل كرات ضوئية كبيرة الحجم .
ويتضح أن البرق والرعد يحدثان في وقت واحد تقريبا بفعل التفريغ الكهربي داخل سحب المزن الركامي ، ولكن لما كانت سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وسرعة الصوت في الهواء ٣٣٠ مترا في الثانية ، وإن سرعة سقوط المطر دون ذلك بكثير ، فإن المشاهد لهذا النوع من العواصف يرى البرق أولا ثم يسمع الرعد ثانيا ، وبعدها بقليل يستقبل هطول المطر . .
من كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم جـ ٢ ص ٢٣١ ، د. حسن أبو العينين ـ أفلا يدل ذلك على قدرة الله العلي العظيم ؟؟

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُون ﴾ منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عنه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد هلاكهم . ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه ﴾ والإعادة أسهل عليه من الأصل بالإضافة إلي قدركم والقياس علي أصولكم، وإلا فهما عليه سواء ولذلك قيل الهاء للخلق ، وقيل أهون بمعني هين وتذكير هو لأهون أو لأن الإعادة بمعني أن يعيد . ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ ﴾ الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة، ومن فسره بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية . ﴿ الأَعْلَى ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يصفه به ما فيها دلالة ونطقا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيز ﴾ القادر الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته .

﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يجري الأفعال علي مقتضي حكمته .

الآيات من ٢٨ :٣٥

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) ﴾

مثل للمشركين ليقتنعوا

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الأمور

إليكم . ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ من مماليككم . ﴿ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من الأموال وغيرها . ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه شرعا يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها معارة لكم ، ومن الأولي للابتداء والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجري النفي . ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ أن يستبدوا بتصرف فيه . ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك التفصيل .﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ نبينها فإن التفصيل مما يكشف المعاني ويوضحها . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالإشراك . ﴿ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جاهلين لا يكفهم شئ فإن العالم إذا اتبع هواه ربما ردعه علمه . ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ فمن يقدر علي هدايته . ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتها .

دعوة إلي الاستمرار في الدعوة الحنيفية

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ فقومه له غير ملتفت أو ملتفت عنه ، وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتما م به . ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ خلقته نصب علي الإغراء أو المصدر لما دل عليه ما بعدها . ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١٣) خلقهم عليها وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه ، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدي بهم إليها ، وقيل العهد المأخوذ من آدم وذريته . ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ لا يقدر أحد يغيره أو ما ينبغي أن يغير . ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلي الدين المأمور

---

(١٣) جاء في الآثار الشريفة : روي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ورواه مسلم .

وذكر ابن كثير في تفسيره قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فاحتالتهم الشياطين عن دينهم » .

بإقامة الوجه له أو الفطرة إن فسرت بالملة . ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه . ﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ استقامته لعدم تدبرهم .

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد مرة ، وقيل : منقطعين إليه من الناب وهو حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لأن الآية خطاب للرسول ﷺ والأمة لقوله : ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ولا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ غير أنها صدرت بخطاب الرسول ﷺ تعظيما له .

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ بدل من المشركين وتفريقهم اختلافهم فيما يعبدونه علي اختلاف أهوائهم ، وقرأ حمزة والكسائي فارقوا بمعني تركوا دينهم الذي أمروا به . ﴿ وكَانُوا شِيَعًا ﴾ فرقا تشايع كل إمامها الذي أضل دينها . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون ظنا بأنه الحق ، ويجوز أن يجعل فرحون صفة كل علي أن الخبر من الذين فرقوا .

الكفار يلجأون إلي الله في الضر وينسونه في الرخاء

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شدة . ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين من دعاء غيره . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصا من تلك الشدة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعني التهديد لقوله : ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ غير أنه التفت فيه مبالغة وقرئ وليتمتعوا . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم ، وقرئ بالياء التحتية علي أن تمتعوا ماض .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة وقيل ذا سلطان أي ملكا معه برهان . ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلم دلالة كقوله ﴿ كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ (١٤) أو نطق . ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكهم وصحته ، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته .

---

(١٤) الجاثية : ٢٩ .

الآيات من ٣٦ : ٤٠

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمة من صحة وسعة . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ بطروا بسببها . ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم. ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجئوا القنوط من رحمته وقرأ الكسائي وأبو عمرو بكسر النون .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها علي كمال القدرة والحكمة .

من آداب الإسلام الرفيعة

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ كصلة الرحم ، واحتج به الحنفية علي وجوب النفقة للمحارم وهو غير مشعر به . ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ما وظف لهما من الزكاة، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لمن بسط له ولذلك رتب علي ما قبله بالفاء . ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ذاته أو جهته أي يقصدون بمعروفهم إياه خالصا ، أو جهة التقرب إليه لا جهة أخري . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم .

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ زيادة محرمة في المعاملة أو عطية يتوقع بها مزيد مكافاة، وقرأ ابن كثير بالقصر بمعني ما جئتم به من إعطا ربا . ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ

﴿النَّاسِ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم . ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عنده ولا يبارك فيه ، وقرأ نافع ويعقوب لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا . ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصا ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الثواب ، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار ، أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة ، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سنن المقابلة عبارة ونظما للمبالغة ، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفا لحالهم ، أو للتعميم كأنه قال : فمن فعل ذلك فأولئك هم المضعفون ، والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به ، أو فمؤتوه أولئك هم المضعفون .

الله وحده المتفرد بالرزق والإماتة والإحياء

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها مؤكدا بالإنكار علي ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ، ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء فقال : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن تكون الكلمة الموصولة صفة والخبر هل من شركائكم والرابط من ذلكم لأنه بمعني من أفعاله ، ومن الأولي والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء ، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء .

الآيات من ٤١ : ٤٦

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا

يُحبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الله خلق كل شئ صالحا والناس هم الذين يفسدون

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق

* الإعجاز العلمى

من مقال : بقلم محمد عبد القادر الفقي تحت عنوان « ظهر الفساد في البر والبحر » يقول :

مشكلة التلوث :

قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وقال : ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ .

يقرر العلم الحديث أن الإنسان قد أساء استخدام الموارد المتاحة في البيئة ، ولا يزال يمارس هذه الإساءة إلى الآن .

إن مشكلة تلوث البيئة هي واحدة من أكثر المشاكل التي نجمت عن سوء استخدام الإنسان للموارد الطبيعية ، حتي إن البعض اضطر ـ إزاء هذا التصرف غير السوي ـ إلى نعت الإنسان المعاصر بعدة تسميات لا تقل في قسوتها عما فعله الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها . . من هذه التسميات «الوحش المتمدن» . و « المخرب ذو الدماغ الكبير » إلى آخر تلك التسميات .

ومشكلة تلوث البيئة لا تهدد الجنس البشري فحسب ، بل تهدد حياة كل الكائنات الحية والنباتات التي تشاركنا في الوجود علي الأرض ، فالتلوث نوع من أنواع الفساد الذي أشار إليه الله تعالى في كتابه الكريم ، والتي تظهر في البر والبحر على السواء . .

فمن صور الفساد في البر تلوث الأرض الزراعية ، نتيجة لتراكم المواد والمخلفات الصلبة التي تنتج من المصانع والمزارع والمنازل والشوارع ، وغير ذلك من مخلفات . . ومن ناحية أخرى ، فقد أدى الإفراط في استخدام الأسمدة الكيميائية التي يصنعها الإنسان إلى تلوث التربة الزراعية ، بالرغم من أن الغرض الرئيسي من استخدامها هو زيادة إنتاج الأراضي الزراعية .

وترجع خطورة استخدام الأسمدة الكيميائية ـ كما أثبت العلم الحديث ـ إلى أنها تؤدي إلى تغطية التربة الزراعية بطبقة غير مسامية ، خاصة مع الإفراط في استخدامها مما

وأخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار ، أو الضلالة والظلم . وقيل المراد بالبحر قري السواحل وقرئ البحور . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ بشؤم معاصيهم

* الإعجاز العلمي

يؤدي إلى صعوبة تصريف مياة الري أو الأمطار . وهكذا ، فإن ما تصنعه يد الإنسان بهدف التقدم وزيادة الإنتاج ـ كما يظن ـ تكون نتيجته خسارة وفساداً .

« وإذا كانت صورة الفساد الذي يحدث بسبب الاسمدة الكيميائية غير واضحة ومعروفة بالنسبة للكثيرين ، فإن أبشع صورة للفساد يعرفها إنسان هذا الزمان . . هي الفساد الذي يحدث في التربة الزراعية نتيجة لاستخدام المبيدات الحشرية الكيميائية ، التي تستخدم لقتل الآفات الزراعية ، والتي تؤدى إلى تلوث المحصولات الزراعية بمواد كيميائية سامة بعد رشها بها . . وبالإضافة إلى مبيدات الآفات . . فإن مبيدات الأعشاب الضارة لها أيضا آثار ضارة على التربة الزراعية ، خاصة أن هناك بعض الأنواع منها لها صفة الديمومة لفترة طويلة ، مثل مركب حمض البنزويك المكلور الذي يعرف بالرمز (2,3,TBA) والذي قد يستمر وجوده في التربة سنوات عديدة .

وقد أثبتت الدراسات العلمية . . أن استخدام المبيدات الحشرية بكثرة يؤدى إلى الإقلال من إنتاجية التربة الزراعية لبعض المحاصيل الهامة . . ومن الفساد الذي ظهر أيضا في هذا الزمان ظاهرة « الجفاف والتصحر » أي زحف الصحاري على الأراضي الزراعية . . وهي تنتج أساسا بسبب سوء استخدام الإنسان للبيئة مثل الاقتصار على زراعة محصول واحد ، مما يجعل التربة عرضة للانجراف بفعل الرياح والسهول ، كما أن الاستغلال الجائر للمراعي والأراضي الزراعية ، وإزالة الأشجار والغابات ، كل ذلك يؤدي إلى إزالة الغطاء الأخضر الذي يكسو سطح الأرض ، ومن ثم تتحول التربة الزراعية إلى رمال متحركة ، وبالتالي تصبح المراعي والمناطق الزراعية امتدادا جديدا للصحراء التي تزحف بكثبانها الرملية على هذه الأماكن وتحيلها إلى أرض قاحلة .

ومن صور الفساد في البحر . . إلقاء سموم وغازات آلاف المداخن ، وهي تنفث عادم الاحتراق فيها إلى الجو ، ثم تلوث ماء المطر بهذه السموم . . وبالتالي لا يكون نقيا ، وإنما يكون مطراً حامضياً يهلك الحرث والنسل ، ويتلف الأخضر واليابس ويفسد مياه الأنهار والبحار .

كما أن الإنسان لا يفتأ يلقى بنفايات المصانع والمعامل ومحطات التكرير ومخلفات المجاري في المسطحات المائية الجارية ، وهذه النفايات تكون عادة محتوية على كثير من المواد الكيميائية الضارة التي تسبب تسمماً للأسماك والكائنات البحرية .

أو بكسبهم إياه ، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن جلندا ملك عمان كان يأخذ كل سفينة غصبا ،. ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ بعض جزائه فإن تمامه في الآخرة واللام للعلة أو للعاقبة . وعن ابن كثير ويعقوب لنذيقهم بالنون . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ لتشاهدوا مصداق ذلك وتحققوا صدقه . ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ استئناف للدلالة علي أن سوء عاقبتهم كان لفشو الشرك وغلبته فيهم ، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم .

الأمر بالاستقامة

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ البليغ الاستقامة . ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يقدر أن يرده أحد ، وقوله : ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بيأتي ، ويجوز أن يتعلق بمرد لأنه مصدر علي معني لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتصدعون أى يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير كما قال :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وباله وهو النار المؤبدة . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا

* **الإعجاز العلمي**

كما أنها قد تحتوي أيضًا على بعض أنواع البكتريا المسببة للأمراض . . فضلاً عن المواد السامة من المركبات البترولية التي تصل إلى البحار ، فتحول دون إفراز المواد المضادة .

وإذا ازدادت نسبة البكتريا الضارة والملوثات في الوسط البحري . . فإن البحر يصبح مرتعًا للبكتريا ، ومصدرا لانتقال الأمراض للإنسان ، غير الخسائر التي تلحق بالكائنات البحرية وتسممها وهلاكها .

من ذلك كله يتبين لنا الإعجاز القرآني في التشخيص العلمي لكينونة الفساد الذي لحق البرو البحر ، والأضرار الناجمة عن ذلك الفساد . . ليس هذا فحسب . . وإنما في وضعه للعلاج الناجع لهذا الفساد بعدم التدخل في نواميس الكون التي سنّها الخالق العليم .

ولن تستطيع التكنولوجيا المعاصرة توفير سبل التغلب على هذا الفساد ، ما لم تنطلق هذه التكنولوجيا من وجهة نظر إسلامية تتمثل في المحافظة على التوازن الذي وضعه الله لمكونات البيئة ونظمها .

فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ يسوون منزلا في الجنة ، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة علي الاختصاص .

﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ** ﴾ علة ليمهدون أو ليصدعون ، والاقتصار علي جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء علي فحوي قوله : ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين ، وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلي التصريح بهم تعليل له و من فضله دال علي أن الإثابة تفضل محض ، وتأويله بالعطاء أو الزيادة علي الثواب عدول عن الظاهر .

من دلائل قدرة الله تعالي

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ** ﴾ الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدَّبور فريح العذاب ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « **اللهم اجعلها رياحاولا تجعلها ريحا** » وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح علي إرادة الجنس . ﴿ **مُبَشِّرَاتٍ** ﴾ بالمطر ﴿ **وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ** ﴾ يعني المنافع التابعة لها ، . وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها والعطف علي علة محذوفة دل عليها مبشرات أو عليها باعتبار المعني ، أو علي يرسل بإضمار فعل معلل دل عليه . ﴿ **وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ يعني تجارة البحر . ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ ولتشكروا نعمة الله تعالي فيها .

الآيات من ٤٧ : ٥٢

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ**

أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ بالتدمير . ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشعار أن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين علي الله أن ينصرهم ، وعنه عليه الصلاة والسلام «**ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا علي الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك** » . وقد يوقف علي حقا علي أنه متعلق بالانتقام .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ ﴾ متصلا تارة ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ في سمتها . ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ سائرا أو واقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب إلي غير ذلك . ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ قطعا تارة أخري ، وقرأ ابن عامر بالسكون علي أنه مخفف أو جمع كسفة أو مصدر وصف به . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ المطر . ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ في التارتين . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني بلادهم وأراضيهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لمجيء الخصب .

﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ المطر . ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة علي تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ، وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال . ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ لآيسين .

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص . ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وقرئ بالتاء علي إسناده إلي ضمير الرحمة . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ يعني إن الذي قدر علي إحياء الأرض بعد موتها . ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ لقادر علي إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوي الحيوانية ، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوي النباتية ، هذا ومن المحتمل أن يكون من الكائنات الراهنة وما يكون من مواد ما تفتتت وتبددت من جنسها في بعض الأعوام السالفة . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة قدرته إلي جميع الممكنات علي سواء .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ فرأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم ، وقيل السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر واللام موطئة للقسم دخلت علي حرف الشرط وقوله : ﴿ لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال . وهذه الآية ناعية علي الكفار بقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم ، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا علي الله ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم ولا ييأسوا من رحمته ، وأن يبادروا إلي الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولم يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا علي بلائه إذا ضرب زرعهم بالاصفرار ولا يكفروا نعمه .

الكفار كالأموات في عدم السماع

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ وهم مثلهم لما سدوا عن الحق مشاعرهم . ﴿ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة ، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئا ، وقرأ ابن كثير بالياء مفتوحة ورفع الصم .

الآيات من ٥٣ : ٥٧

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ سماهم عميا لفقدهم المقصود الحقيقي من الأبصار أو لعمي قلوبهم ، وقرأ حمزة وحده تهدي العمي . ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ

﴿ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلي تلقي اللفظ وتدبر المعني ، ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان . ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ لما تأمرهم به .

أطوار خلق الإنسان دليل علي قدرة الله

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله ﴿ خلق الإنسان ضعيفا ﴾ (١٥) أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك إذا بلغتم الحلم أو تعلق بأبدانكم الروح . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ إذا أخذ منكم السن ، وفتح عاصم وحمزة الضاد في جميعها والضم أقوي لقول ابن عمر رضي الله عنهما : قرأتها علي رسول الله ﷺ من ضعف فأقرأني من ضُعف . وهما لغتان كالفقر والفُقر والتنكير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من ضعف وقوة وشبيبة وشيبة ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ فإن الترديد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليل العلم والقدرة .

قصر الدنيا وسرعة زوالها

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة وصارت علما لها بالغلبة كالكوكب للزهرة . ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا ﴾ في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم ، وفي الحديث « **ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون** » وهو محتمل الساعات والأيام والأعوام . ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ استقلوا مدة لبثهم إضافة إلي مدة عذابهم في الآخرة أو نسيانا . ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق . ﴿ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون في الدنيا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾ من الملائكة والإنس . ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في علمه أو قضائه ، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوح أو القرآن وهو قوله ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ . ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه . ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ الذي أنكرتموه . ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا

(١٥) النساء : ٢٨ .

﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر ، والفاء لجواب شرط محذوف تقديره : إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه ، أي فقد تبين بطلان إنكاركم .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ وقرأ الكوفيون بالياء لأن المعذرة بمعني العذر ، أو لأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما ، ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يدعون إلي ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فأرضيته .

الآيات من ٥٨ : ٦٠

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾

أمثال القرآن للعظة والتدبر

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ولقد وصفناهم فيه أنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال .، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب ، أو بينا لهم من كل مثل ينبههم علي التوحيد والبعث وصدق الرسول . ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن . ﴿ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم . ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ مزورون .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع . ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون علي خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ علي أذاهم . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بنصرتك وإظهار دينك علي الدين كله . ﴿ حَقٌّ ﴾ لا بد من إنجازه . ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ ولا يحملنك علي الخفة والقلق . ﴿ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وعن يعقوب بتخفيف النون ، وقرئ ولا يستحقنك أي لا يزيغنك فيكونوا أحق بك مع المؤمنين .

فضل سورة الروم

عن رسول الله ﷺ « من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته »[16].

(١٦) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ولم يسنده ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٣١) سورة لقمان مكية [١]
وآياتها أربع وثلاثون

إلا آية وهى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ [٢] فإن وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لأنه لا ينافى شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ [٣] وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل ثلاث وثلاثون.

الآيات من ١ : ٦

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥ ﴾

القرآن هدى ورحمة لمن يتدبر

﴿ الٓمٓ ﴾ .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ سبق بيانه فى يونس .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة ، ورفعهما حمزة على الخبر بعد الخبر أو الخبر المحذوف .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح .

---

(١) في تفسيري ابن كثير و الكشاف : السورة مكية ما عدا الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ فمدنية، ونزلت بعد سورة الصافات .

(٢) لقمان : ٤ .　　(٣) لقمان : ٢٧ .

محاولة الكفار تضليل الناس عن القرآن

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ما يلهى عما يعنى كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتبار بها والمضاحك وفضول الكلام ، والإضافة بمعنى من وهى تبيينية إن أراد بالحديث المنكر وتبعيضية إن أراد به الأعم منه . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة .وقيل : كان يشترى القيان (٤) ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنعه عنه (٥) . ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه أو قراءة كتابه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بمعنى ليثبت على ضلاله ويزيد فيه .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن . ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ويتخذ السبيل سخرية ، وقد نصبه حمزة والكسائى ويعقوب وحفص عطفاً على ليضل . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه .

الآيات من ٧ : ١١

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ

---

(٤) القيان : جمع قَيْنَة وهي الجارية المغنية .

(٥) أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : قال نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية.

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينةوكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا أنطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه . هذا خير ما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . فنزلت .

ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ متكبراً لا يعبأ بها . ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ مشابهاً حاله حال من لم يسمعها . ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ مشابهاً من فى أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع ، والأولى حال من المستكن فى ولى أو فى مستكبراً ، والثانية بدل منها أو حال من المستكن فى لم يسمعها ويجوز أن يكونا استئنافين ، وقرأ نافع فى أذنيه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أعلمه بأن العذاب يحيق به لا محالة وذكر البشارة على التهكم .

جزاء المؤمنين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم والعامل ما تعلق به اللام . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثانى لغيره لأن قوله لهم جنات وعد وليس كل وعد حقاً . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ . الذى لا يغلبه شئ فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته .

من دلائل قدرة الله

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قد سبق فى الرعد . ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً شوامخ . ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهة أن تميد بكم ، فإن تشابه أجزائها يقتضى تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشئ من لوازمه بحيز ووضع معينين . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة وكأنه استدل بذلك على عزته التى هى كمال القدرة ، وحكمته التى هى كمال العلم ، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله :

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ هذا الذى ذكر مخلوقه

فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته ، وماذا نصب بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته فاروني معلق عنه . ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾

* الإعجاز العلمى

من الإعجاز العلمي للآية رقم ١١ من سورة لقمان يحدثنا الدكتور / علاء الدين القوصي أستاذ علم الأدوية بجامعة أسيوط تحت عنوان : « هرمونات الجسم . . دليل إعجاز الخالق » .

وردت كلمة «خلق» ومشتقاتها في القرآن الكريم نحو ٢٥٣ مرة لتشير إلى المعجزة الإلهية في خلق الإنسان والعمليات الحيوية بالغة التعقيد داخل جسمه منذ لحظة تكوينه ثم ولادته إلى لحظة وفاته .

ويضيف : لقد قال الله سبحانه وتعالي : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ ويتساءل الدكتور القوصي : إذا كانت عملية حيوية واحدة تدرس في عشرات السنين تتم فكيف بعملية خلق جسم متكامل تحدث بداخله آلاف من هذه العمليات بهذه الدقة الشديدة ؟

إن العملية الواحدة ـ يضيف الدكتور علاء الدين ـ تحتاج إلى مئات العوامل لإتمامها ما بين كم هائل من السعرات الحرارية لتوفير الطاقة اللازمة لإحداثها ، إلى دقة شديدة في معدل حدوثها . إلى مواد عديدة يقوم الجسم بتصنيعها وإفرازها بمعدل يتناسب مع الظروف داخل الجسم وخارجه ثم إلى تنسيق كامل وسرعة شديدة في الفعل ورد الفعل بين أعضاء وأجهزة الجسم المختلفة . وأي تغيير طفيف ـ بما يعادل كسور الثانية ـ في المعدل الذي تسير به هذه العمليات يؤدي فورا إلى خلل شديد في وظيفة حيوية من وظائف الجسم. ومن الممكن أن يؤدي إلى المرض . بل وإلى الوفاة .

ويوضح الدكتور علاء الدين القوصي أن العلم الحديث توصل إلى أنه لكي تتم هذه العمليات الحيوية فإن الجسم بأعضائه المختلفة يقوم بتصنيع وتخزين وإفراز آلاف المواد الحيوية كالهرمونات والأحماض الأمينية والانزيمات والنوافل العصبية والأدوية الذاتية وغيرها . ويوضح أستاذ علم الأدوية أن العلم الحديث توصل كذلك إلى أن معدل إفراز بعض الهورمونات يزيد وينقص ليس فقط بناء على حاجة الجسم لها بل وطبقا لأوقات اليوم المختلفة ، كما أكد نظرية وجود ساعة بيولوجية دقيقة خلقها الله سبحانه وتعالى بداخل جسم كل منا فهورمون «الكورتيزون » الذي يحتاجه الجسم لمواجهة العديد من المخاطر الداخلية والخارجية يكون في قمة تركيزه بالدم لدى غالبية الناس من السابعة إلى الثامنة صباحا وذلك عندما يقتضي الأمر إعداد الجسم لمواجهة العمل الشاق وظروف الحياة

إضراب عن تبكيتهم إلي التسجيل عليهم بالضلال الذى لا يخفى على ناظر ، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم .

الآيات من ١٢ : ١٦

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

حديث عن لقمان الحكيم

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ يعنى لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن اخت أيوب أو خالته ، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام ، وأخذ منه العلم

* الإعجاز العلمي

المختلفة بينما يصل إلى أدنى مستوى له في المساء عندما تقل حاجة الجسم إليه .

وكذلك الحال بالنسبة لبعض المواد والهرمونات الأخرى التي يزيد إفرازها بعد الأكل أو عند النوم أو عند مواجهة الأخطار كهرمون الأدرينالين .

ويقوم « مايسترو » الجسم وهو الجهاز العصبي المركزي بالتنسيق بين كل العمليات الحيوية التي تحدث فيه . هذا الجهاز الذي يحتوى على بلايين الخلايا العصبية التي لو تجمعت كل الحاسبات الآلية في العالم للتنسيق بين وظائفها لما استطاعت .

ويشير الدكتور القوصى إلى معمل الجسم الذي يحدث بداخله أدق عمليات تصنيع العديد من هذه المواد الحيوية ، وهو «الكبد» هذا المعمل الذي يجري فيه هذا الجسم من التفاعلات الكيميائية الدقيقة التي لاتستطيع أضخم معامل العالم مجتمعة أن تقوم بإجرائها .

وكان يفتى قبل مبعثه ، والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً . والحكمة فى عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها .

ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت فقال : الصمت حكم وقليل فاعله .

وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحت؟ فقال : أصبحت فى يَدَيْ غيري ، فتفكر داود فيه فصعق صعقة .

وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتى بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ، ثم بعد أيام أمره بأن يأتى بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب شئ إذا طابا وأخبث شئ إذا خبثا . ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ لأن اشكر أو أى اشكر فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول . ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه عائد إليها وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ لا يحتاج إلى الشكر . ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد ، أو محمود ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال .

من وصايا لقمان

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ أنعم وأشكم أو ما ثان . ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير إشفاق ، وقرأ ابن كثير هنا وفى يا بنى أقم الصلاة بإسكان الياء ، ومثله البزى فى الأخير وقرأ الباقون فى الثلاثة بكسر الياء . ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم ، ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسماً . ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا ﴾ ذات وهن أو تهن وهنا ﴿ عَلَىٰ

* **الإعجاز العلمى**

من الإعجاز العلمي الآية ١٤ من سورة لقمان من كتاب « خلق الإنسان بين الطب والقرآن » للدكتور / محمد علي الباز تحت عنوان الحمل والرضاعة يقول :

قال الله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا . . حملته أمه كرهًا . . ووضعته كرها . . وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ الأحقاف : ١٥.

وَهْنٍ ﴾ أى تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها والجملة في موضع الحال ، وقرئ بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا . ﴿ وَفِصَالُه

* **الإعجاز العلمي**

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه . . حملته أمه وهنا علي وهن . . وفصاله في عامين ﴾ [لقمان ـ ١٤] .

متى تعرف الأم أنها حامل ؟

ينقلب كيان المرأة بأكمله أثناء الحمل . . ويبدأ الشك يراود الزوجة عندما تغيب عادتها الشهرية (الحيض) . . ويمكن الآن بواسطة فحص البول التأكد من وجود الحمل أو عدمة بعد مضي عشرة أيام فقط على موعد العادة الشهرية . . ذلك لأن انغراز البويضة الملقحة في الرحم ينبه الجسم الأصفر في المبيض ليرسل هرمونه المنمي للحمل وتزيد هذه الهرمونات في الدم وتنزل إلى البول . . وبواسطة فحص بسيط يمكن التأكد من وجود هذه الهرمونات أو عدمها . .

فإذا ما علمت الأم بحملها فإن السعادة تغمرها وخاصة في الحمل الأول ومن المتاعب التي تلاقيها الأم أثناء الحمل

الجهاز الهضمي : يضطرب الجهاز الهضمي في الحمل اضطرابا شديداً . . فيبدأ الحمل عادة الغثيان والقئ وخاصة في الصباح وفي الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل . . كما أن كثيراً من الحوامل يصبن بسوء الهضم . . والحرقان أو اللذع . وتقل الشهية وخاصة في فترات الحمل الأولي . . وتصاب الحامل عادة بالإمساك . . ولذا ينبغي عليها أن تكثر من الخضراوات الطازجة واللبن (الحليب) والعسل . . مع الرياضة الخفيفة التي تنبه الأمعاء .

كما أن الوحم وهو الرغبة الشديدة في بعض الأطعمة أو المواد الغريبة ، يبدأ مع أشهر الحمل الأولى وقد يعلل ذلك بالحاجة إلي بعض المواد التي يحتاجها الجسم .

وتتحسن حالة الجهاز الهضمي عموماً في الشهر الرابع من الحمل كما تتحسن الشهية للطعام . . حتي إذا ما أثقلت الأم بالحمل . . وارتفع الرحم غالبا في البطن ووصل إلى عظم القص تقريباً بدأت المتاعب مرة أخري نتيجة لضغط الرحم على المعدة و الكبد .

القلب والجهاز الدوري : يتحمل القلب أثناء الحمل أعباء إضافية تبلغ ضعف مايتحمله في الحالات العادية . . وعلى القلب أن يؤدي هذا العمل الإضافي دون كلل فإن عليه أن يضخ كمية مضاعفة من الدم تكفي للأم والجنين . . ويبلغ ما يضخه القلب قبل الحمل في معدله ٦٥٠٠ لتر يوميا . أما أثناء الحمل وخاصة في الأشهر الأخيرة منه ، فإن القلب يضخ ١٥٠٠٠ لتر يوميا . .

﴿فِي عَامَيْنِ﴾ وفطامه فى انقضاء عامين وكانت ترضعه فى تلك المدة ، وقرئ وفصله فى عامين وفيه دليل علي أن أقصى مدة الرضاع حولان . ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي

* الإعجاز العلمى

ولكي يقوم القلب بضخ هذه الكمية الزائدة فإن عليه أن يسارع من نبضاته كما أن عليه أن يقوي من ضرباته حتي يضخ في كل ضربة كمية أكبر من المعتاد . . ولذا يكبر حجم القلب قليلاً .

وعادة ما تعاني الحامل من فقر الدم . . وذلك لأن الجنين يأخذ ما يحتاج إليه من الحديد والعناصر الهامة لتكوين دمه من دم أمه . . ولو أدى الأمر إلى أن يجعلها شاحبة هزيلة مصابة بفقر الدم .

ويؤثر فقر الدم بالتالي على القلب . . ويزيد من سرعة الدورة الدموية وقد يؤدي ذلك إلى هبوط القلب وفشله في أداء وظيفته الحيوية .

كذلك تتأثر الدورة الدموية في الحامل . . وتتمدد الأوردة التي تحمل الدم من الأطراف وخاصة من الأقدام والأرجل نتيجة ضغط الرحم على مسار الدم العائد إلى القلب فتمتلئ هذه الأوردة وتتعرج وتعرف عندئذ باسم الدوالي .

كما أن البواسير تكثر في أثناء الحمل . . وسببها نفس سبب الدوالي في السيقان بالإضافة إلى الإمساك الذي ينتاب الحوامل عادة .

الجهاز التنفسي : تشكو الحامل في العادة من نهج وضيق في التنفس وخاصة في الأشهر الأخيرة من الحمل . . وذلك لأن الرحم قد ملأ تجويف البطن وابتدأ يضغط على الحجاب الحاجز ويعوق حركته في التنفس ولذا تشكو الحامل من ضيق النفس (النسم) وخاصة عندما تستلقي على ظهرها ويرتفع الحجاب الحاجز إلى أعلى مانعاً الرئتين من الحركة أثناء الشهيق والزفير .

الغدد الصماء : تضطرب بعض وظائف الغدد الصماء في أثناء الحمل . . مثل الغدة الدرقية التي تزداد حاجتها إلى اليود . . ولذا يكثر في أثناء الحمل تضخم الغدة الدرقية وفي أغلب هذه الحالات تعود الغدة الدرقية إلى حالتها الطبيعية بعد الولادة . . وفي أثناء الحمل تكثر الهرمونات المتعلقة بالحمل مثل الاستروجين والبروجسترون وهرمونات المشيمة . . وكلها لها تأثير على الجسم عامة . . كما أن لها تأثيراً خاصاً على الرحم والجنين .

وتزداد بسبب هذه الهرمونات كمية الماء في الجسم . . وتصاب كثير من الحوامل في أواخر الحمل خاصة بتورم القدمين تورماً بسيطاً . . وليس لذلك تأثير ضار إذ يختفي برفع

﴿ وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ تفسير لوصينا أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال ، وذكر

* الإعجاز العلمي

القدمين إلى أعلى كما أنه يختفي بعد الولادة .

العظام والأسنان : تصاب بعض الأمهات الحوامل بلين العظام أثناء الحمل وبعده . . كما تصاب أسنانهن بالالتهابات المتكررة . . والسبب في ذلك أن الجنين لكي يبني عظامه يسحب من دم أمه وعظامها الكالسيوم والمواد الضرورية لبناء عظامه .. حتي ولو تركها هزيلة هشة العظام شاحبة الوجه تعاني من لين العظام ومن فقر الدم .

كل هذه التغيرات وأكثر منها تحصل في الحمل الطبيعي . . وفي كثير من الأحيان يضاف إلى هذه المتاعب التهابات المجاري البولية التي تزداد زيادة كبيرة أثناء الحمل مما قد يؤدي إلى فقدان الزلال (البروتين) في البول ويؤدي ذلك إلى تورم الأقدام وتورم الوجه.

كما يكثر في الحمل اضطراب ضغط الدم . . وأغلب الأمهات يعانين من انخفاض بسيط في ضغط الدم مما يؤدي إلى الشعور بالدوخة . . وهي حالات بسيطة وهينة . . ولا تؤثر على حالة الأم لا في الحمل ولا في ما يستقبل من الأيام . .

ولكن الشيء الخطير هو حصول ارتفاع في ضغط الدم . . وإذا لم يعالج فإنه قد يودي إلى حالات تسمم الحمل الخطير المعروفة باسم (إكلامبسيا) التي تصحبها تشنجات شديدة .

وهذه الحالات إذا لم تعالج بسرعة وعناية فائقة فإنها تؤدي إلى وفاة الجنين . وأخطر من ذلك تؤدي إلى وفاة الأم ذاتها .

ولن نتحدث عن حمل التوائم ومضاعفاته . . ولا عن الحمل خارج الرحم وخطورته على حياة الأم . . ولا عن أمراض القلب . . وأمراض الكلى . . والبول السكري وكيف أنها تحتاج إلى عناية خاصة فائقة أثناء الحمل . . وكل هذه الأمراض خارجة عن نطاق حديثنا إذ أننا نشير هنا فقط إلى ما تكابده الأم من مشاق في الحمل الطبيعي .

وفي أثناء الحمل الطبيعي يزداد وزن الأم عشرة كيلو جرامات (في المعدل) سبعة منها للجنين والأغشية وثلاثة منها زيادة فعلية في وزن الحامل .

وفي هذه الأثناء يأخذ الجنين من أمه كل ما يحتاج إليه من غذاء وهواء .. ومناعة .. ويعطيها إفرازاته من المواد السامة لتطردها بدلا منه إلى خارج الجسم . .

يقول مجموعة من أساتذة طب النساء والولادة في كتاب «الحمل ـ الولادة ـ العقم عند الجنسين» « والطفل يعتبر كالنبات الطفيلي الذي يستمد كل ما يحتاج إليه من الشجرة التي

الحمل والفصال فى البين اعتراض مؤكد للتوصية فى حقها خصوصاً ومن ثم قال

* الإعجاز العلمى

يتعلق بها . . يعيش ويأخذ غذاءه من الأم مهما كانت حالتها أو ظروفها حتى ولو تركها شبحًا » . وفي موضع آخر يقول « يعتبر معظم الأطباء أن الجنين داخل الرحم متطفل على أمه لأن المواد الغذائية كالأحماض الأمينية والجلوكوز وكذا الفيتامينات والأملاح كالحديد والكالسيوم والفسفور وغيرها تنتقل من الأم إلى الجنين خلال المشيمة . . والمعروف أن طلبات الجنين تلبى بصفة إلزامية حتي وإن كان هناك نقص في كل أو بعض هذه المواد الحيوية عند الأم . . » .

الحالة النفسية : لا تعاني الأم من كل هذه المصاعب الجسدية فحسب . . ولكن حالتها النفسية تضطرب أيما اضطراب . . فهي بين الخوف والرجاء . . وبين الحزن والفرح . . الخوف من الحمل . . ومصاعبه . . والولادة ومتاعبها . . والرجاء بالفرج والتيسير من الله تعالى . .

وهي بين حالات القلق والكآبة تتأرجح تارة وتارة تغمرها فرحة وسعادة بالمولود الجديد . . يقول مؤلفو كتاب « الحمل والولادة » :

« تحتاج الحامل إلى عناية شديدة من المحيطين بها في هذه الفترة بالذات . . إذ تكون أكثر حساسية من أي فترة مضت . . سريعة التأثير والانفعال . . والميل إلى الهموم والأحزان لأتفه الأسباب . . وذلك بسبب التغير الفسيولوجي في كل أجزاء الجسم لذا يجب أن تحاط بجو من الحنان . . والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلى تأثرها وانفعالها . . وخاصة من ناحية الزوج . . أو الذين يعيشون ويتعاملون معها » .

وصدق الله العظيم ﴿ حملته أمه وهنا علي وهن ﴾ . ، ﴿ حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا ﴾ .

فهي في وهن من أول الحمل إلى آخره . . وهي في آلام وأوجاع وأوصاب من أول حمله إلى أن تضعه .

أفلا تكون بعد ذلك كله جديرة بالرعاية والإجلال والتكريم . . وهي التي تعطي جنينها كل ما يحتاجه ولو جعلها هزيلة شاحبة تعاني من فقر الدم ولين العظام . . وتسوس الأسنان . . وهبوط القلب . . وهي التي تمنع عنه كل أذى . . ولا تسمح للميكروبات بالدخول إليه بواسطة ذلك الحاجز المنيع المسمى المشيمة . . ثم هي بعد ذلك تعطيه الغذاء مهضومًا جاهزًا وتعطيه الأوكسجين . . وتأخذ منه السموم مثل البولينا وثاني أوكسيد الكربون . تأخذها منه راضية فرحة لتطردها بدلا عنه . . وتعطيه كذلك مواد المناعة حتى إذا خرج

ﷺ لمن قال من أبر «**أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك**»(٦) .
﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما ، وقيل : أراد بنفي العلم به نفيه . ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ فى ذلك . ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ في الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة . ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجعك ومرجعهما ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ، والآيتان معترضان فى تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيه من النهى عن الشرك كأن قال : وقد وصينا بمثل ما وصي به ، وذكر الوالدين للمبالغة فى ذلك فإنهما مع أنهما تلو البارى فى استحقاق

(٦) اخرجه أبو داود والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله من أبر ؟ .. الحديث ، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابي زرعة عن أبي هريرة بمثله .

* الإعجاز العلمى

إلى الدنيا خرج إليها بجهاز يستطيع أن يقاوم الأمراض والميكروبات المحيطة به .

ألا تستحق بعد ذلك أن يبرها ويكرمها ويجلها . .؟ بلى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما . . وقل لهما قولا كريما . . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا . . حملته أمه كرها ووضعته كرهًا ﴾ .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه . . حملته أمه وهنا على وهن . . وفصاله في عامين ﴾ .

والرسول الكريم يقول للسائل « من أحق الناس بحسن صحبتي يا رسول الله ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال : أبوك ثم أدناك فأدناك » . أخرجه الشيخان والنسائى وأحمد والحاكم وأبو داود .

وقال للذي حمل أمه على ظهره وأخذ يطوف بها بالبيت وهي على ظهره : هل قضيت حقها ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا ولا بزفرة واحدة » .

فهذا المقام العظيم للأمومة وجعل الجنة تحت أقدامها .

التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه فى الإشراك فما ظنك بغيرهما (روى) نزولها فى سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تطعم فيها شيئاً ، ولذلك قيل : من أناب إليه أبو بكر رضى الله عنه فإنه أسلم بدعوته (٧) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تك مثلاً فى الصغر كحبة الخردل . ورفع نافع مثقال على أن الهاء ضمير القصة وكان تامة وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر :

كما شرقت صدر القناة من الدم (٨)

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة . ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ ﴾ فى أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السموات أو أسفله كمقعر الأرض . وقرئ بكسر الكاف من وكن الطائر إذا استقر في وكنته . ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ يحضرها فيحاسب عليها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه إلى كل خفى . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه .

الآيات من ١٧ : ٢٠

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ

---

(٧) جاءت الوصية بالوالدين في سياق وصية لقمان لابنه على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك ، وعقوق الوالدين يقترن بالشرك وقد جاء ذلك في مواضع عدة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ .

(٨) تقدم هذا الشاهد .

وشرقت : اصطبغت بالحمرة يقال : شرق الشيءُ : اختلط ، وشرق لونه : احمر وشرق وجهه : احمر خجلا .

والشاهد فيه اقتران تأنيث بالفعل مع أن الفاعل مذكر ، ولكنه أضيف إلى مؤنث فلوحظ ذلك .

إنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ تكميلاً لنفسك . ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ تكميلاً لغيرك . ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد سيما فى ذلك . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أمر به . ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ مما عزمه الله من الأمور أى قطعه قطع إيجاب مصدر أطلق للمفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله فإذا عزم الأمر أى جد .

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون من الصَّعْر وهو ـ أو الصَّيَد ـ داء يعترى البعير فيلوى عنقه . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تصاعر ، وقرئ ولا تُصْعِر والكل واحد مثل علاه وأعلاه وعالاه . ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى فرحاً مصدر وقع موقع الحال أى تمرح مرحاً أو لأجل المرح وهو البطر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ علة للنهى وتأخير الفخور وهو مقابل للمصعر خده والمختال للمشاء مرحاً لتوافق رؤوس الآى .

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ توسط فيه بين الدبيب والإسراع . وعنه ﷺ «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» (٩) ، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع ما فوق دبيب المتماوت ، وقرئ بقطع الهمزة من أقصد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرمية . ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ وانقص منه وأقصر . ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ ﴾ أوحشها . ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ والحمار مثل فى الذم سيما نهاقه ، ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين ، وفى تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجه مخرج الاستعارة مبالغة شديدة ، وتوحيد الصوت لأن المراد تفضيل الجنس

---

(٩) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٤ وقال أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي رواية عن أنس « سرعة المشي تذهب بهاء الوجه » ورمز السيوطي للروايتين بالضعف .

فى النكير دون الآحاد أو لأنه مصدر فى الأصل (١٠) .

---

(١٠) تعليق : من وصايا لقمان

نذكر هنا جملة من وصايا لقمان وحكمه بغية الانتفاع والاستدلال على فضله وحكمة ذكره في القرآن الكريم .

من أقوال النبي ﷺ عنه : روي الإمام أحمد عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : « إن الله إذا استودع شيئًا حفظه » .

وعن ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياكَ والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار .

ومن اقواله لابنه

يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك

يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِلْ سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

أحاديث شريفة تتعلق بوصايا لقمان

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره جملة صالحة من أحاديث النبي ﷺ تتعلق بوصايا لقمان لابنه :

في التواضع : عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « رب أشعث ذي طمرين يُصفع عن أبواب الناس ، إذا أقسم على الله لأبره » .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه . قال رسول الله ﷺ : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة » .

وفي البعد عن الشهرة : « عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « حسب امرئ من الشر إلا من عصم الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم واعمالكم » .

وفي حسن الخلق : عن أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما : قيل يا رسول الله أي المؤمنين افضل ؟ قال : « احسنهم أخلاقا » . وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار » .

تسخير الكون للإنسان ليتفرغ لعبادة ربه

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم . ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به بوسط أو غير وسط ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة ، وقرئ وأصبغ بالأبدال وهو جار فى كل سين اجتمع من الغين أو الخاء أو القاف كصلخ وصقر ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص نعمه بالجمع والإضافة . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ فى توحيده وصفاته . ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مستفاد من دليل . ﴿ وَلا هُدًى ﴾ راجع إلى رسول . ﴿ وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله بل بالتقليد كما قال :

الآيات من ٢١ :٢٨

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

وفي ذم الكبر : عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

وفي التحذير من الاختيال : عن بريدة مرفوعا « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » .

ـ من اختصار تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٥٦ » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وهو منع صريح من التقليد في الأصول . ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم . ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب محذوف مثل لا تبعوه ، والاستفهام للإنكار والتعجب .

ثمرة إسلام الوجه لله

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ بأن فوض أمره إليه وأقبل بشرا شره عليه من أسلمت المتاع إلى الزبون ، ويؤيده القراءة بالتشديد وحيث عدى باللام فلتضمن معنى الإخلاص . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله . ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ تعلق بأوثق ما يتعلق به ، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ إذ الكل صائر إليه .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ، وقرئ فلا يحزنك من أحزن وليس بمستفيض . ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ في الدارين . ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ بالإهلاك والتعذيب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فمجاز عليه فضلاً عما في الظاهر.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ تمتيعا أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم إلى الإحراق الضغط .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد .

علم الله لا يحيط به أحد

﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلام** ﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً ، وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد . ﴿ **وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ** ﴾ والبحر المحيط بسعته مداداً ممدوداً بسبعة أبحر ، فأغنى عن ذكر المداد بمده لأنه من مد الدواة وأمدها ، ورفعه للعطف على محل أن ومعموليها وبمده حال أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال ، ونصبه البصريان بالعطف على اسم أن أو إضمار فعل يفسره يمده ، وقرئ تمده ويمده بالياء والتاء . ﴿ **مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّه** ﴾ بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفى بالقليل فكيف بالكثير . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ** ﴾ لا يعجزه شئ . ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ، والآية جواب لليهود سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ (١١) وقد أنزل التوراة وفيها علم كل شئ (١٢) .

﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ إلى كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفى لوجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية كما قال ﴿ **إنما أمرنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ (١٣) ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ** ﴾

---

(١١) الإسراء : ٨٥ .

(١٢) ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ، وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : هذه الآية نزلت جوابا لليهود فإن أحبارهم قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلاكما » . قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وانزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ ولو أنمافي الأرض من شجرة أقلام ﴾ .
وذكر ذلك أيضا السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وعزاه إلى ابن جرير عن عكرمة ، وإلى ابن اسحاق عن عطاء بن يسار وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس .
وذكر رواية أخري قال : أخرج ابو الشيخ في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد . فنزلت الآية .

(١٣) النحل : ٤٠ .

يسمع كل مسموع . ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله إدراك بعضها عن بعض فكذلك الحق .

الآيات من ٢٩ : ٣٣

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾

من دلائل قدرة الله

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ كل من النيرين يجرى فى فلكه . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى منتهى معلوم ، الشمس إلي آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر . وقيل : إلى يوم القيامة، والفرق بينه وبين قوله ﴿ لأجل مسمى ﴾ (١٤) أن الأجل ها هنا منتهى الجرى ، وثَمَّةَ غرضه حقيقة أو مجازاً ، وكلا المعنيين حاصل فى الغايات (١٥) ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه .

---

(١٤) الرعد : ٢ ، فاطر : ١٣ ، الزمر : ٥ .

(١٥) ذكره الزمخشري في تفسيره الفرق بينهما فقال :

فإن قلت يجري لأجل مسمى ، ويجري إلى أجل مسمي أهو تعاقب الحرفين ؟ قلت :

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الذى ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها . ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ بسبب أنه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته ، أو الثابت إلهيته . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ المعدوم فى حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله أو الباطل إلهيته ، وقرأ البصريان والكوفيون غير أبى بكر بالياء . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ مترفع على كل شئ ومتسلط عليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ بإحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمه وشمول إنعامه والباء للصلة أو الحال ، وقرئ الفلك بالتثقيل وبنعمات الله بسكون العين ، وقد جوز فى مثله الكسر والفتح والسكون . ﴿ لِيُرِيَكُم ﴾ من آياته دلائله . ﴿ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر فى الآفاق والأنفس . ﴿ شَكُورٍ ﴾ يعرف النعم ويتعرف ما نحها ، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر .

اللجوء إلى الله فى وقت الشدة

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم ﴾ علاهم وغطاهم . ﴿ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وقرئ كالظلال جمع ظله كقلة وقلال . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقيم على الطريق القصد الذى هو التوحيد، أو متوسط فى الكفر لانزجاره بعض الانزجار . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطرى ، أو لما كان فى البحر والختر أشد الغدر. ﴿ كَفُورٍ ﴾ للنعم .

كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ، ولكن المعنيين ، أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ؛ لأن قولك يجري إلى أجل مسمي : معناه يبلغه وينتهي إليه ، وقولك يجري لأجل مسمي . تريد يجري لإدراك أجل مسمي، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمي . ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة ، وجري القمر مختص بآخر الشهر ، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه . تفسير الكشاف .

الدعوة إلى اتقاء يوم المعاد

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ لا يقضى عنه ، وقرئ لا يجزى من أجزأ إذا أغنى والراجع إلى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه . ﴿ وَلا مَوْلُودٌ ﴾ عطف على والد أو مبتدأ خبره . ﴿ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالثواب والعقاب . ﴿ حَقٌّ ﴾ لا يمكن خلفه . ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصى .

الآية ٣٤

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

من مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا الله

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ علم وقت قيامها . لما روي أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال : متى قيام الساعة؟ وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فمتى السماء تمطر؟ وحمل امرأتى أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأن أموت؟ فنزلت . وعنه ﷺ «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية . ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فى إبانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شئ وتفعل خلافه . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كما لا تدري فى أى وقت تموت.

روى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل : من هذا؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى بالهند ، ففعل ، فقال الملك : كان دوام نظرى إليه تعجباً

منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك »(١٦) ، وإنما جعل العلم لله تعالى والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين ، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه ، وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل في كلهن . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الأشياء كلها . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها .

فضل سورة لقمان

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : «**من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة ، وأعطى من الحسنات عشراً عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر**»(١٧) .

(١٦) رواه أحمد في الزهد ، وابن أبي شيبة في مصنفه . رواه الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب .

(١٧) ذكره الزمخشري في تفسيره ، وعلق عليه الحافظ ابن حجر بقوله : « أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه » .

(٣٢) سورة السجدة مكية

وآياتها ثلاثون وقيل تسع وعشرون آية (١)

الآيات من ١ : ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾

القرآن الكريم تنزيل من الله لا شك فيه

﴿ الٓمٓ ﴾ إن جعل اسما للسورة أو القرآن فمبتدأ خبره :

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ علي أن التنزيل بمعني المنزل ، وإن جعل تعديدا للحروف كان تنزيل خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره : ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فيكون . ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حالا من الضمير في فيه لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا ولا ريب فيه حال من الكتاب ، أو اعتراض والضمير فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فإنه تقرير له ، ونظم الكلام علي هذا أنه أشار أولا إلي إعجازه ، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلي ما يقولون فيه علي خلاف ذلك إنكارا له وتعجيبا منه ، فإن أم منقطعة ثم أضرب عنه إلي إثبات أنه الحق المنزل من الله وبين المقصود من تنزيله فقال :

---

(١) في تفسيري ابن كثير والكشاف : مكية ما عدا الآيات من ١٦ : ٢٠ فمدنية ، والسورة نزلت بعد سورة المؤمنون .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ إذا كانوا أهل الفترة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بإنذارك إياهم .

الله هو المتفرد بالخلق والتدبير

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ مر بيانه في الأعراف . ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾ ما لكم إذا جاوزتم رضا الله أحد ينصركم ويشفع لكم ، أو ما لكم سواه ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولي مصالحكم وينصركم في مواطن نصركم علي أن الشفيع متجوز به للناصر ، فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر . ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله تعالي .

الآيات من ٥ : ١٠

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلي الأرض . ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ثم يصعدإليه ويثبت في علمه موجودا . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ في برهة من الزمان متطاولة يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع . وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملك ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة ، فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة . وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر وقيل يدبر الأمر إلي قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة . وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء إلي الأرض بالوحي ، ثم لا يعرج إليه خالصا كما

يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخلص ، وقرئ يعرج ويعدون(٢) .

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فيدبر أمرهما علي وفق الحكمة . ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب علي أمره . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ علي العباد في تدبيره ، وفيه إيماء بأنه سبحانه يراعي المصالح تفضلا وإحسانا .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ خلقه موفرا عليه ما يستعد له ويليق به علي وفق الحكمة والمصلحة ، وخلقه بدل من كل بدل الاشتمال وقيل علم كيف يخلقه من قولهم قيمة المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته ، وخلقه مفعول ثان . وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام علي الوصف فالشئ علي الأول مخصوص بمنفصل وعلي الثاني بمتصل ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ ﴾ يعني آدم . ﴿ مِن طِينٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته سميت بذلك لأنها تنسل منه أي تنفصل . ﴿ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ممتهن .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ قومه بتصوير أعضائه علي ما ينبغي . ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ أضافه إلي نفسه تشريفا له وإشعارا بأنه خلق عجيب ، وأن له شأنا له مناسبة ما إلي الحضرة الربوبية ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ خصوصا لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تشكرون شكرا قليلا .

إصرار الكفار علي إنكار البعث

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي صرنا ترابا مخلوطا بتراب الأرض لا نتميز منه ، أو غبنا فيها . وقرئ ضللنا بالكسر من ضل، يضل وصللنا من صل اللحم إذا أنتن ، وقرأ ابن عامر إذا علي الخبر والعامل فيه ما دل عليه . ﴿ أَئِنَّا لَفِي

---

(٢) للعلم الحديث فهم جديد لهذه الآية الكريمة ولآية الحج ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ الحج : ٤٧ .

ولم يتسع المجال لاختصار هذا الفهم وتقديمه ، ولذلك نحيل إليه فاقرأه في مصدره : كتاب إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان . د منصور حسب النبي ص ٨٠ ـ ص ١٠٢ ، دار الفكر العربي ٦٤ ش العقاد ـ مدينة نصر ، القاهرة .

خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو : نبعث أو يجدد خلقنا . وقرأ نافع والكسائي ويعقوب أنا علي الخبر، والقائل أبي بن خلف وإسناده إلي جميعهم لرضاهم به . ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده . ﴿ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون .

الآيات من ١١ : ١٦

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئا ولا يبقي منكم أحدا ، والتفعل والاستفعال يلتقيان كثيرا كتقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته . ﴿ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ للحساب والجزاء .

حالهم يوم تقوم الساعة .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الحياء والخزي . ﴿ رَبَّنَا ﴾ قائلين ربنا . ﴿ أَبْصَرْنَا ﴾ ما وعدتنا . ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق رسلك . ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ إلي الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا . وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا ، ويجوز أن تكون للتمني والمضي فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع ، ولا يقدر لتري مفعول لأن المعني لو يكون منك رؤية في هذا الوقت ، أو يقدر ما دل عليه

صلة إذا والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد .

﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ ما تهتدي به إلي الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له . ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** ﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو : ﴿ **لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم لعدم المشيئة المسبب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولايدفعه جعل ذوق العذاب مسببا عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله :

﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له، ﴿ **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** ﴾ تركناكم من الرحمة، أوفى العذاب ترك المنسي وفي استئنافه وبناء الفعل علي أن واسمها تشديد في الانتقام منهم .﴿ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكير فيها دلالة على أن كلا منهما يقتضى ذلك.

وصف المؤمنين بآيات الله

﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا** ﴾ إن وعظوا بها . ﴿ **خَرُّوا سُجَّدًا** ﴾ خوفا من عذاب الله. ﴿ **وَسَبَّحُوا** ﴾ نزهوه عما لايليق به كالعجز عن البعث .﴿ **بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ حامدين له شكرا على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدي ﴿ **وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبرا .

﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ** ﴾ ترتفع وتتنحى . ﴿ **عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾ الفرش ومواضع النوم . ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** ﴾ داعين إياه .﴿ **خَوْفًا** ﴾ من سخطه . ﴿ **وَطَمَعًا** ﴾ فى رحمته . وعن النبى ﷺ فى تفسيرها «**قيام العبد من الليل**» (٣) وعنه عليه الصلاة والسلام «**إذا جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى ، ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ،**

---

(٣) أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وإسحاق والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع .

ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس » (٤) وقيل: كان أناس من الصحابة يصلون من المغرب إلي العشاء فنزلت فيهم .(٥) .

﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ فى وجوه الخير.

الآيات من ١٧ : ٢٣

﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ**

---

(٤) رواه إسحاق وأبو يعلي من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بن يزيد مطولا ، وأخرجه الحاكم في المستدرك مختصرا .

(٥) حديث معاذ المشهور المتعلق بهذه الآية :

روي الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : الا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ ﴿ تتجافي جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتي بلغ : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسول الله . فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله . فأخذ بلسانه ، ثم قال : كف عليك هذا . فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم . أو قال على مناخرهم إلا حصائد السنتهم ؟

رواه الترمذي والنسائى وابن ماجة في سننهم وحسنه الترمذي وصححه .

يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ لاملك مقرب ولانبى مرسل. ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقربه عيونهم ، وعنه عليه الصلاة والسلام « **يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعتهم عليه، اقرءوا فلاتعلم نفس ما أخفى لهم** [٦] وقرأ حمزة ويعقوب أخفى لهم على أنه مضارع أخفيت ، وقرئ نخفى وأخفى الفاعل للكل هو الله ، وقرات أعين لاختلاف أنواعها ، والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية معلق عنها الفعل . ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى جزوا جزاء أوأخفي للجزاء فإن إخفاءه لعلو شانه .

وقيل هذا القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

لامساواة بين المؤمن والكافر

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ خارجا عن الإيمان ﴿ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ فى الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل علي المعنى.

﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ فإنها المأوي الحقيقى والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة ، وقيل المأوى جنة من الجنان ، ﴿ نُزُلًا ﴾ سبق تفسيره فى سورة آل عمران . ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ مكان جنة المأوي للمؤمنين . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ عبارة عن خلودهم فيها . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ إهانة لهم وزيادة فى غيظهم .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ ﴾ عذاب الدنيا يريد مامحنوا به من السنة

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في باب صفة الجنة ، وفي كتاب التفسير .

سبع سنين والقتل والأسر . ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ عذاب الآخرة. ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعل من بقي منهم . ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ يتوبون عن الكفر ، روى أن الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات (٧)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فلم يتفكر فيها ، وثم لاستبعاد الإعراض عنها مع فرض وضوحها وإرشادها إلي أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلا كما فى بيت الحماسة .

وَلا يَكْشِفُ الغُمَاءَ إلاَّ ابْنِ حرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورها (٨)

﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم .

حديث عن موسى وكتابه التوراة

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ كما آتيناك . ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ ﴾ فى شك، ﴿ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ من لقائك الكتاب كقوله ﴿ إنك لتلقى القرآن ﴾ (٩) فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه، أومن لقاء موسى للكتاب أومن لقائك موسي ، وعنه عليه الصلاة والسلام « رأيت ليلة

(٧) ذكر السيوطي في لباب النقول : أخرج الواحدي وابن عساكر عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلى بن أبى طالب: أنا أحد منك سنا وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له علي : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزل قوله تعالي : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ .

قال : وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله .

وأخرج الخطيب وابن عساكر من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط وذلك في سباب بينهما.

(٨) هذا البيت لجعفر بن علبة الحارثي

والغماء الداهية والمصيبة ، وابن الحرة : الرجل الكريم ، ويكشفها أي يزيلها ويعين عليها. وغمرات الموت : شدائده وأهواله ، ويزورها : يلاقيها برغبة كلقاء المحبوب وفي هذا دلالة على شجاعته .

(٩) النمل : ٦ .

أسري بى موسى صلى الله عليه وسلم رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة » ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي المنزل على موسى ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

الآيات من ٢٤ : ٣٠

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام . ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له . ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس لما صبروا أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانهم فيها النظر .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المحق من المبطل . ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

وجوب الاعتبار بمصائر القرون الماضية والآيات الشاهدة بقدرة الله

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الواو للعطف على منوي من جنس المعطوف والفاعل ضمير ما دل عليه . ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية ، أو ضمير الله بدليل القراءة بالنون . ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يعني أهل مكة يمرون في متاجرهم علي ديارهم ، وقرئ يمشون بالتشديد . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل لا التي لا تنبت لقوله : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ وقيل اسم موضع باليمن . ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ ﴾ من الزرع . ﴿ أَنْعَامُهُمْ ﴾ كالتين والورق . ﴿ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ كالحب

والثمر . ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله .

استعجال الكفار بأس الله وعقابه

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾ (١٠) ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في الوعد به .

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وهو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم . وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة ، والمراد بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانهم حال القتل ولا يمهلون وانطباقه جوابا على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عرف من غرضهم، فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيبا واستهزاء أجيبوا بما يمنع الاستعجال .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ، وقيل هو منسوخ بآية السيف . ﴿ وَانتَظِرْ ﴾ النصرة عليهم . ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ الغلبة عليك ، وقرئ بالفتح على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة ينتظرونه .

فضل سورة السجدة

عن النبي ﷺ من قرأ « **ألم تنزيل ، تبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر** » (١١) وعنه « **من قرأ ألم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام** » (١٢) .

---

(١٠) الأعراف : ٨٩ .

(١١) ذكره الزمخشري في الكشاف وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب ، وله طريق آخر عن الثعلبي من رواية ابن عباس عن أبي بن كعب .

(١٢) ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده .

ومما أورده ابن كثير في فضل هذه السورة ما رواه البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ ألم تنزيل ﴾ السجدة ، و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ورواه مسلم من حديث سفيان الثوري به .

وروي الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتي يقرأ : ألم تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك . تفرد به أحمد .

(٣٣) سورة الأحزاب مدنية
وآياتها ثلاث وسبعون (١)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الآيات من ١ : ٤

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾

الأمر للنبى ﷺ أمر لأمته

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ناداه بالنبي وأمره بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى ، والمراد به الأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً له عما نهى عنه بقوله : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يعود بوهن فى الدين . روى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمى قدموا عليه فى الموادعة التى كانت بينه وبينهم وقام معهم ابن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس (٢) فقالوا له : ارفض ذكر آلهتنا وقل إن لها شفاعة وندعك وربك (٣) فنزلت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً ﴾

---

(١) في مختلف التفاسير : نزلت بعد سورة آل عمران .

وفي تفسير ابن كثير : روي الإمام أحمد عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأيٍّ تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأيٍّ تعدها ؟ قال : قلت ثلاثا وسبعين آية . فقال : قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم . قال : ورواه النسائى من وجه آخر ، وهذا يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا والله أعلم .

(٢) هؤلاء من المعروفين بالنفاق .

(٣) ذكر السيوطي في لباب النقول : أخرج جويبرعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

بالمصالح والمفاسد . ﴿ حَكِيماً ﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة .

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ كالنهى عن طاعتهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ فموح إليك ما تصلح به أعمالك ويغنى عن الاستماع إلى الكفرة، وقرأ أبو عمرو بالياء على أن الواو ضمير الكفرة والمنافقين أى أن الله خبير بمكايدهم فيدفعها عنك .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ وكل أمرك إلى تدبيره . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ موكولاً إليه الأمور كلها .

النهى عن أشياء كانت مباحة فى الجاهلية

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ أى ما جمع قلبين فى جوف لأن القلب معدن الروح الحيوانى المتعلق بالنفس الإنسانى أولاً ومنع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد (٤) .

قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين .. ﴾

نقول ، والخبر الذي جاء في البيضاوي لعله أصح ـ لأن الوليد بن المغيرة هلك قبل الهجرة والآية مدنية لأن المنافقين لم يكن لهم وجود إلا في المدينة بعد الهجرة إليها .

(٤) جاء في لباب النقول حول سبب نزول هذه الآية : أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام النبي ﷺ يوما يصلى فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين : قلبا معكم وقلبا معه . فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا : كان رجل يدعى ذا القلبين . فنزلت .

وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله ، وزاد : وكان يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني .

وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : نزلت في رجل من بني فهم ـ لعله من بني فهر كما جاء في رواية الكشاف ـ قال : إن في جوفي لقلبين أعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد .

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ وما جمع الزوجية والأمة فى أمرأة ولا الدعوة والبنوة فى رجل ، والمراد بذلك رد ما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبى معمر أو جميل بن أسد الفهْرى ذو القلبين ، والزوجة المظاهر عنها كالأم ودعى الرجل ابنه ولذلك كانوا يقولون لزيد بن حارثة الكلبى عتيق رسول الله ﷺ ابن محمد ، أو المراد نفى الأمومة والبنوة عن المظاهَر عنها والمتبنَّى ونفى القبين لتمهيد أصل يحملان عليه ، والمعنى كما لم يجعل الله قلبين فى جوف لأدائه إلى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل لم يجعل الزوج والدعى اللذين لاولادة بينهما وبينه أمه وابنه اللذين بينهما وبينه ولادة .

وقرأ أبو عمرو اللاي بالياء وحده على أن أصله اللاء بهمزة فخففت وعن الحجازيين مثله ، وعنهما وعن يعقوب بالهمز وحده .

وأصل تظاهرون تتظاهرون فأدغمت التاء الثانية في الظاء . وقرأ ابن عامر تظاهرون بالإدغام وحمزة والكسائى بالحذف وعاصم تظاهرون من ظاهر ، وقرئ تظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعني عاقد وتظهرون من الظهور .

ومعنى الظهار : أن يقول للزوجة أنت علي كظهر أمي ، مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدي آلى بها ، وهو بمعنى حلف ، وذكر الظهر للكناية عن البطن الذي هو عموده فإن

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنهانزلت في رجل من قريش من بني جُمَح يقال له جميل بن معمر .

وفي تفسير الكشاف : كان أبو معمر رجلا من أحفظ الناس وأرواهم فقيل له : ذو القلبين وقيل : هو جميل بن أسد الفِهْري وكان يقول : إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فروي أنه انهزم يوم بدر فمرَّ بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله . فقال له : ما فعل الناس ؟ فقال : هم ما بين مقتول وهارب . فقال له : ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك ؟ فقال : ما ظننت إلا أنهما في رجليّ ، فأكذب الله قوله وقولهم .

ذكره يقارب ذكرالفرج ، أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها إلى السماء ، وأدعياء جمع دعي على الشذوذ وكأنه شبه بفعيل بمعنى فاعل فجمع جمعه . ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر أو إلى الأخير . ﴿ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ لا حقيقة له في الأعيان كقول الهاذي . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ ماله حقيقة عينية مطابقة له . ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ سبيل الحق .

الآيتان من ٥ : ٦

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ انسبوهم إليهم ، وهو أفراد للمقصود من أقواله الحقة وقوله : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ تعليل له ، والضمير لمصدر ادعوهم وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق . ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ فتنسبوهم إليهم . ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين . ﴿ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ وأولياؤكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويل . ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان . ﴿ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لعفوه عن المخطئ .

واعلم أن التبني لا عبرة به عندنا وعند أبي حنيفة يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به .

النبي ﷺ ولي كل مؤمن

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا

يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس ، فلذلك أطلق فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقتهم عليه أتم من شفقتهم عليها . روي : أنه ﷺ أراد غزوة تبوك فأمرالناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت . وقرئ وهو أب لهم أي في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة (٥) . ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم وفيما عدا ذلك فكما الأجنبيات ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : لسنا أمهات النساء . ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ وذوو القرابات . ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين . ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في اللوح أو فيما أنزل ، وهو هذه الآية أو آية المواريث أو فيم فرض الله . ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ بيان لأولى ا لأرحام ، أو صلة لأولى أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة . ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع ! والمراد بفعل المعروف التوصية ومنقطع ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ كان ما ذكر في الآيتين ثابتا في اللوح أو القرآن . وقيل في التوراة .

الآيات من ٧ : ٩

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيماً (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩)

(٥) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه » قال ابن كثير في تفسيره : تفرد به البخاري .

أولو العزم من الرسل

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ مقدر باذكر وميثاقهم عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلي الدين القيم . ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا عليه الصلاةوالسلام تعظيما له وتكريما لشانه . ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ عظيم الشأن أو مؤكدا باليمين ، والتكرير لبيان هذا الوصف تعظيما له .

﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم ، أو تصديقهم إياهم تبكيتا لهم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق ، أو المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ عطف على أخذنا من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين ، أو على ما دل عليه ليسأل كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين .

قصة غزوة الأحزاب وموقف المنافقين فيها

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعنى الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفا . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ ريح الصبا . ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الملائكة . روي أنه ﷺ لما سمع بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينه وبينهم ، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم ريحًا باردة في ليلة شاتية ، فأحصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض وكبرت الملائكة في جوانب العسكر . فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من حفر الخندق ، وقرأ البصريان بالياء أي بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة . ﴿ بَصِيرًا ﴾ رائيا .

الآيات من ١٠ :١٥

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُم ﴾ بدل من إذ جاءتكم . ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو غطفان . ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش. ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا . ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ رعبًا فإن الرئة تنتفخ من شدة الروع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب . ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ الأنواع من الظن فظن المخلصون الثبت القلوب أن الله منجز وعده في إعلاء دينه ، أو ممتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب.والمنافقون ما حكي عنهم ، والألف مزيدة في أمثاله تشبيهًا للفواصل بالقوافي وقد أجرى نافع وابن عامروأبو بكر فيها الوصل مجرى الوقف ، ولم يزدها أبو عمرو وحمزة ويعقوب مطلقا وهو القياس .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ اختبروا فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل. ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من شدة الفزع وقرئ زلزالا بالفتح .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ضعف اعتقاد . ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ من الظفر وإعلاء الدين . ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وعدا باطلا . قيل: فاه معتب بن قشير قال يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن

يتبرز فرقًا ما هذا إلاوعد غرور (٦) .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعنى أوس بن قيظي وأتباعه . ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ أهل المدينة ، وقيل : هو اسم أرض وقعت المدينة في ناحية منها . ﴿ لا مُقَامَ ﴾ لا موضع قيام . ﴿ لَكُمْ ﴾ ها هنا ، وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام . ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ إلى منازلكم هاربين ، وقيل : المعنى لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا ، أو لا مقام لكم بيثرب فارجعوا كفارا ليمكنكم المقام بها . ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ للرجوع . ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ غير حصينة وأصلها الخلل ، ويجوز أن يكون تخفيف العورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرئ بها . ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ بل هي حصينة . ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال .

---

(٦) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ، فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة ، فأخذ رسول الله ﷺ المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة ، فكبر وكبر المسلمون ، ثم ضرب الثانية فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ، فسئل عن ذلك ، فقال : ضربت الأولى فأضاءت لي قصور الحيرةومدائن كسرى وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة فأضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل ان أمتى ظاهرة عليها . فقال المنافقون : ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن « وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » .

ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

الآيات من ١٤ : ١٨

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ دخلت المدينة أو بيوتهم . ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ من جوانبها وحذف الفاعل للإيماء بأن دخول هؤلاء المتحزبين عليهم ودخول غيرهم من العساكر سيان في اقتضاء الحكم المرتب عليه . ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴾ الردة ومقاتلة المسلمين . ﴿ لآتَوْهَا ﴾ لأعطوها ، وقرأ الحجازيان بالقصر بمعنى لجاءوها وفعلوها . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ بالفتنة أو بإعطاءها . ﴿ إِلاَّ يَسِيراً ﴾ ريثما يكون السؤال والجواب ، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد تمام الارتداد إلا يسيراً .

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ يعني بنى حارثه عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا ثم تابوا أن لا يعودوا لمثله . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ عن الوفاء به مجازى عليه .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف ، أو قتل فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم . ﴿ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى وإن نفعكم الفرار مثلاً فمنعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً ، أو زماناً قليلاً .

﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام كما فى قوله :

متقلداً سيفاً ورحماً (٧)

---

(٧) هذا الشطر أورده الزمخشري في الكشاف دون أن ينسبه لقائل ، وكذلك لم ينسبه

أو حمل الثانى على الأول لما فى العصمة من معنى المنع . ﴿ وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ ينفعهم . ﴿ وَلا نَصِيرًا ﴾ يدفع الضر عنهم .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ المثبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون . ﴿ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ ﴾ من ساكنى المدينة . ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ قربوا أنفسكم إلينا وقد ذكر أصله فى الإنعام . ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً ، فإنهم يعتذرون ويتثبطون ما أمكن لهم ، أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً كقوله ﴿ ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ (٨) وقيل إنه من تتمة كلامهم ومعناه لا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلاً .

الآيات من ١٩ : ٢١

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر أو الغنيمة ، جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو علي الذم .

الشيخ محمد عليان المرزوقي في شرح شواهد الكشاف ، وهو عجز بيت والبيت بتمامه هو :

ورأيت زوجك في الوغى ... متقلدا سيفا ورمحا

ويروى : ياليت زوجك في الوغى ... .

والرمح لا يتقلد ولكنه يحمل . والتقدير : متقلدا سيفا وحاملا رمحا .

(٨) الأحزاب : ٢٠ .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في أحداقهم . ﴿ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ ﴾ كنظر المغشى عليه أو كدوران عينيه ، أو مشبهين به أو مشبهة بعينه. ﴿ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ من معالجة سكرات الموت خوفاً ولواذاً بك . ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وحيزت الغنائم . ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ضربوكم . ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ذربة(٩) يطلبون الغنيمة ، والسلق البسط بقهر باليد أو اللسان . ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ نصب على الحال أو الذم ، ويؤيده قراءة الرفع وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه . ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ إخلاصاً . ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإحباط . ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هيناً لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه عنه .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا ففروا إلى داخل المدينة . ﴿ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ كرة ثانية . ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب . ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ كل قادم من جانب المدينة . ﴿ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ عما جرى عليكم . ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم ﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال . ﴿ مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رياء وخوفاً من التعيير.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد ، أو هو فى نفسه قدوة يحسن التأسى به ، كقولك : فى البيضة عشرون منا حديداً(١٠) أى هي فى نفسها هذا القدر من الحديد ، وقرأ عاصم بضم الهمزة وهو لغة فيها . ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أى ثواب الله أو لقاءه ونعيم الآخرة ، أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً . وقيل : هو كقولك أرجو زيداً وفضله ، فإن اليوم الآخر داخل فيها بحسب الحكم ، والرجاء يحتمل الأمل والخوف ، ولمن كان صلةُ لحسنة أو صفة لها. وقيل : بدل من لكم ، والأكثر على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه . ﴿ وَذَكَرَ

---

(٩) ذَرِبة : يقال ذرب لسانه إذا كان شتاما فاحشًا لا يبالي ما قال . ـ المعجم الوجيز ـ .

(١٠) البيضة لها معان عدة ، ويقال بيضة القوم حوزتهم وحماهم ، وبيضة الدار وسطها . ومنا حديد أي قوي أو مسلح .

﴿اللَّهَ كَثِيراً﴾ وقرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدية إلى ملازمة الطاعة ، فإن المؤتسى بالرسول من كان كذلك.

الآيات من ٢٢ : ٢٥

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ بقوله تعالى﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾(١١) الآية وقوله عليه الصلاة والسلام « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » . وقوله عليه الصلاة والسلام : إنهم سائرون إليكم بعد تسع أوعشر (١٢) وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الراء وفتح الهمزة. ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ظهر صدق خبر الله ورسوله أو صدقا في النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء، وإظهار الاسم للتعظيم .﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ فيه ضمير لما رأوا ، أو الخطب أوالبلاء. ﴿ إِلاَّ إِيمَانًا ﴾ بالله ومواعيده .﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ لأوامره ومقاديره.

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين من صدقنى إذا قال لك الصدق، فإن المعاهد إذا وفى -

---

(١١) البقرة : ٢١٤ .

(١٢) ذكره الزمخشري في تفسيره مسندا إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه : « إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا ، أي في آخر تسع ليال أو عشر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك .

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده .

بعهده فقد صدق فيه . ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ، والنحب النذر واستعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الشهادة كعثمان وطلحة رضى الله عنهما . ﴿ وَمَا بَدَّلُوا ﴾ العهد ولاغيروه . ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ شيئا من التبديل . روى أن طلحة ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام : أوجب (١٣) طلحة . وفيه تعريض لأهل النفاق ومرض القلب بالتبديل (١٤) وقوله :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ تعليل للمنطوق والمعرض به ، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى ، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لمن تاب .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى الأحزاب . ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ متغيظين . ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ غير ظافرين وهما حالان بتداخل أوتعاقب . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بالريح والملائكة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ على إحداث ما يريده ﴿ عَزِيزًا ﴾ غالبا على كل شئ .

الآيات من ٢٦ : ٣٠

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ

---

(١٣) أوجب : استحق الجنة .

(١٤) أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أنس قال : غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فكبر عليه ، فقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ إلى آخرها . ـ لباب النقول للسيوطي .

إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

غزوة بنى قريظة

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ ظاهروا الأحزاب . ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى قريظة. ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ من حصونهم جمع صيصة وهى ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى وشوكة الديك .﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الخوف وقرئ بالضم . ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وقرئ بضم السين روى أن جبريل أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب فقال : أتنزع لأمَتَك (١٥) والملائكة لم يضعوا السلاح ؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن فى الناس أن لايصلوا العصر إلا فى بنى قريظة ، فحاصرهم إحدى وعشرين أوخمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار فقال لهم : تنزلون على حكمى ؟ فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ ؟ فرضوا به ، فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبئ ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبى عليه الصلاة والسلام فقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(١٦) فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسر منهم سبعمائة(١٧) .

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارعهم. ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ حصونهم. ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

---

(١٥) لأمتك : اللأمة واللامة بهمز وبغير همز : أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع ، وتجمع على لأم ولُؤم ـ المعجم الوسيط ـ .

(١٦) أرقعة : يقصد السموات .

وفي الصحاح للجوهري : الرقيع : سماء الدنيا وكذلك سائر السموات ، وفي الحديث : « من فوق سبعة أرقع » على لفظ التذكير ، كأنه ذهب إلى السقف .

(١٧) هذا الخبر في سيرة ابن هشام ـ في غزوة بني قريظة رواه ابن اسحاق في سند متصل إلى علقمة بن وقاص الليثي ، ورواه أبو نعيم في الدلائل من حديث جابر رضى الله عنه .

نقودهم ومواشيهم وأثاثهم . روى أنه عليه الصلاة والسلام جعل عقارهم للمهاجرين فتكلم فيه الأنصار فقال: إنكم فى منازلكم وقال عمر رضى الله عنه : أما تخمس كما خمست يوم بدر ؟ فقال : لا إنما جعلت هذه لى طعمة(١٨) .

﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ كفارس والروم وقيل خيبر وقيل كل أرض تفتح إلي يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقدر على ذلك .

قصة تخيير النبى ﷺ نساءه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ السعة والتنعم فيها. ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ زخارفها ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطكن المتعة. ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ طلاقا من غير ضرار وبدعة.

روى أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت . فبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيرها فاختارت الله ورسوله ، ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر الله لهن ذلك فانزل ﴿ **لايحل لك النساء من بعد** ﴾ (١٩) وتعليق التسريح بإرادتهن الدنيا وجعلها قسيما لإرادتهن الرسول يدل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم تطلق ، خلافا لزيد والحسن ومالك وإحدى الروايتين عن على، ويؤيده قول عائشة رضى الله عنها « **خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه** »(٢٠) ولم يعده طلاقا .

وتقديم التمتع على التسريح المسبب عنه من الكرم وحسن الخلق ، قيل: لأن الفرقة كانت بإرادتهن كاختيار المخيرة نفسها فإنه طلقة رجعية عندنا (٢١) وبائنة

---

(١٨) أخرجه الواقدي من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء قالت : لما غنم رسول الله ﷺ بني النضير ـ ومن طريق المسور بن رفاعة قال : قال عمر : يا رسول الله : ألا تخمس ما أصبت من بني النضير ... الخ وفيه قال عمر : رضينا بما صنع الله ورسوله .
وعلى هاتين الروايتين فإن ذلك كان في غزوة بني النضير لا بنى قريظة .

(١٩) الأحزاب : ٥٢ .

(٢٠) هذا الحديث متفق عليه في كتب الصحاح ، وفي رواية بزيادة « ولم يعده طلاقا » وروي : أفكان طلاقا ؟ بأسلوب الاستفهام .

(٢١) عندنا : يعني الشافعية .

عند الحنفية . واختلف فى وجوبه للمدخول بها وليس فيه ما يدل عليه ، وقرئ أمتعكن وأسرحكن بالرفع على الاستئناف .

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يستحقر دونه الدنيا وزينتها ومن للتبين لأنهن كلهن كن محسنات .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ ﴾ بكبيرة . ﴿ مُّبَيَّنَةٍ ﴾ ظاهر قبحها على قراءة ابن كثير وأبى بكر ، والباقون بكسر الياء ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه، لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد ، وعوتب الأنبياء بما لايعاتب به غيرهم وقرأ البصريان يضعف على البناء للمفعول ، ورفع العذاب ، وابن كثير وابن عامر نُضَعِّفْ بالنون وبناء الفاعل ونصب العذاب ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لايمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبى، وكيف وهو سببه .

الآيات من ٣١ : ٣٣

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ ﴾ ومن يدم على الطاعة. ﴿ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ولعل ذكر الله للتعظيم أو لقوله . ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبى ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة، وقرأ حمزة والكسائى ويعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ فى الجنة زيادة على أجرها .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل ، ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ مخالفة حكم الله ورضا رسوله. ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فلاتجئن بقولكن خاضعا لينا مثل قول المريبات ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ فجوز وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهي، على أنه نهي مريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ حسنا بعيدا عن الريبة .

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ من وقر يقر وقارا، أو من قَرَّ يقَر ، حذفت الأولى من راءى اقررن ونقلت كسرتها إلي القاف، فاستغنى عن همزة الوصل ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح من قررت أقر وهو لغة فيه، ويحتمل أن يكون من قار يقار إذا اجتمع. ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ ﴾ ولاتبخترن فى مشيتكن . ﴿ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ تبرجا مثل تبرج النساء فى أيام الجاهلية القديمة، وقيل: هى ما بين آدم ونوح ، وقيل: الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال.

والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وقيل : الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام لأبى الدرداء رضى الله عنه «**إن فيك جاهلية ، قال جاهلية كفر أو إسلام قال بل جاهلية كفر**» (٢٢) .

﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سائر ما أمركن به ونهاكن عنه . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم . ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ نصب على النداء أو المدح . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ عن المعاصى . ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير للتنفير عنها .

---

(٢٢) رواه الزمخشري في الكشاف بدون سند ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده عن أبي الدرداء ، وإنما هو في الصحيحين عن أبى ذر ، ولم يقل : جاهلية كفر .

وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضى الله عنهم لما روى **«أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات عدوة وعليه مرط** (٢٣) **مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة رضى الله عنها فأدخلها فيه ، ثم جاء على فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين رضى الله عنهما فأدخلهما فيه ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»** (٢٤) ، والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون إجماعهم حجة ضعيف ، لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت لا أنه ليس غيرهم .

الآيات من ٣٤ : ٣٦

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾

---

(٢٣) المِرْط ـ بكسر الميم وسكون الراء ـ كساء من خز أو صوف أو كتان ويؤتزر به وتتلفع به المرأة .

(٢٤) روي ابن جرير عن أبي هريرة عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ ببرمة قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال : أين ابن عمك وابناك ؟ فقالت رضي الله عنها في البيت . فقال ﷺ : ادعيهم . فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك . قالت أم سلمة رضي الله عنها : فلما رآهم مقبلين مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمني إلي ربه فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ورواه ابن كثير في تفسيره .

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ من الكتاب الجامع بين الأمرين ، وهو تذكير بما أنعم الله عليهم من حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من بُرحَاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الانتهاء والائتمار فيما كلفن به . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك خيركن ووعظن ، أو يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله . ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به . ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ المداومين على الطاعة . ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ فى القول والعمل . ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ على الطاعات وعن المعاصى . ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ بما وجب في مالهم . ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ الصوم المفروض . ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ عن الحرام . ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ بقلوبهم وألسنتهم . ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً ﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرات . ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ على طاعتهم ، والآية وعد لهن ولأمثالهم على الطاعة والتدرع بهذه الخصال . روى : أن أزواج النبى ﷺ قلن : يا رسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به فنزلت . وقيل : لما نزل فيهن ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزلت (٢٥) : وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى ، وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ليس بضرورى ولذلك ترك فى قوله ﴿ مسلمات

---

(٢٥) ذكره السيوطي في لباب النقول « عزاه إلى الترمذي وحسنه من طريق عكرمة عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقال : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أري النساء يذكرن بشيء فنزلت الآية .

قال : وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت النساء: يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله الآية .

مؤمنات ﴾(٢٦) وفائدته الأدلة على أن إعداد المعد لهم للجمع بين هذه الصفات .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ ما صح له . ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ أى قضى رسول الله ، وذكر الله لتعظيم أمره والإشعار بأن قضاءه قضاء الله . لأنه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله (٢٧) . وقيل : فى أم كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبى ﷺ فزوجها من زيد (٢٨) . ﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أن يختاروا من أمرهم شيئاً بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله .

والخيرة ما يُتَخَيَّر جمع الضمير الأول لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما فى سياق النفي ، وجمع الثانى للتعظيم . وقرأ الكوفيون وهشام يكون بالياء .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ بَيِّنَ الانحراف عن الصواب .

الآيات من ٣٧ : ٤٠

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ

---

(٢٦) التحريم : ٥ .

(٢٧) رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته . فقال رسول الله ﷺ : بلى فانكحيه . قالت : يا رسول الله أؤمر في نفسي ؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية على رسول الله ﷺ . قالت : قد رضيته لي يارسول الله منكحا ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قالت: إذًا لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي . ـ تفسير ابن كثير ـ .

(٢٨) رواه ابن كثير في تفسيره أيضا ، وقال : بعد فراقه زينب رضي الله عنها ورواه السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن زيد .

إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾

إبطال عادة الجاهلين في تحريم الزواج من زوجة الابن المتبنى بعد طلاقها أو هلاكه عنها

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لعتقه واختصاصه . ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بما وفقك الله فيه وهو زيد بن حارثة . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب . وذلك : أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت فى نفسه فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرت لزيد ، ففطن لذلك ووقع فى نفسه كراهة صحبتها (٢٩) فأتى النبي عليه

---

(٢٩) لا يوجد في الصحيحين هذا الجزء من الحديث وإنما فيهما ما جاء في البخاري عن أنس أن هذه الآية ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يزوجه من زينب ليبطل بذلك الزواج العادة الجاهلية التي كانت تحرم أن يتزوج الرجل زوجة متبنّاه إذا هلك عنها أو طلقها كأنها كانت حليلة الابن من صلبه .
أما ما ذكرته هذه الرواية من أن النبي ﷺ رآها فوقعت في نفسه فليست في الصحيحين . ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في تخريجه أحاديث الكشاف .
ذكر القرطبي وابن كثيروغيرهما من أئمة التفسير ما رواه ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان : سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ فذكرت له فقال : لا ، ولكن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال : اتق الله وأمسك عليك زوجك . فقال تعالى : قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه » وهكذا رواه السدي . .
وقدر النبي ﷺ يجل عن أن تخطر في قلبه هذه الخطرات التي تنافي العصمة .

الصلاة والسلام وقال : أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : مالك أرابك منها شئ ؟ فقال : لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم علي ، فقال له : أمسك عليك زوجك ، ﴿ واتق الله ﴾ في أمرها فلا تطلقها ضراراً وتعللاً بتكبرها .

﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ وهو نكاحها إن طلقها أو إرادة طلاقها . ﴿ وتخشى الناس ﴾ تعييرهم إياك به . ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ إن كان فيه ما يخشى ، والواو للحال ، وليست المعاتبة على الإخفاء وحده فإنه حسن بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره ، فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه .

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً ﴾ حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها . ﴿ زوجناكها ﴾ وقيل : قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي فيك . وقرئ زوجتكها ، والمعني أنه أمر بتزويجها منه أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد . ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ : إن الله تعالى تولى إنكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن . وقيل : كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد بيّن على قوة إيمانه .

﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ علة للتزويج ، وهو دليل علي أن حكمه وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل ﴿ وكان أمر الله ﴾ أمره الذي يريده ﴿ مفعولاً ﴾ مكوناً لا محالة كما كان تزيج زينب .

﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان ، ومنه فروض العسكر لأرزاقهم .

﴿ سنة الله ﴾ سن ذلك سنة . ﴿ في الذين خلوا من قبل ﴾ من الأنبياء ، وهو نفي الحرج عنهم فيما أباح لهم . ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً .

﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ صفة للذين خلوا ، أو مدح لهم منصوب أو مرفوع ، وقرئ رسالة الله . ﴿ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ تعريض بعد تصريح . ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ على الحقيقة فيثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ، ولا ينتقض عمومه بكونه أبا للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ولو بلغوا كانوا رجاله لا رجالهم . ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أمته لا مطلقاً بل من حيث إنه شفيق ناصح لهم ، واجب التوقير والطاعة عليهم وزيد منهم ليس بينه وبينه ولادة . وقرئ رسول الله بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ولكن بالتشديد على حذف الخبر أى ولكن رسول الله من عرفتم أنه لم يعش له ولد ذكر . ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وآخرهم الذى ختمهم أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح ، ولو كان له ابن بالغ لاق بمنصبه أن يكون نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام فى إبراهيم حين توفي : **لو عاش لكان نبياً**(٣٠) ، ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا نزل كان على دينه ، مع أن المراد منه أنه آخر من نبئ . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة وكيف ينبغى شأنه .

الآيات من ٤١ : ٤٧

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) ﴾

أمر المؤمنين بكثرة ذكر الله وتسبيحه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ يغلب الأوقات ويعم الأنواع بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد .

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أول النهار وآخره خصوصاً ، وتخصيصهما

---

(٣٠) أخرجه ابن ماجه من طريق مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما في أثناء حديث وروي البخاري من حديث ابن أبي أوفى « ولو قضى أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه ، ولكن لا نبي بعده » .

بالذكر للدلالة علي فضلهما على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدة فيها . وقيل الفعلان موجهان إليهما . وقيل المراد بالتسبيح الصلاة .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ بالرحمة . ﴿ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ بالاستغفار لكم والاهتمام بما يصلحكم ، والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمركم وظهور شرفكم مستعار من الصلو . وقيل : الترحم والانعطاف المعنوى مأخوذ من الصلاة المشتملة علي الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ، واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم سيما وهو السبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة . ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة . ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإنافة قدرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين (٣١) .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أو يحيون . ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبور ، أو دخول الجنة . ﴿ سَلامٌ ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيمًا ﴾ وهى الجنة ، ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم .

من أوصاف النبى ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ علي من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهو حال مقدرة . ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً ﴾ (٣٢) .

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته .

---

(٣١) حول نزول هذه الآية أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ قال أبو بكر : يا رسول الله ما أنزل الله عليك خيرا إلا أشركنا فيه ، فنزلت ﴿ هو الذي يصلى عليكم وملائكته ﴾ . ـ لباب النقول ـ .

(٣٢) روي الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً ﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا

﴿ بِإِذْنِه ﴾ بتيسيره وأطلق له من حيث إنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه . ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ يستضاء به عن ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ على سائر الأمم أو على جزاء أعمالهم ، ولعله معطوف على محذوف مثل فراقب أحوال أمتك (٣٣) .

الآيات من ٤٨ : ٥٠

﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ﴾

﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ تهييج له على ما هو عليه من مخالفتهم .

سخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانًا صما وقلوبا غلفا » رواه البخاري ورواه ابن أبي حاتم .

(٣٣) أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا : لما نزلت ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قال رجال من المؤمنين : هنيئا لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية ، وأنزل في سورة الأحزاب ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ .

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ نزل بعدها ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ فقالوا : يا رسول

﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ إيذاءهم إياك ولا تحتفل به ، أو إيذائك إياهم مجازاة أو مؤاخذة على كفرهم ، ولذلك قيل : إنه منسوخ . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه ﴾ فإنه يكفيكهم . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ موكولاً إليه الأمر فى الأحوال كلها ، ولعله سبحانه وتعالى لما وصفه بخمس صفات قابل كلا منها بخطاب يناسبه ، فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له ، وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهى عن مراقبة الكفار ، والمبالاة بأذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه ، والسراج المنير بالاكتفاء به فإن من أناره الله برهانا على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفى به عن غيره (٣٤) .

من التشريعات الاجتماعية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ تجامعوهن ، وقرأ حمزة والكسائى بالف وضم التاء . ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِن عِدَّةٍ ﴾ أيام يتربصن فيها بانفسهن . ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها كقولك : كلته فاكتاله ، أو تعدونها . والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به فما لكم ، وعن ابن كثير تعتدونها مخففاً على إبدال إحدى الدالين بالياء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها ، وظاهرة يقتضى عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة ، وتخصيص

الله قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا ؟ فنزل ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ قال الفضل الكبير : الجنة . ـ أسباب النقول للسيوطي ـ .

(٣٤) وجاء في تفسير الكشاف :

قابل الشاهد بقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ لأن يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم .

وقابل المبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة .

وقابل النذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر ـ والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو آجل ـ كانوا منذرين في المستقبل .

وقابل الداعي إلى الله بتيسيره بقوله ﴿ وتوكل على الله ﴾ لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلا .

المؤمنات والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخييراً لنطفته ، وفائدة ثم إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة . ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أى إن لم يكن مفروضاً لها ، فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة ويجوز أن يؤول التمتيع بما يعمهما، أو الأمر بالمشترك بين الوجوب والندب فإن المتعة سنة للمفروض لها . ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة . ﴿ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ من غير ضرار ولا منع حق ، ، ولا يجوز تفسيره بالطلاق السنى لأنه مرتب على الطلاق ، والضمير لغير المدخول بهن .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن لأن المهر أجر علي البضع ، وتقييد الإحلال له بإعطائها معجلة لا لتوقف الحل عليه بل لإيثار الأفضل له كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية بقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها ، وتقييد القرائب بكونها مهاجرات معه فى قوله : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبى طالب : خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى ، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء (٣٥) .

﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ نصب بفعل يفسره ما قبله أو عطف على ما سبق ، ولا يدفعه التقييد بأن التى للاستقبال فإن المعنى بالاحلال والإعلام بالحل ، أى : أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها لا تطلب مهراً إن اتفق ولذلك نكرها .

واختلف في اتفاق ذلك ، والقائل به ذكر أربعاً : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم . وقرئ أن

---

(٣٥) أخرجه الترمذي والحاكم وابن أبي شيبة وإسحاق والطبري وغيرهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانئ رضي الله عنها .

بالفتح أى لأن وهبت أو مدة أن وهبت كقولك : اجلس ما دام زيد جالساً .

﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ شرط للشرط الأول فى استيجاب الحل فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإردته نكاحها . فإنها جارية مجرى القبول والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبى ﷺ مكرراً ، ثم الرجوع إليه فى قوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله .

واحتج به أصحابنا (٣٦) على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة ، لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ .

والاستنكاح طلب النكاح والرغبة فيه ، وخالصة : مصدر مؤكد أى خلص إحلالها أو إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك ، أو حال من الضمير فى وهبت أو صفة لمصدر محذوف أى هبة خالصة .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ من شرائط العقد ووجوب القسْم والمهر بالوطء حيث لم يسم . ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغى أن يفرض عليهم ، والجملة اعتراض بين قوله : ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ ومتعلقة وهو خالصة للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين فى نحو ذلك لا لمجرد قصد التوسيع عليه ، بل لمعان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما يعسر التحرز عنه . ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بالتوسعة فى مظان الحرج (٣٧) .

---

(٣٦) أصحابنا : يعنى الشافعية .

(٣٧) مما ورد في أسباب نزول هذه الآية غير ما ذكره المؤلف وأخرجه ابن سعد بن عكرمة في قوله ﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ قال : نزلت في أم شريك الدوسية ، وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبى ﷺ وكانت جميلة فقبلها ، فقالت عائشة : ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير ، قالت أم شريك : فأنا تلك ، فسماها الله مؤمنة ، فقال ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ فلما نزلت الآية قالت عائشة : « إن الله يسرع لك في هواك » لباب النقول للسيوطي.

الآيتان من ٥١ : ٥٢

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ تؤخرها وتترك مضاجعتها . ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ وتضم إليك من تشاء وتضاجعها ، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء . قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص ترجى بالياء والمعنى واحد . ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ ﴾ طلبت . ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ طلقت بالرجعة . ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فى شئ من ذلك . ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ ذلك التفويض إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً ، لأن حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهن ، وقرئ تُقَرُّ بضم التاء وأعينَهن بالنصب ، وتُقَر بالبناء للمفعول ، وكلهن تأكيد نون يرضين ، وقرئ بالنصب تأكيداً لهن . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فاجتهدوا فى إحسانه . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بذات الصدور . ﴿ حَلِيمًا ﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقى .

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقى ، وقرأ البصريان بالتاء . ﴿ مِن بَعْدُ ﴾ من بعد التسع وهو فى حقه كالأربع فى حقنا ، أو من بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى ﴿ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى ، ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق . ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ حسن الأزواج المستبدلة ، وهو حال من فاعل تبدل دون مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير ، وتقديره مفروضاً إعجابك بهن .

واختلف في أن الآية محكمة أو منسوخة بقوله : ﴿ **ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء** ﴾ على المعني الثاني فإنه وإن تقدمها قراءة فهو مسبوق بها نزولاً . وقيل : المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأجناس الأربعة اللاتي نص على إحلالهن لك ولا أن تبدل بهن أزواجاً من أجناس أخر . ﴿ **إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء ، وقيل : منقطع . ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا** ﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم (٣٨) .

الآيات من ٥٣ :٥٦

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)** ﴾

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ** ﴾ إلا وقت أن يؤذن لكم أو إلا مأذونا لكم . ﴿ **إِلَىٰ طَعَامٍ** ﴾ متعلق بيؤذن لأنه متضمن معنى يدعى للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما أشعر به قوله : ﴿ **غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ** ﴾ غير منتظرين وقته أو إدراكه حال من فاعل لا

(٣٨) أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : خير النبي ﷺ أزواجه فاخترن الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ . ـ المرجع السابق.

تدخلوا أو المجرور في لكم . وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جارياً من غير من هوله بلا إبراز الضمير ، وهو غير جائز عند البصريين وقد أمال حمزة والكسائى إناه لأنه مصدر أنى الطعام إذا أدرك . ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ تفرقوا ولا تمكثوا ، ولأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لهم . ﴿ وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ لحديث بعضكم بعضاً ، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى : ولا تدخلوا أو لا تمكثوا مستأنسين . ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ ﴾ اللبث . ﴿ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه . ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ من إخراجكم بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعنى أن إخراجكم حق فينبغى أن لا يترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيي فأمركم بالخروج، وقرئ لا يستحى بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء . ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ شيئاً ينتفع به . ﴿ فَاسْأَلُوهُنَّ ﴾ المتاع . ﴿ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ستر . روى « **أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت** (٣٩) » وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه ، فأصابت يد رجل يد عائشة رضى الله عنها فكره النبى ﷺ ذلك فنزلت (٤٠) . ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من الخواطر النفسانية الشيطانية . ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ وما صح لكم . ﴿ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أن تفعلوا ما يكرهه . ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ من بعد وفاته

---

(٣٩) متفق عليه من حديثين ، هذا أحدهما أخرجه النسائى والبخاري في الأدب المفرد والطبراني في الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت :كنت آكل مع النبي ﷺ حَيْسًا في قصعة فمر عمر فدعاه فأكل ، فأصابت أصبعه أصبعي ، فقال عمر : أواه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين ، فنزل الحجاب .

ورواه ابن أبي شيبة والطبري عن طريق مجاهد مرسلا .

(٤٠) راجع التعليق السابق .

أو فراقه (٤١) .

وخص التي لم يدخل بها ، لما روى أن أشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر رضي الله عنه فهم برجمها ، فأخبر بانه عليه الصلاة والسلام فارقها قبل أن يمسها فتركها من غير نكير . ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني إيذاءه ونكاح نسائه . ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ ذنباً عظيماً ، وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب لحرمته حياً وميتاً ، ولذلك بالغ في الوعيد عليه فقال :

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً﴾ كنكاحهن على السنتكم . ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم . ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فيعلم ذلك فيجازيكم به ، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ استثناء لمن لا يجب الاحتجاب عنهم . روى : أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء حجاب فنزلت . وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا في قوله ﴿واله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ (٤٢) أو لأنه كره ترك الاحتجاب عنهما مخافة أن يصفا لأبنائهما . ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يعني نساء المؤمنات . ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء ، وقيل من الإماء خاصة وقد مر في سورة النور . ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ لا يخفى عليه خافية .

منزلة الصلاة على النبي ﷺ

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه .

---

(٤١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : بلغ النبي ﷺ أن رجلا يقول : لو قد توفي النبي ﷺ تزوجت فلانة من بعده فنزلت : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ... ﴾ الآية
وأخرج عن السدي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فزلت الآية .
وطلحة بن عبيد الله المذكور في هذا الخبر ليس هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولكنه رجل غيره بهذا الاسم ـ راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ .

(٤٢) البقرة : ١٣٣ .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ** ﴾ اعتنوا أنتم أيضاً فإنكم أولى بذلك وقولوا اللهم صل على محمد . ﴿ **وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ وقولوا السلام عليك أيها النبى وقيل انقادوا لأوامره، والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه فى الجملة وقيل تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي** (٤٣) » وقوله «**من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار فأبعده الله**(٤٤) » وتجوز الصلاة على غيره تبعاً وتكره استقلالاً ، لأنه فى العرف صار شعاراً لذكر الرسول ﷺ ، ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلا .

الآيات من ٥٧ : ٦٢

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)** ﴾

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصى ، أو يوذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم شاعر مجنون ونحو ذلك وذكر الله للتعظيم له . ومن جوز إطلاق اللفظ على معنيين فسره بالمعنيين باعتبار المعمولين . ﴿ **لَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ أبعدهم من رحمته . ﴿ **فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا**

---

(٤٣) رواه السيوطي في الجامع الصغير بأطول من هذا جـ ٢ ص ٢٥ من حديث الترمذي والحاكم عن أبي هريرة .

(٤٤) رواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٧٧ بلفظ « من ذكرت عنده فخطئ الطلاة على خطئ طريق الجنة » من حديث الطبراني في الكبير عن الحسين ، وفي رواية : من ذكرت عنده فلم يصل علي فقد شقى أخرجه ابن السني عن جابر .
والحديث بلفظه الذي ذكره المصنف رواه ابن حبان من حديث أبي هريرة وله بقية .

﴿ مُّهِينًا ﴾ يهينهم مع الإيلام .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ بغير جناية استحقوا بها الإيذاء . ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ظاهراً . وقيل إنها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون علياً رضى الله عنه ، وقيل : في أهل الإفك (٤٥) ، وقيل فى زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحفهن إذا برزن لحاجة ، ومن للتبعيض فإن المرأة ترخى بعض جلبابها وتتلفع ببعض ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ يميزن من الإماء والقينات . ﴿ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما سلف . ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها (٤٦) .

تهديد للمنافقين والكافرين

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عن نفاقهم . ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه ، أو فجور عن تزلزلهم فى الدين أو فجورهم . ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يرجفون أخبار السوء عن سرايا المسلمين ونحوها من إرجافهم ، وأصله التحريك من الرجفة وهى الزلزلة سمى به الإخبار الكاذب لكونه متزلزلاً غير

---

(٤٥) رواه السيوطي في لباب النقول عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤٦) أخرج البخاري عن عائشة قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفي على من يعرفها ، فرآها عمر فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق ، فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا . قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه ، وإن العرق في يده وما وضعه . فقال : إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن .

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال : كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين ، فشكوا ذلك ، فقيل ذلك للمنافقين فقالوا : فما نفعله بالإماء فنزلت هذه الآية . ـ لباب النقول ـ .

ثابت . ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء .﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ عطف على لنغرينك ، وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول أعظم ما يصيبهم . ﴿ فِيهَا ﴾ في المدينة . ﴿ إِلا قَلِيلاً ﴾ زماناً أو جواراً قليلاً .

﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ نصب على الشتم أو الحال والاستثناء شامل له أيضاً أي : لا يجاورونك إلا ملعونين ، ولا يجوز أن ينصب عن قوله : ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ مصدر مؤكد أى سن الله ذلك فى الأمم الماضية ، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسعوا فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا . ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ لأنه لا يبدله ولا يقدر أحد يبدلها .

الآيات من ٦٣ : ٧٠

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ عن وقت قيامها استهزاء وتعنتاً أو امتحاناً ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ شيئاً قريباً أو تكون الساعة عن قريب وانتصابه على الظرف ، ويجوز أن يكون التذكير لأن الساعة فى معنى اليوم ، وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ ناراً شديدة الاتقاد .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحفظهم . ﴿ وَلا نَصِيرًا ﴾ يدفع العذاب عنهم .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار ، أو من حال إلي حال ، وقرئ تقلب بمعنى تتقلب وتقلب ومتعلق الظرف . ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ فلن نبتلي بهذا العذاب .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر ، وقرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا علي جمع الجمع للدلالة على الكثرة . ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾ بما زينوا لنا .

﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ مثلى ما آتيتنا منه لأنهم ضلوا وأضلوا . ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ كثير العدد ، وقرأ عصام بالباء أى لعناً هو أشد اللعن وأعظمه .

تحذير من إيذاء رسول الله ﷺ كما آذى اليهود موسى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ فأظهر براءته من مقولهم يعني مؤداه ومضمونه ، وذلك أن قارون حرض امرأة على قذفه بنفسها فعصمه الله كما مر في القصص ، أو اتهمه ناس بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك ، فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول . وقيل أحياه الله فأخبرهم ببراءته ، أو قذفوه بعيب فى بدنه من برص أو أُدْرَة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله علي أنه برىء منه (٤٧) . ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا قربة ووجاهة ، وقرئ وكان عبد الله وجيهاً .

---

(٤٧) روى البخاري عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة ـ والأدرة غلظ الخصية ـ وإما آفة وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام ـ فخلا يوما وحده ، فخلع ثيابه على حجر فاغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر حتى أنتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرآه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل ، وبرأه مما

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذى رسوله، ﴿ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ قاصداً إلى الحق من سد يسد سداداً ، والمراد النهى عن ضده كحديث زينب من غير قصد .

الآيات من ٧١ : ٧٣

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة ، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الأوامر والنواهي . ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً .

الإنسان وحمل الأمانة

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة ، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء ، والمعني أنها لعظمة شأنها بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته لاجرم فإن الراعى لها والقائم بحقوقها بخير الدارين . ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها . ﴿ جَهُولاً ﴾ بكنه عاقبتها ، وهذا وصف للجنس باعتبار الأغلب . وقيل : المراد

يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم .

بالأمانة الطاعة التى تعم الطبيعية والاختيارية ، ويعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره ، ويحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل الأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فتبرأ ذمته ، فيكون الإباء عنه إتياناً بما يمكن أن يتأتى منه والظلم والجهالة الخيانة والتقصير .

وقيل : إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال لها إنى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ، وناراً لمن عصاني ، فقلن نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً ، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله ، وكان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبته، ولعل المراد بالأمانة العقل أو التكليف ، وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن، وبإبائهن الإباء الطبيعى الذي هو عدم اللياقة والاستعداد ، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية ، وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدى ومجاوزة الحد ، ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما .

﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ تعليل للحمل من حيث إنه نتيجة كالتأديب للضرب فى ضربته تأديباً ، وذكر التوبة فى الوعد إشعار بأنهم كونهم ظلوماً جهولاً فى جبلتهم لا يخليهم عن فرطات ، **﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾** حيث تاب عن فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعتهم .

فضل سورة الأحزاب

قال عليه الصلاة والسلام : **«من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله أو ما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر»** (٤٨) .

---

(٤٨) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ، وعلق عليه الحافظ ابن حجر بقوله : أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢٤) سورة سبأ مكية(١)

وقيل إلا قوله : ويري الذين أوتو العلم الآية ، وآيها أربع وخمسون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الآيات من ١ : ٣

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَهُ مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ في الآخرَة وَهُوَ الْحَكيمُ الْخَبيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ منْهَا وَمَا ينزلُ منَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فيهَا وَهُوَ الرَّحيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لا تَأْتينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتيَنَّكُمْ عَالمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَوَات وَلا في الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ من ذَلكَ وَلا أَكْبَرُ إلاَّ في كتَابٍ مُّبينٍ (٣) ﴾

الحمد المطلق لله وحده

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَهُ مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأَرْضِ ﴾ خلقا ونعمة ، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وعلي تمام نعمته . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ في الآخرَة ﴾ لأن ما في الآخرة أيضا كذلك ، وليس هذا من عطف المقيد علي المطلق فإن الوصف بما يدل علي أنه المنعم بالنعم الدنيوية قيد الحمد بها ، وتقديم الصلة للاختصاص فإن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة . ﴿ وَهُوَ الْحَكيمُ ﴾ الذي أحكم أمور الدارين . ﴿ الْخَبيرُ ﴾ ببواطن الأشياء .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلجُ في الأَرْضِ ﴾ كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ منْهَا ﴾ كالحيوان والنبات والفلزات وماء العيون . ﴿ وَمَا ينزلُ منَ السَّمَاءِ ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والأنداء والصواعق . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فيهَا ﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة

---

(١) في تفسير الجلالين مكية إلا آية (٢) فمدنية وآياتها ٥٤ ، أو ٥٥ آية وفي مختلف التفاسير : نزلت بعد سورة لقمان .

والأدخنة . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ للمفرطين في شكر نعمته مع كثرتها ، أو في الآخرة مع ماله من سوابق هذه النعم الفائتة للحصر .

قسم علي قيام الساعة لتأكيدها

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به . ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه . ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ تكرير لإيجابه مؤكدا بالقسم مقررا للوصف المقسم به بصفات تقرر إمكانه وتنفي استبعاده علي ما مر غير مرة (٢) وقرأ حمزة والكسائي علام الغيب للمبالغة ، ونافع وابن عمر ورويس عالم الغيب بالرفع علي أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ وقرأ الكسائي لا يعزب بالكسر . ﴿ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ جملة مؤكدة لنفي العزوب ، ورفعها بالابتداء ويؤيده القراءة بالفتح علي نفي الجنس، ولا يجوز عطف المرفوع علي مثقال والمفتوح علي ذرة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف لأن الاستثناء يمنعه ، اللهم إلا إذا جعل الضمير في عنه للغيب وجعل المثبت في اللوح خارجا عنه لظهوره علي المطالعين له فيكون المعني لا ينفصل عن الغيب شئ إلا مسطورا في اللوح .

الآيات من ٤ : ٨

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

---

(٢) في القرآن الكريم ثلاثة مواضع أمر الله فيها نبيه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد
الآية الأولى: في سورة يونس ﴿ ويستنبئونك أحق هو إي وربي إنه لحق ﴾ الآية رقم ٥٣
والآية الثانية : هذه .
والآية الثالثة في سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ﴾ . الآية رقم ٧ .

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ علة لقوله لتأتينكم وبيان لما يقتضي إتيانها . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تعب فيه ولا من عليه .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ بإبطال وتزهيد الناس فيها . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين كي يفوتونا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين أي مثبطين عن الإيمان من إرادة . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ ﴾ من سيء العذاب . ﴿ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ورفعه ابن كثير ويعقوب وحفص .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم من الأمة ، أو من مسلمي أهل الكتاب . ﴿ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ ومن رفع الحق جعل هو مبتدأ والحق خبره والجملة ثاني مفعولي يري، وهومرفوع مستأنف للاستشهاد بأولي العلم علي الجهلة الساعين في الآيات . وقيل : منصوب معطوف علي ليجزي أى وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق عيانا كما علموه الآن برهانا ﴿ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الذي هو التوحيد والتدرع بلباس التقوي .

استبعاد الكفار البعث وسخريتهم من القائل به

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال بعضهم لبعض . ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾ يعنون محمدا عليه الصلاة والسلام .

﴿ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ يحدثكم بأعجب الأعاجيب . ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إنكم تنشؤون خلقا جديدا بعد أن تُمزَّقَ أجسادكم كلَّ تمزيق وتفريق بحيث تصير ترابا ، وتقديم الظرف للدلالة علي البعد والمبالغة فيه ، وعامله محذوف دل عليه ما بعده ، فإن ما قبله لم يقارنه وما بعده مضاف إليه ، أو محجوب بينه وبينه بأن وممزق يحتمل أن يكون مكانا بمعني إذا مزقتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحتم كل مطرح وجديد بمعني فاعل من جد كحديد من حد ، وقيل : بمعني مفعول من جَدَّ النساجُ الثوبَ إذا قطعه .

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه علي لسانه ، واستدل بجعلهم إياه قسيم الافتراء غير معتقدين صدقه علي أن بين الصدق والكذب واسطة ، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه ، وضَعْفُهُ بَيِّنٌ لأن الافتراء أخص من الكذب .

﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ رد من الله تعالي عليهم ترديدَهم وإثبات لهم ما هو أفظع من القسمين ، وهو الضلال البعيد عن الصواب بحيث لا يرُجي الخلاص منه وما هو مؤداه من العذاب ، وجعله رسيلا له في الوقوع ومقدما عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له ، والبعد في الأصل صفة الضال ووصف الضلال به علي الإسناد المجازي .

الآيات من ٩ : ١٢

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ تذكير بما يعاينونه مما يدل علي كمال قدرة الله وما يحتمل فيه إزاحة لا ستحالتهم الإحياء حتي جعلوه افتراء وهزؤا ، وتهديدا عليها والمعني أعموا فلم ينظروا إلي ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا ؟ أهم أشد خلقا ، أم السماء ؟ وإنا إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا ، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات . وقرأ حمزة والكسائى يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله : أفتري علي الله . والكسائى

وحده بإدغام الفاء في الباء وحفص كسفا بالتحريك ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ النظر والتفكر فيهما وما يدلا ن عليه . ﴿ لَآيَةً ﴾ لدلالة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلي ربه فإنه يكون كثير التأمل في أمره .

من قصص الأنبياء السابقين للتسرية عن النبي ﷺ

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ أي علي سائر الأنبياء وهو ما ذكر بعد ، أو علي سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن . ﴿ يَا جِبَالُ

*** الإعجاز العلمي**

أشار القرآن الكريم إلى أهمية وجود الفلزات في الكون في زمن تنزيل القرآن الكريم وأشار صراحة إلى أربعة فلزات هي الحديد والنحاس والذهب والفضة بل جعل سورة كاملة باسم « الحديد » وذلك لأهمية هذا الفلز في كثير من شئون الحياة البشر .

وقد أشار القرآن الكريم إلى استخلاص الفلزات في قوله تعالى : ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله... ﴾ في سورة الرعد الآية رقم ١٧ .

وفي هذه الآية إشارة صريحة أن استخلاص الفلزات من معادنها يتم بصهرها في أفران خاصة حيث يتم رفع درجة الحرارة فيها إلى الدرجة التي تنصهر عندها الخامات المعدنية التي تحتوي على هذه الفلزات والشوائب والمواد غير المرغوب فيها والتي تعرف باسم الخبث أو الزبد وهي التي تطفو على سطح المادة المنصهرة حينما يتجمع الفلز في القاع حيث يمكن سحبه على فترات لتعطي صوراً وأشكالاً مختلفة من الأدوات التي يمكن للإنسان أن يستخدمها فى شئون حياته وقد عبر القرآن في زمن التنزيل عن ذلك بأسلوب بلاغي جميل حيث يقول سبحانه وتعالى .

﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ الرعد الآية رقم ١٧ .

وفي الآية الكريمة التي بين أيدينا الآن وهي الآية رقم ١٠ من سورة سبأ يتحدث القرآن الكريم عن معدن الحديد وهو ذو بأس شديد ومنافع للناس وتمتاز سبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوته الدرجات في مجال الحرارة والشد وفي تقبل المرونة المغناطيسية ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وسوف نتكلم عنه عند استعراض صورة الحديدة بإذن الله تعالى .

والإعجاز العلمي هنا في هذه الآية في أمرين :

أولهما : في الإشارة إلى هذا الفلز بعينه ودون غيره من الفلزات في عصر التنزيل . وهذه إشارة مبكرة في عمر الإنسان إلى ما سوف يصل إليه هذا الفلز في عصرنا هذا من

أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ رجعي معه التسبيح أو النَّوْحَةَ علي الذنب ، وذلك إما بخلق صوت مثل صوته فيها أو بحملها إياه علي التسبيح إذا تأمل ما فيها ، أو سيري معه حيث سار . وقرئ أوبي من الأوب أى ارجعي في التسبيح كلما رجع فيه ، وهو بدل من فضلا أو من آتينا بإضمار قولنا أو قلنا . ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ عطف علي محل الجبال ويؤيده القراء ة بالرفع عطفا علي لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية أو علي فضلا ، أو مفعول معه لأوبي وعلي هذا يجوز أن يكون الرفع بالعطف علي ضميره وكان الأصل : ولقد آتينا داود منا فضلا : تأويب الجبال والطير ، فبدل بهذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة علي عظم شأنه وكبرياء سلطانه ، حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيه . ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بإلانته أو بقوته .

﴿ أَنِ اعْمَلْ ﴾ أمرناه أن اعمل فأن مفسرة أو مصدرية . ﴿ سَابِغَاتٍ ﴾ دروعاً واسعات ، وقرئ صابغات وهو أول من اتخذها . ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ وقدر في نسجها بحيث يتناسب حلقها ، أو قدر مساميرها فلا تجعلها دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتنخرق ورُدَّ بأن دروعه لم تكن مسمرة ، ويؤيده قوله ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ . ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ الضمير فيه لداود وأهله . ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فأجازيكم عليه .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ أي وسخرنا له الريح ، وقرئ الريح بالرفع أي ولسليمان الريح مسخرة وقرئ الرياح . ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وبالعشي كذلك ، وقرئ غدوتها وروحتها . ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ

* **الإعجاز العلمي**

أهمية في الحروب وفي غيرها من استخدامات .

والأمر الثاني : التعبير عنه بقوله ﴿ وألنا له الحديد ﴾

فلم يقل القرآن أن سيدنا داود عليه السلام هو الذي قام بتشكيل الحديد بقوته هو حيث لم يكن في وقته من العلم والتكنولوجيا ما يمكنه من ذلك ولكن الله أعطاه من الأسباب وأخضع له هذا الفلز بأمرتسخيري من عند الله أن يلين لسيدنا داود فيتحكم فيه كيف يشاء فنلاحظ أن تعبير القرآن في هذه الآية دقيق للغاية .

﴿ الْقِطْرِ ﴾ النحاس المذاب أساله له من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سماه عينا وكان ذلك باليمن . ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ عطف علي الريح ومن الجن حال مقدمة ، أو جملة من مبتدأ وخبر .

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بأمره . ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ ﴾ ومن يعدل منهم . ﴿ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ عما أمرناه من طاعة سليمان . وقرئ يزغ من أزاغه . ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ عذاب الآخرة .

الآيات من ١٣ : ١٥

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها (٣) ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ وصورا هي تماثيل للملائكة والأنبياء علي ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم وحرمة التصاوير شرع مجدد . روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما . ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ وصحاف . ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية وهي من الصفات الغالبة كالدابة . ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ ثابتات علي الأثافي (٤) لا تنزل عنها لعظمها . ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ حكاية عما

---

(٣) وفي تفسير ابن كثير : المحاريب : المساجد مفردها محراب .

(٤) الأثافيُّ : الأحجار التي توضع فوقها القدر ويحمى عليها ، وهي أحجار ثلاثة وأحدها: أثفية .

قيل لهم ، وشكرا نصب علي العلة أي : اعملوا له واعبدوه شكرا ، أو المصدر لأن العمل له شكرا أو الوصف له أو الحال أو المفعول به . ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ المتوفر علي أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفي حقه ، لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر لا إلي نهايته ، ولذلك قيل : الشكور من يرعي عجزه عن الشكر (٥) .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى علي سليمان . ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﴾ ما دل الجن وقيل آله . ﴿ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ ﴾ أى الأرضة أضيفت إلي فعلها ، وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال : أرضت الأرضة الخشبة أرضا فأرضت أرضًا مثل أكلت القوادح (٦) الأسنان أكلا فأكلت أكلا .

---

(٥) مما جاء في فضل الشكر علي النعم

أورد أبو الليث السمرقندي في كتابه تنبيه الغافلين عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يجئ مناد فينادي بصوت يسمعه الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ليقم الذين تتجافي جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم ينادي : ليقم الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ، ثم ينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الناس » ـ تنبيه الغافلين ص ٣٤٨ .

وذكر من دعاء داود عليه السلام قال :

كان من دعاء داود : اللهم إني أسألك أربعة وأعوذ بك من أربعة ، أما اللواتي أسألك : فلسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا صابرا، وزوجة تعينني في دنياي وآخرتي .

وأما اللواتي أعوذ بك منهن : فأعوذ بك من ولد يكون على سيدا ، ومن امرأة تشيبني قبل وقت المشيب ، ومال يكون عذابا لي ، ومن جار لو رأى مني حسنة كتمها ، ولو رأي مني سيئة أفشاها » .

وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود : كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود : كان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر إذا لاقى » . ـ تفسير ابن كثير .

(٦) القوادح : جمع قادحة وهي السوسة تدب في الأسنان والشجر والخشب ـ المعجم الوسيط .

﴿ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها ، وقرئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلبا وحذفًا علي غير قياس إذ القياس إخراجها بين بين ، ومنساءته علي مفعالة كميضاءة في ميضاة ، ومن سأته أي طرف عصاه مستعار من سأت القوس[٧] ، وفيه لغتان كما في قحة وقحة [٨] وقرأ نافع وأبو عمرو منساته بألف بدل من الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة وحمزة إذا وقف جعلها بين بين .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ علمت الجن بعد التباس الأمر عليهم . ﴿ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع ، فلم يلبثوا حولاً فى تسخيره إلى أن خر ، أو ظهرت الجن ، وأن بما فى حيزه بدل منه ، أى ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب .

وذلك أن داود أسس بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليهما الصلاة والسلام فمات قبل تمامه ، فوصى به إلى سليمان عليه السلام ، فاستعمل الجن فيه فلم يتم بعد إذ دنا أجله وأُعْلم به ، فأراد أن يعمى عليهم موته ليتموه فدعاهم ، فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها ، فبقى كذلك حتى أكلتها الأرضة فخر ، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه .

قصة سبأ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومنع الصرف عنه ابن كثير وأبو عمرو لأنه صار اسم القبيلة ، وعن ابن كثير قلب همزته

---

(٧) سَأَة القوس : في الصحاح : سية وهي ما عطف من طرفيها ، وبعضهم يهمزها وسائرهم لا يهمزونها .

(٨) قحة : يقال : وَقَحَ حافر الدابة يقح قِحَةً بكسر القاف وقَحة بفتح القاف كسَعَة وعِدة .. إذا صلبُ فهو واقح ـ المعجم الوسيط .

الفا ولعله أخرجه بين بين فلم يؤده الراوي كما وجب . ﴿ فِي مَسْكَنِهِمْ ﴾ في مواضع سكناهم ، وهي باليمن يقال لها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وقرأ حمزة وحفص بالإفراد والفتح ، والكسائى بالكسر حملا علي ما شذ من القياس كالمسجد والمطلع . ﴿ آيَةٌ ﴾ علامة دالة علي وجود الصانع المختار ، وأنه قادر علي ما يشاء من الأمور العجيبة مجاز للمحسن والمسيئ معاضدة للبرهان السابق كما في قصتي داود وسليمان عليهما السلام . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ بدل من آية أو خبر محذوف تقديره الآية جنتان ، وقرئ بالنصب علي المدح والمراد جماعتان من البساتين . ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة منهما في تقاربها وتضامنها كأنها جنة واحدة ، أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله . ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ حكاية لما قال لهم نبيهم ، أو لسان الحال ، أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك . ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ استئناف للدلالة علي موجب الشكر ، أى هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فَرَطات من يشكره . وقرأ الكل بالنصب علي المدح ، قيل : كانت أخصب البلاد وأطيبها(٩) لم يكن فيها عاهة ولا هامة .

الآيات من ١٦ : ١٩

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(٩) مما يدل على خصبها أن المرأة كانت تخرج وعلى رأسها المكتل وفي يدها المغزل ، فتعمل بيدها وتسير بين الشجر فتعود وقد امتلأ المكتل من أنواع الثمر الذي يتساقط وهي سائرة . من تفسير الكشاف .

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عن الشكر . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ سيل الأمر الْعَرِم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم ، وعرم إذا شرس خلقه وصعب ، أو المطر الشديد أو الْجُرَذَ (١٠) أضاف إليه السيل لأنه نقب عليهم سكرا (١١) ضربته لهم بلقيس فحقنت به ماء الشجر وتركت فيه ثقبا علي مقدار ما يحتاجون إليه ، أو المسناة (١٢) التي عقدت سِكْرا علي أنه جمع عرمة وهي الحجارة المركومة . وقيل : اسم الوادي الذي جاء السيل من قبله ، وكان ذلك بين عيسي ومحمد عليهما الصلاة السلام(١٣) ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ثمر بشع فإن الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة ، وقيل الأراك أو كل شجر لا شوك له ،

---

(١٠) الجرذ ـ بضم الجيم وفتح الراء ـ ضرب من الفأر ـ الصحاح .

(١١) سكرًا : يقال سكرت النهر سِكرا إذا سددته ، والسِّكْر : السَّد .

(١٢) المُسَنَّاةَ : هي الحجارة المركومة التي صنعت السد ، وفي المعجم الوسيط : المُسَنَّاةَ ـ بضم الميم وفتح السين وتشديد النون ـ سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر ، به مفاتيح تفتح على قدر الحاجة .

(١٣) عن محمد بن إسحاق قال : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمى سبأ لأنه أول سبأ ـ بمعنى خبت إلى الله ورجع عن وثنيته ـ وقد ذكر أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم ، وقال في ذلك شعرًا جاء فيه

ويملك بعد قحطانٍ نبيٌّ — تقي مُخبتٌ خير الأنام
يسمَّى أحمدًا ياليت أني — أُعَمَّرُ بعد مبعثه بعـــام
فأعضده وأحبوه بنصري — بكل مُدَجَّج وبكل رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه — ومن يلقاه يبلغه سلامي

ذكر ذلك الهمذاني في كتاب الإكليل

وسبأ هذا كان من نسله عشرة هم أصول قبائل اليمن : روي الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال : « بل هو رجل ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام ، وعاملة وغسان .

مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢٩ .

والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلا ، أو عطف بيان . ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ معطوفان علي أكل لا علي خمط ، فإن الأثل هو الطرفاء ولا ثمر له ، وقرئا بالنصب عطفا علي جنتين ووصف السدر بالقله فإن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين ، وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم، وقرأ أبو عمرو ذاتي أكل بغير تنوين اللام وقرأ الحرميان بتخفيف أكل .

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ بكفرانهم النعمة أو بكفرهم بالرسل ، إذ روي أنه بعث إليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم ، وتقديم المفعول للتعظيم لا للتخصيص . ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ وهل يجازي بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في الكفران أو الكفر . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص نجازي بالنون والكفور بالنصب .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالتوسعة علي أهلها وهي قري الشأم . ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ متواصلة يظهر بعضها للبعض ، أو راكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل . ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ بحيث يقيل الغادي في قرية ويبيت الرائح في قرية إلي أن يبلغ الشام . ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ علي إرادة القول بلسان الحال أو المقال . ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ متي شئتم من ليل أو نهار . ﴿ آمِنِينَ ﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات ، أو سيروا آمنين وإن طالت مدة سفركم فيها، أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ أشروا النعمة ، وملُّوا العافية كبني إسرائيل ، فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها علي الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد فأجابهم الله بتخريب القري المتوسطة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهاشم بعد ، ويعقوب ربنا باعد بلفظ الخبر علي أنه شكوي منهم لبعد سفرهم إفراطا في الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه ، ومثله قراءة من قرأ ربنا بعد أو بعد علي النداء وإسناد الفعل إلي بين . ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث الناس بهم تعجبا وضرب مثل فيقولون : تفرقوا أيدي سبأ . ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ففرقناهم غاية التفريق حتي لحق غسان منهم بالشأم ، وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة، والأزد بعمان. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر . ﴿ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ عن المعاصي . ﴿ شَكُورٍ ﴾ علي النعم .

الآيات من ٢٠ : ٢٢

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلته جهدك ، ويجوز أن يعدي الفعل إليه بنفسه كما في « صدق وعده » لأنه نوع من القول ، وشدده الكوفيون بمعني حقق ظنه أ و وجده صادقا ، وقرئ بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعني وجد ظنه صادقا ، والتخفيف بمعني قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم ، وبرفعهما والتخفيف علي الأبدان وذلك إما ظنه بسبأ حين رأي أنهماكهم في الشهوا ت ، أو ببني آدم حين رأي أباهم النبي (١٤) ضعيف العزم ، أو ما ركب فيهم من الشهوة والغضب ، أو سمع من الملائكة قولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ (١٥) فقال : ﴿ لأضلنهم ﴾(١٦) ﴿ ولأغوينهم ﴾(١٧) ﴿ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه، وتقليلهم بالإضافة إلي الكفار ، أو إلا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه في العصيان وهم المخلصون .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء . ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقا يترتب عليه الجزاء ، أو ليتميز المؤمن من الشاك ، أو ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله ، والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة ، في نظم

---

(١٤) يعنى آدم عليه السلام ، وقد قال الله تعالى في حقه ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ طه : ١١٥ .

(١٥) البقرة : ٣٠ . (١٦) النساء : ١١٩ (١٧) الحجر : ٣٩ .

الصلتين نكتة لا تخفي . ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ محافظ والزنتان متآخيتان (١٨) .

تحدي المشركين وخذلاتهم

﴿ قُلِ ﴾ للمشركين . ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾أي زعمتموهم آلهة ، وهما مفعولا زعم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه ، ولا يجوز أن يكون هو مفعوله الثاني لأنه لا يلتئم مع الضمير كلاما ولا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه . ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم ، ثم أجاب عنهم إشعارا بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال : ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير أو شر . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ في أمر ما وذكرهما للعموم العرفي ، أ و لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام ، أو لأن الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم . ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ من شركة لا خلقًا ولا ملكًا . ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ يعينه علي تدبير أمرهما .

الآيات من ٢٣ : ٢٨

﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

---

(١٨) جاء في أسباب نزول هذه الآيات :

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال : حدثني فلان أن فروة بن مسبك الغطفاني قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز ، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفاقاتلهم ؟ فقال : ما أمرت فيهم بشيء ، فأنزلت ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم ﴾ الآيات . لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي .

الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾

﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ ﴾ فلا ينفعهم شفاعة أيضا كما يزعمون إذ لا تنفع الشفاعة عند الله . ﴿ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾أذن له أن يشفع ، أوأذن أن يشفع له لعلو شأنه ولم يثبت ذلك ، واللام علي الأول كاللام في قولك : الكرم لزيد وعلي الثاني كاللام في قولك : جئتك لزيد ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بضم الهمزة . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفا وانتظارا للإذن أى : يتربصون فزعين ، حتي إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن .

وقيل : الضمير للملائكة وقد تقدم ذكرهم ضمنا . وقرأ ابن عامر ويعقوب فزع علي البناء للفاعل . وقرئ فرغ أي نفي الوجل من فرغ. الزاد إذا فني . ﴿ قَالُوا ﴾ قال بعضهم لبعض . ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ في الشفاعة . ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ قالوا قال القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضي وهم المؤمنون ، وقرئ بالرفع أى مقوله الحق . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه .

الله تعالي هو المنفرد برزق عباده فهو وحده المستحق للعبادة

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يريد به تقرير قوله ﴿ لا يملكون ﴾ (١٩) ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ إذ لا جواب سواه ، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام فهم مُقِرُّون بهم بقلوبهم . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وإن أحد الفريقين من الموحدين المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية بالعبادة ، والمشركين به الجماد النازل في أدني المراتب الإمكانية لعلي أحد الأمرين من الهدي والضلال المبينين ، وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال علي من هو علي الهدي ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم المشاغب ، ونظيره قول حسان :

---

(١٩) الرعد : ١٦ ، النساء : ٥٦ ، النبأ : ٣٧ .

أتهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بكفْءٍ فشرُّكُمَا لِخَيْرِكمَا الفِدَاءُ (٢٠)

وقيل إنه علي اللف والنشر وفيه نظر ، واختلاف الحرفين لأن الهادي كمن صعد منارا ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جوادا يركضه حيث يشاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يري شيئا أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصي (٢١) منها .

﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ في [الإفحام] (٢٢) حيث أسند الإجرام إلي أنفسهم والعمل إلي المخاطبين .

---

(٢٠) قاله حسان في قصيده يرد بها على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

قال معلق تفسير الكشاف حول هذه الآية :

لما ألزمهم الحجة في قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة ... ﴾ الآية وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ـ أمره أن يقول : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين

ومعناه أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، وهو من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به : قد أنصفك صاحبك . والتعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفَلِّ شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : الله يعلم الصادق مني ومنك ، وإن أحدنا لكاذب . ومنه قول حسان : البيت . .

قال أحمد : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب رددته على سمعي فزاد رونقا بالترديد ، واستعادة الخاطر كأني بطئ الفهم حين يفيد ، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم ، وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإسلام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فتأمله والله الموفق.

(٢١) يتفصَّى منها : يتخلق منها .

(٢٢) الكلمة التي بين القوسين جاءت في الأصل (الإخبات) ، وجاءت في تفسير الكشاف والتعليق عليه : وأبلغ فيه من الأول .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة . ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار . ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ الحاكم الفاصل في القضايا المتغلقة . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقتضي به .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ لأري بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة ، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم زيادة في تبكيتهم . ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة . ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة ، وهؤلاء الملحقون به متسمون بالذلة متأبية عن قبول العلم والقدرة رأسا ، والضمير لله أو للشأن .

عمومية رسالة النبي ﷺ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلا إرسالة عامة لهم من الكف فإنها إذا عمتهم قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم ، أو إلا جامعا لهم في الإبلاغ فهي حال من الكاف والتاء للمبالغة ، ولا يجوز جعلها حال من الناس علي المختار . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيحملهم جهلهم علي مخالفتك .

الآيات من ٢٩ : ٣٣

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم . ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالي ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ (٢٣) ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يخاطبون به رسول الله ﷺ والمؤمنين .

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ وعد يوم أو زمان وعد ، وإضافته إلي اليوم للتبيين ويؤيده أنه قرئ يوم علي البدل ، وقرئ يوم باضمار أعني . ﴿ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إذا فاجأكم وهو جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار .

محاورة بين المكذبين وأتباعهم يوم القيامة

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب الدالة علي النعت . قيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك ، وقيل الذي بين يديه يوم القيامة ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في موضع المحاسبة .

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول . ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ يقول الأتباع . ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ للرؤساء . ﴿ لَوْلا أَنتُمْ ﴾ لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ باتباع الرسول صلي الله عليه وسلم .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذي صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدي وآثروا التقليد عليه ، ولذلك بنوا الإنكار علي الاسم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ إضراب عن إضرابهم أي : لم يكن إجرامنا الصاد بل مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا حتي أعورتم(٢٤) علينا رأينا . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾

---

(٢٣) الرعد : ٢٦ .

(٢٤) أعورتهم : أفسدتم .

والعاطف يعطفه على كلامهم الأول وإضافة المكر إلي الظرف علي الاتساع ، وقرئ مكر الليل بالنصب علي المصدر ومكر الليل بالتنوين ونصب الظرف ومكر الليل من الكرور . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وأضمر الفريقان الندامة علي الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير ، أو أظهروها فإنه من الأضداد إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب كما في أشكيته . ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويها بذمهم وإشعارا بموجب أغلالهم . ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء علي أعمالهم ، وتعدية يجزي إما لتضمين معني يقضي أو بنزع الخافض .

الآيات من ٣٤ : ٣٩

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

المترفون هم أساس الكفر والفساد

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ مما مني به من قومه ، وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والإنهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها ، ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلي التكذيب فقالوا :﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ علي مقابلة الجمع بالجمع (٢٥) .

---

(٢٥) جاء في سبب نزول هذه الآية : أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً ﴾ فنحن أولي بما تدعونه إن أمكن . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ إما لأن العذاب لا يكون ، أو أنه أكرمنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب .

﴿ قُلْ ﴾ ردا لحسبانهم . ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ولذلك يختلف فيه الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات ، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيرا ما يكون للاستدراج كما قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾ قربة والتي إما لأن المراد وما جماعة أموالكم وأولادكم ، أو لأنها صفة محذوف كالتقوي والخصلة . وقرئ بالذي أي بالشئ الذي يقربكم . ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ استثناء من مفعول تقربكم ، أي الأموال والأولاد لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه علي الصلاح ، أو من أموالكم وأولادكم علي حذف المضاف . ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴾ أن يجازوا الضعف إلي عشر فما فوقه ، والإضافة إضافة المصدر إلي المفعول ، وقرئ بالأعمال علي الأصل وعن يعقوب رفعهما علي إبدال الضعف ، ونصب الجزاء علي التمييز أو المصدر لفعله الذي دل عليه لهم . ﴿ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ من المكاره ، وقرئ بفتح الراء وسكونها ، وقرأ حمزة في الغرفة علي إرادة الجنس .

عاصم عن ابن رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه . قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب .

قال : فأتي النبى ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى كذا وكذا . قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال : فأرسل إليه النبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت . ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالرد والطعن فيها ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخري ، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرير . ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ عوضا إما عاجلا أو آجلا .

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه لا حقيقة لرازقيته .

الآيات من ٤٠ : ٤٥

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾

تقريع الكافرين يوم القيامة

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ المستكبرين والمستضعفين . ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم وإقناطا لهم عما يتوقعون من شفاعتهم ، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . وقرأ حفص ويعقوب بالياء فيهما .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم ، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم علي الحقيقة بقولهم : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أي

الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله . وقيل : كانوا يتماثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم . ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين ، والأكثر بمعني الكل والثاني للجن .

﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ إذ الأمر فيه كله له لأن الدار دارجزاء وهو المجازي وحده . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عطف علي لا يملك مبين للمقصود من تمهيده .

افتراء الكفار علي النبي والقرآن

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا ﴾ يعنون محمدا ﷺ . ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ فيستتبعكم بما يستبدعه . ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَا ﴾ يعنون القرآن . ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ لعدم مطابقة ما فيه الواقع . ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ بإضافته إلي الله سبحانه وتعالي . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ لأمر النبوة أو للإسلام أو للقرآن ، والأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه . ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته ، وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلي القائلين والمقول فيه ، وما في لما من المبادهة إلي البت بهذا القول إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه .

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ فيها دليل علي صحة الإشراك . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم علي تركه ، وقد بان من قبل أن لا وجه له فمن أين وقع لهم هذه الشبهة ؟ وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال :

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كما كذبوا . ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال ، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدي. ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم فليحذر هؤلاء من مثله ، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء .

الآيات من ٤٦ : ٥٠

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾

نصيحة فيها موعظة للكفار

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله ﷺ ، أو الانتصاب في الأمر خالصا لوجه الله معرضا عن المراء والتقليد .

﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ، فإن الازدحام يشوش الخاطر ويخلط القول . ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته ، ومحله الجر علي البدل أو البيان أو الرفع أو النصب بإضمار هو أعني . ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ فتعلموا ما به من جنون يحمله علي ذلك . أو استئناف منبه لهم علي أن ما عرفوا من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه ، فإنه لا يدعه أن يتصدي لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق ووثوق ببرهان ، فيفتضح علي رءوس الأشهاد ويلقي نفسه إلي الهلاك ، فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة . وقيل ما استفهامية والمعني : ثم تتفكروا أي شئ به من آثار الجنون : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قدامه لأنه مبعوث في نسيم الساعة .

لم يسأل النبي أجرا من أحد علي تبليغ رسالته

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي شيء سألتكم من أجر علي الرسالة . ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمراد نفي السؤال عنه ، كأن جعل التنبي مستلزما لأحد الأمرين إما

الجنون، وإما توقع نفع دنيوي عليه ، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره وأياما كان يلزم أحدهما ثم نفي كلا منهما . وقيل : ما موصولة مراد بها ما سألهم بقوله ﴿ **ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلي ربه سبيلا** ﴾ (٢٦) وقوله ﴿ **لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربي** ﴾ (٢٧) واتخاذ السبيل ينفعهم وقرباه قرباهم .

﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي بإسكان الياء .

﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ** ﴾ يلقيه وينزله علي من يجتبيه من عباده ، أو يرمي به الباطل فيدمغه أو يرمي به إلي أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإفشائه . وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء . ﴿ **عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ صفة محمولة علي محل إن واسمها ، أو بدل من المستكن في يقذف أو خبر ثان أو خبر محذوف . وقرئ بالنصب صفة لربي أو مقدرا بأعني . وقرأ حمزة وأبو بكر الغيوب بالكسر كالبيوت وبالضم كالعشور ، وقرئ بالفتح كالصبور علي أنه مبالغة غائب .

﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ** ﴾ أى الإسلام . ﴿ **وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ وزهق الباطل أى الشرك بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي ، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة قال :

أَقْفَر مِنْ أَهْلِهِ عبيد ... فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِى وَلاَ يُعِيد (٢٨)

وقيل : الباطل إبليس أو الصنم ، والمعني لا ينشئ خلقا ولا يعيده ، أو لا يبدئ خيرا لأهله ولا يعيده . وقيل : ما استفهامية منتصبة بما بعدها .

﴿ **قُلْ إِن ضَلَلْتُ** ﴾ عن الحق ﴿ **فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي** ﴾ فإن وبال ضلالي عليها لأنه بسببها إذ هي الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء ، وبهذا الاعتبار قابل

---

(٢٦) الفرقان : ٥٧ . (٢٧) الشورى : ٢٣ .

(٢٨) البيت لعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي .

كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من السنة فينعم على كل من يلقاه ، ويخرج في يوم آخر فيقتل أول من يلقاه ـ فلقي عبيد بن الأبرص في هذا اليوم ، فقيل له امدحه لعله يعفو عنك فقال عبيد : حال الجريض دون القريض ، أي منعت الغصة الشعر .

ومعنى أقفر : خلا ، أو هلك ، والإبداء والإعادة من لوازمهما الحياة .

الشرطية بقوله : ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ فإن الاهتداء بهدايته وتوفيقه . ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه .

الآيات من ٥١ : ٥٤

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾

حال الكفار عند الموت

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا . ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن . ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظهر الأرض إلي باطنها ، أو من الموقف إلي النار أو من صحراء بدر إلي القليب ، والعطف علي فزعوا أو لا فوت ويؤيده أنه قرئ وأخذ عطفا علي محله أى : فلا فوت هناك وهناك أخذ .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مر ذكره في قوله ﴿ ما بصاحبكم ﴾ (٢٩) ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولا سهلا . ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فإنه في حيز التكليف وقد بعد عنهم ، وهو تمثيل لحالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فات عنهم أو انه وبعد عنهم ، بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون غير حفص بالهمز علي قلب الواو لضمتها .

أو أنه من نأشت الشئ إذا طلبته قال رؤبة :

أقْحَمَنى جَارُ أَبِى الجَامُوش ... إِلَيْكَ نَأْشَ القَدَرِ النؤوش (٣٠)

أو من نأشت إذا تأخرت ومنه قوله :

---

(٢٩) سبأ : ٤٦ .

(٣٠) النؤوش : القوى الغالب ذو البطش ـ المعجم الوسيط .

تَمَنّى نَشيْشًا أنْ يَكُونَ أَطَاعني وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأمُورِ أمُورُ (٣١)

فيكون بمعني التناول من بعد .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا به ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل ذلك أوان التكليف .

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن ، أو في العذاب من البث علي نفيه . ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ من جانب بعيد من أمره وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ ، أو حال الآخرة كما حكاه من قبل . ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه ، وقرئ ويقذفون على أن الشيطان يلقى إليهم ويلقنهم ذلك ، والعطف على وقد كفروا على حكاية الحال الماضية أو علي قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار ، وقرأ ابن عمرو والكسائي بإشمام الضم للحاء . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة، أو ذي ريبة منقول من المشكك ، أو الشك نعت به الشك للمبالغة .

فضل سورة سبأ

عن النبي صلى الله عليه وسلم « **من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا** » (٣٢)

---

(٣١) البيت لنهشل بن حرير

ناش بالهمز إذا تأخر ، ونيشًا : نصب على الظرف أي أخيرا

أي تمنى في آخر الأمر ان يكون أطاعني في نصيحتي لما رأي عاقبة أمري حسنة وعاقبة أمره سيئة ، والحال أنه قد حدثت بعد الأمورالسهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه ـ من تعليق الشيخ محمد عليان المرزوقي على شواهد الكشاف .

(٣٢) رواه الزمخشري في الكشاف وقال ابن حجر رحمه الله : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي باسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٣٥) سورة فاطر مكية
وآياتها خمس وأربعون (١)
بسم الله الرحمن الرحيم
الآيات من ١ : ٣

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

وصف الملائكة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ مبدعهما من الفطر بمعني الشق كأنه شق العدم بإخراجهما منه ، والإضافة محضة لأنه بمعني الماضي . ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾ وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من ا المراتب ينزلون بها ويعرجون ، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم الله عليه فيتصرفون فيه علي أمرهم به ، ولعله لم يرد به خصوصية الإعداد ونفي ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأي جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ استئناف للدلالة علي أن تفاوتهم في ذلك بمقتضي مشيئته ومؤدي حكمته لا أمر تستدعيه ذواتهم ، لأن اختلاف الأصناف ،

---

(١) في مختلف التفاسير : نزلت بعد سورة الفرقان ، وفي تفسير الجلالين : آياتها ٤٥ أو ٤٦ وتسمى هذه السورة سورة الملائكة أيضاً .

والأنواع بالخواص والفصول إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال ، والآية متناولة زيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل وسماحة النفس ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وتخصيص بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض ، إنما هو من جهة الإرادة .

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ ما يطلق لهم ويرسل وهو من تجوز السبب للمسبب . ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ كنعمة وصحة وعلم ونبوة . ﴿ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ يحبسها .. ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ يطلقه ، واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة والثاني مطلق بتناولها والغضب ، وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد إمساكه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب علي ما يشاء ليس لأحد أن ينازعه فيه . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان ، ثم لما بين أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما علي الإطلاق أمر الناس بشكر إنعامه فقال :

تذكر الناس بنعمة الله عليهم ليوحدوه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ احفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها ، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل فيستحق أن يشرك به بقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلي إشرك غيره به ، ورفع غير للحمل علي محل من خالق بأنه وصف أو بدل ، فإن الاستفهام بمعني النفي ، أو لأنه فاعل خالق وجره حمزة والكسائي حملاً علي لفظه ، وقد نصب علي الاستثناء ، ويرزقكم صفة لخالق أو استئناف مفسر له أو كلام مبتدأ ، وعلي الأخير يكون إطلاق هل من خالق مانعا من إطلاقه علي غير الله .

الآيات من ٤ : ٨

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ

الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ
(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ
(٨) ﴾

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي فتأس بهم في الصبر علي تكذيبهم ، فوضع كذبت موضعه استغناء بالسبب عن المسبب ، وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث علي المصابرة . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ فيجازيك وإياهم علي الصبرو والتكذيب .

تذكيرهم بعداوة الشيطان لهم ليحذروه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالحشر والجزاء . ﴿ حَقٌّ ﴾ لا خلف فيه . ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعى لها . ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية ، فإنها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة . وقرئ بالضم وهو مصدر أو جمع كقعود .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة عامة قديمة . ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه فى مجامع أحوالكم . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ تقرير لعداوته وبيان لغرضه فى دعوته شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلي الدنيا .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأمانى الفارغة، وبناء للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ تقرير له أى أفمن زين له سوء عمله ، بأن غلب وَهْمُه وهواه على عَقله حتى انتكس رأيه فرأي الباطل حقاً والقبيح حسناً ،

كمن لم يزين له بل وفق حتي عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها علي ما هي عليه ، فحذف الجواب لدلالة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وقيل : تقديره أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة ، فحذف الجواب لدلالة : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ عليه ومعناه فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب ، والفاآت الثلاث للسببية غير أن الأوليين دخلتا على السبب والثالثه دخلت على المسبب ، وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسف ، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمحتسر عليه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه(٢) .

الآيات من ٩ : ١١

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

من مظاهر قدرة الله تعالي الباعثة علي الإيمان والتوحيد

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح . ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ علي حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة الدالة علي كمال الحكمة ، ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصية ولذلك أسنده إليها ، ويجوز أن

---

(٢) جاء في أسباب نزول هذه الآية : أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزلت هذه الآية حيث قال النبي ﷺ : « اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ، ففيهما نزلت . ـ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي .

يكون اختلاف الأفعال للدلالة علي استمرار الأمر . ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بالتشديد . ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره ، أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً. ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد يبسها ، والعدول فيهما من الغيبة إلي ما هو أدخل في الاختصاص لما فيهما من مزيد الصنع . ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أى مثل إحياء الموات نشور الأموات فى صحة المقدورية (٣) إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة فى المقيس عليه، وذلك لا مدخل له فيها ، وقيل: فى كيفية الإحياء فإنه تعالى يرسل ماء من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق.

لاعزة إلا لله وبالله

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ الشرف والمنعة. ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى فليطلبها من عنده فإن له كلها، فاستغنى بالدليل عن المدلول ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح ، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما ، أو صعود الكتبة بصحيفتهما ، و المستكن في يرفعه للكلم فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ويؤيده أنه نصب العمل، أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ، أو لله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة، وقرئ يصعد على البناءين، والمصعد هو الله تعالى أو المتكلم به أو الملك ، وقيل: الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن، وعنه عليه الصلاة والسلام : «**هو سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر ، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلي السماء فحيا بها وجه الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل**» (٤)

---

(٣) كثيرا ما جاء في القرآن الكريم ذكر الأمطار وأثرها في إحياء الأرض بعد موتها دليلا على إمكانية البعث والنشور . وقد روى أنه قيل لرسول الله ﷺ : كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ، فقال للسائل : « هل مررت بوادي أهلك مَحْلاً ثم مررت به يهتز خضراً » ؟ قا ل : نعم : قال : « فكذلك يحيي الله الموتي ، وتلك آيته في خلقه » .
أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي في البعث من حديث أبي زنين العقيلي .

(٤) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ المكرات السيئات يعنى مكرات قريش للنبى عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداورهم الرأى في إحدى ثلاث حبسه وقتله وإجلائه، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لايؤبه دونه بما يمكرون به ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يفسد ولاينفذ لأن الأمور مقدرة لاتتغير به كما دل عليه بقوله :

الله خلق الخلق وقدر أجله ورزقه وعمله

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم عليه السلام منه . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ بخلق ذريته منها . ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكرانا وإناثا ، ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ إلا معلومة له، ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ وما يمد في عمر من مصيره إلي الكبر ، ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ من عمر المعمر لغيره بأن يعطي له عمر ناقص من عمره ، أو لاينقص من عمر المنقوص عمره بجعله ناقصا ، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه أو للعمر على التسامح فيه ثقة بفهم السامع كقولهم : لايثبت الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق ، وقيل الزيادة والنقصان فى عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل: أن يكون فيه إن حج عمرٌو فَعُمْرُه ستون سنة وإلا فأربعون ، وقيل: المراد بالنقصان ما يمر من عمره وينقضى فإنه يكتب فى صحيفة عمره يوما فيوما ، وعن يعقوب ولاينقص على البناء للفاعل، ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إشارة إلي الحفظ أوالزيادة أوالنقص .

الآيات من ١٢ : ١٧

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

رضى الله عنه مرفوعا ، ورواه الحاكم والبيهقي والطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا .

اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾

من دلائل القدرة خلق البحرين مع اختلاف المذاق والطعم وكثرة الفوائد.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ضرب مثل للمؤمن والكافر، والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذي يسهل

*** الإعجاز العلمى**

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

نلاحظ أن تكرار الآيات ذات الموضوع الواحد في القرآن لم تأت من باب تأكيد الموضوع نفسه فحسب ولكنها في كل موضع كانت لتشير إلى زاوية معينة في ذات الموضوع فمثلا موضوع التقاء البحرين العذب والمالح كان في الآية رقم ٥٣ سورة الفرقان ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ هنا يريد المولى أن يلفت أنظارنا إلى الحاجز الالهي الموجود بين البحرين العذب والمالح في قوله : ﴿ وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾

ولكن في هذه السورة يريد الله عز وجل أن يلفت انظارنا إلى أنه رغم اختلاف نوع البحرين من عذب إلى مالح إلا أنه في كلا البحرين نستخرج أسماكا شهية المذاق فهي الأسماك نفسها في الأنهار نأكلها وكذلك هي نفسها في البحار لم تتغير صفاتها فهذا إعجاز في قدرة الله الذي يجعل كائنا مثل الأسماك تنتقل من الماء العذب إلى الماء المالح ورغم اختلاف خواص كل من البحرين لا تتأثر لا في مذاقها أو طعمها فلم نجد مثلا أن الأسماك التي تعيش في البحار مالحة الطعم غير مستساغة .

وفي الآية أيضا إشارة وتنبؤ بما سوف يكون عليه الوضع في المستقبل في زمن تنزيل القرآن من ظهور بواخر ضخمة تمخر في وسط البحار والمحيطات .

انحداره ، والأجاج الذى يحرق بملوحته ، وقرئ سَيِّغ بالتشديد وسَيْغ بالتخفيف وملح علي فعل . ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ . استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم ، أو تمام التمثيل والمعني : كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء فإنه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته ، لا يتساوي المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصية العظمي وهي بقاء أحدهما علي الفطرة الأصلية دون الآخر ، أو تفضيل للأجاج علي الكافر بما يشارك فيه العذب من المنافع . والمراد بالحلية اللآلئ واليواقيت . ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيه ﴾ في كل ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ تشق الماء بجريها . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه ﴾ من فضل الله بالنقلة فيها ، واللام متعلقة بمواخر ، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه الأفعال المذكورة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علي ذلك وحرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال .

تعاقب الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة (٥) ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ

---

(٥) وصفت هذه الآية وشبيهاتها في القرآن مشهد تعاقب الليل والنهار بصور واستعارات رائعة ، والله تبارك وتعالى يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أى يدخل كلا منهما في الآخر ، ومن ثم يختلف طول الليل وطول النهار من مكان إلى آخر حسب موقعه بالنسبة لدوائر العرض المختلفة ـ بل في المكان الواحد حسب اختلاف فصول السنة .
وعندما تكون أشعة الشمس عمودية على مدار السرطان في نصف الكرة الشمالي تتعرض نقطة القطب الشمالي للأشعة ذات زاوية السقوط الأفقية لمدة ٢٤ ساعة كاملة طوال فصل الصيف ، أما إذا كانت الشمس عمودية على الدائرة الاستوائية فإنّ طول النهار عند هذه الدائرة يتساوى مع طول الليل ، ويكون طول كل منهما ١٢ ساعة ، وعند دائرة عرض ١٧° شمالا يكون طول النهار ١٣ ساعة ، وعند دائرة عرض ٣٩° شمالا يكون طول النهار ١٦ ساعة .
وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن زيد في معنى هذه الآية ، إن ما

ربكم له الملك ﴾ الإشارة إلي الفاعل لهذه الأشياء . وفيها إشعار بأن فاعليته لها موجبة لثبوت الأخبار المترادفة ، ويحتمل أن يكون له الملك كلاما مبتدأ في قرآن . ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ للدلالة علي تفرده بالألوهية والربوبية ، والقطمير لفافة النواة .

عدم إحساس آلهة الكفار بعابديها

﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ لأنهم جماد ﴿ولو سمعوا ﴾ علي سبيل الفرض . ﴿ما استجابوا لكم ﴾ لعدم قدرتهم علي الإنفاع ،أو لتبرئهم منكم مما تدعون لهم . ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ بإشراككم لهم يقرون ببطلانه أو يقولون ما كنتم إيانا تعبدون . ﴿ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير به أخبرك وهو الله سبحانه وتعالي ،فإنه الخبير به علي الحقيقة دون سائر المخبرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم .

افتقار الإنسان إلي ربه وحاجته إليه

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ في أنفسكم وما يعن لكم ، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء ، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلي فقرهم غير معتد به ولذلك قال ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ (٦) ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ المستغني علي الإطلاق المنعم علي سائر الموجودات حتي استحق عليهم الحمد .

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم ، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه .

﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ بمتعذر أو متعسر .

ينتقص من النهار فيزيد في الليل وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار دأبا كل فصل من السنة ، وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر ...

ـ من كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم جـ ٢ د . حسن أبو العينين ص ٣٠ .

(٦) النساء : ٢٨ .

الآيات من ١٨ : ٢٥

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ﴾

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخري ، وأما قوله ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ (٧) ففي الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم ، وكل ذلك أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم . ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ﴾ نفس أثقلها الأوزار . ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ تحمل بعض أوزارها . ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ لم تجب لحمل شئ منه ، نفي أن يحمل عنها ذنبها كما نفي أن يحمل عليها ذنب غيرها ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ولو كان المدعو ذا قرابتها ، فأمر المدعو لدلالة إن تدع عليه . وقرئ ذو قربي علي حذف الخبر، وهو أَوْلي من جعل كان تامة فإنها لا تلائم نظم الكلام . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ غائبين عن عذابه ، أو عن الناس في خلواتهم أو غائبا عنهم عذابه . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير ، واختلاف الفعلين لما مر من الاستمرار . ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي . ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفعه لها ، وقرئ ومن أزكي فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيجازيهم علي تزكيهم .

---

(٧) العنكبوت : ١٣ .

أمثلة لعدم استواء المؤمن والكافر

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن ، وقيل هما مثلان للصنم ولله عز وجل .

﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴾ ولا الباطل ولا الحق .

﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴾ ولا الثواب ولا العقاب ، ولا لتأكيد نفي الاستواء وتكريرها علي الشقين لمزيد التأكيد . والحرور فعول من الحر غلب علي السموم . وقيل السموم ما يهب نهارا والحرور ما تهب ليلا .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل . وقيل للعلماء والجهلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته . ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين علي الكفر بالأموات مبالغة في إقناطه عنهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ فما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع فلا إليك ولا حيلة لك إليه في المطبوع علي قلوبهم .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ محقين أو محقا ، أو إرسالا مصحوبا بالحق ، ويجوز أن يكون صلة لقوله : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق . ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أهل عصر . ﴿ إِلاَّ خَلا ﴾ مضي . ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه ، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة سيما وقد قرن به من قبل ، أو لأن الإنذار هو الأهم المقصود من البعثة .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الشاهدة علي نبوتهم .

﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام . ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ كالتوراة والإنجيل علي إرادة التفصيل دون الجمع ، ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير الوصفين .

الآيات من ٢٦ : ٣٠

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ

مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكار بالعقوبة .

لفت الأنظار إلى كمال قدرة الله المستحق وحده للعبادة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ أجناسها وأصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة ، أو هيئاتها من الصفرة

* الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي للآية رقم ٢٧ سورة فاطر يحدثنا دكتور / محمد البهي العيسوي من كبار علماء الجولوجيا فيقول تحت عنوان « الجبال . . الحديد . . المعادن : لكل لون معنى وقيمة » !

« الجبال والحديد والمعادن : نعم تعود على البشرية بالخير العميم لقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ .

انظر إلى الأنهار فوق الأرض تجرى إلى البحار والمحيطات والبحر ليس بملآن . دورة المياه على الأرض ـ من مطر إلى نهر إلى بحر أجاج ثم تتبخر المياه من المحيطات والبحار ، وتصبح أمطارا تسقط فوق الأرض لتجري الأنهار وتصب في المحيطات والبحار . كل بحساب دقيق فلو ترك البخر من المحيطات دون أن تعادله مياه الأنهار لأصبحت البحار ملحا أجاجا .

ومن حكمة الله أن مياه الأنهار تحمل فتات الصخر ، وتجري بها إلى دلتات الأنهار بالقرب من البحار حيث تترسب المعادن الثقيلة التي تنفع الناس . . وهكذا تتكون رواسب الحديد الحديثة . كما تكونت الرواسب الحديدية القديمة في دلتات الأنهار القديمة ، وشكل الله الأرض ليكون بها رصيف قاري ، وهو منحدر من الأرض تغطيه مياه البحار بأعماق بسيطة ـ تسمح لأشعة الشمس أن تنفذ إلى هذا الرصيف . ومن ثم تنتشر أنماط الحياة البحرية عليه حيث المياه قليلة العمق . وحيث توجد أشعة الشمس ، وكذلك لقربه من اليابسة التي تمده بالمواد العضوية .

والخضرة ونحوهما . ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق يقال جدة الحمار للخطة السودا ءعلي ظهره ، وقرئ جدد بالضم جمع جديدة بمعنى

* الإعجاز العلمي

هذه الحيوانات البحرية تراكمت أصدافها وبقاياها العضوية على مر الملايين من السنين وأعطتنا في النهاية رواسب الفوسفات وكذا رواسب البترول .

وكان الله قادرا على أن يخلقها لونا واحدا ـ وبها من المعادن الشيء الكثير لكن الألوان المختلفة تجذب انتباه الإنسان فينجذب إلى الصخور ذات اللون الأخضر مثلا عالما أن بها معادن النحاس والأسود نتيجة لوجود الحديد ـ والأبيض وهو عروق الكوارتز الذي يوجد به الذهب ـ والاصفر به كبريت . . لكل لون معنى ولكل معنى قيمة .

وإذا ما تركنا الألوان وأخذنا صفة الصلابة سنجد أيضاً أن الأحجار تختلف في هذه الصفة . ولكل نفع ـ فالإنسان الحجري القديم استعمل أحجار الصوان الصلبة قبل اكتشافه للحديد وذلك في قنص الحيوان وسلخ جلده . كما استعملها للدفاع عن نفسه ضد وحوش الجبال والغابات ـ واستعملها في طحن غلاله وحصد ما يزرع .

وللأحجار غير الصلبة استعمالات كثيرة لا تنفع فيها الأحجار شديدة الصلابة ـ فأحجار البيوت من النوع غير الصلب ـ حتى لا تنهك الإنسان في تشكيلها ، وأحجار تذوب في المياه وأخرى لا تذوب ، ولكل نفع وفائدة للحيوان والنبات . فإذا كانت الأحجار كلها صلبة فإن جذور النباتات قد لا تستطيع اختراقها ومن ثم جعل الله بعض الأحجار لينة هشة بما يسمح للنباتات أن تنمو ، وأن تتطاول في البنيان ، ولكنها ليست هشة بدرجة تسمح بأن تقتلع الرياح العاتية الأشجار ، هذا الوزن الدقيق للأمور لا يقدر عليه إلا خالق ا لكون سبحانه وتعالى .

وقد يبدو للناظر أن شكل الأرض وما عليها من جبال ووديان وسهول ومنخفضات هو شيء طبيعي لا غرابة فيه . . ولكن الحقيقة أن هناك نسبة وتناسبا بين ارتفاع الجبال ومساحة القارات ـ ولننظر إلى قارة آسيا أكبر القارات نجد بها جبال الهملايا ـ أعلى جبال العالم ـ والأورال غربا وأفريقيا ثانى أكبر القارات ترتفع بها جبال كلمنجارو ، وهضاب الحبشة ووسط وجنوب أفريقا ، ثم هضاب الجزائر وموريتانيا .

وفي أوروبا توجد جبال الألب والبرانس .

وفي أمريكا توجد السيرا في الغرب والأبلاشيان في الشرق . هذه الجبال موزعة توزيعا عادلا يضمن ثبات القارات فإذا ارتفعت الهملايا في جنوب آسيا فإنها تعادلها الأورال في الغرب . . وبمقدار ما ترتفع الجبال فوق الأرض بمقدار ما تغوص جذورها في باطن الأرض ـ ولعل ذلك ما يقصده الحكيم العليم بقوله عن الأرض ﴿ وجعل فيها رواسي

الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح . ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ بالشدة والضعف . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ عطف على بيض أو على جدد كأنه

* الإعجاز العلمي

وأنهارا ﴾ والمذهل حقا أنه سبحانه وتعالى قرن كلمة الرواسي بالأنهار . . وسبحان الله فإن أكبر الأنهار تنبع من أعالي الجبال ـ وانظر إلى النيل مثلا ينبع من هضاب الحبشة وهضاب وسط أفريقيا ـ والكونغو الذي ينبع من هضاب وسط أفريقيا . وأنهار الهند العظيمة التي تنبع من الهملايا . فإذا تأملنا الأرض وتكوينها ـ ستظهر لنامعجزة رب العالمين في أبلغ صورها ـ فهي ليست كتلة صماء وليست كتلة سائلة ، بل تتكون من قشرة صلبة نعيش فوقها تتكون أساسا من معدني السملط والألمونيوم وتعرف باسم السيال ويصل سمكها فوق الكتلة اليابسة إلى ما يقرب من ٣٠ كيلو مترا وإن كانت في قيعان المحيطات تصل إلى نحو ٥ كيلو مترات .

وكلما زاد عمق الأرض تحت أقدامنا زادت الحرارة والضغط لأرقام قد تبدو بعيدة عن عقل الإنسان . ولعل هذه الضغوط الهائلة والحرارة الشديدة تؤدى إلى عكس كل التوقعات العادية ـ فالصلابة قد تزداد على أعماق كبيرة ـ فقد يبدأ لب الأرض ونصفه العلوى كالبلاستيك وينتهى بمواقد قد تصل صلابتها إلى أربعة مرات أقوى من الصلب .

ويحدثنا حول معنى هذه الآية الدكتور / أحمد فؤاد باشا وكيل كلية العلوم جامعة القاهرة تحت عنوان : تنوع الألوان .

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ [فاطر ٢٧ ـ ٢٨] .

في هاتين الآيتين الكريمتين من كتاب الإسلام الخالد الذى أنزل الله على النبي العربي الأمي الخاتم في شهر رمضان المعظم ـ دعوة إلى تأمل كتاب الكون الجميل الصفات ، العجيب التكوين والتلوين ، لكي يتدبره العلماء الذين يعبدون الله سبحانه وتعالى حق عبادته ويدركون قدرته المبدعة عن طريق العلم المنهجي الصحيح ، ولما كانت الألوان تتعلق بكل ما في الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، فإن دعوة العلماء الي تأملها في حقيقتها دعوة إلى التفوق في مجال العلوم الكونية المعنية بدراسة هذه المخلوقات والظواهر المتصلة بها للإفادة منها في تطوير حياة البشر وفهم أسرار الوجود .

فإذا تأملنا عالم النبات الذي يزخر بما لا يحصى من الآيات الناطقة بعظمة الخالق وجلاله فسنجد أن النباتات جميعها تتغذى وتنمو في وجود مصادر واحدة من الماء والضوء والحرارة والعناصر اللازمة ، وبالرغم من هذا فإن الأرض ينبت فيها ما لا يحصى من أنواع =

قيل: ومن الجبال ذو جدد مختلفة اللون ومنها غرابيب متحدة اللون ، وهو تأكيد مضمر يفسره ما بعده فإن الغربيب تأكيد للأسود ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد

* الإعجاز العلمي

النبات والثمار متعددة الأشكال والألوان والروائح والطعوم .

ويستثير القرآن فينا الإحساس بجمال المنظر ، فيقول : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الأنعام : من الآية ٩٩] .

وما أكثر ما يرد ذكر اللون الأخضر ، على وجه الخصوص في آيات القرآن الكريم ليدل على الحياة والنعم وكثرة الخيرات في الدنيا ، ويمتع الله به المؤمنين الفائزين من عباده في الدار الآخرة ، ذلك أن اللون الأخضر في الدنيا أساس في تكوين النبات والثمار ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ﴾ [الحج : ٦٣] أما في الدار الآخرة ، فإن الجنة يغلب عليها اللون الأخضر من بين الألوان جميعها ، بما فيها من أشجار عالية ، وبما يلبس المؤمنون من ثياب خضر « من سندس وإستبرق » ويجلسون « متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان » [الرحمن: ٧٦] وكل ذلك أدعى إلى شكر نعم الله تعالى .

وإذا تأملنا خلق الجبال وجدنا أن السبب في اختلاف ألوانها يعود إلى اختلاف المواد الملونة لصخورها ، فالجبال البيضاء تتكون أساسا من الطباشير والحجر الجيري ، والجبال السوداء يكثر فيها المنجنيز والفحم ، والجبال الحمراء غنية بالحديد ، وغير ذلك من الجبال النارية تتكون من الجرانيت والبازلت ، وتحتوي علي عروق الحديد والنحاس والذهب ومعادن أخرى تؤدى إلى تعدد أنواع الجبال وألوانها ، ورغم أنها ترجع أصلا إلى أرض واحدة كانت تكون مع الشمس والسماوات رتقاواحدا متصلا يشير إلى وحدانية الخالق المبدع . وعند رؤية الأرض من الفضاء تظهر ملونة بأربعة ألوان أكثر انتشارا هي اللون الأزرق الذي يمثل الجزء المغطى بالمياه ، ثم البنى الذي يمثل الصحاري والجبال والهضاب ، ثم اللون الأخضر الذى يمثل المساحات المزروعةويظهر الحديد في المناطق القطبية وعلى قمم الجبال باللون الأبيض .

وإذا تأملنا عالم البشر وجدنا اللون من الخصائص الجسمية الظاهرة التي يدل اختلافها وتنوعها على قدرة البارئ المصور . فالناس ينقسمون من حيث لون البشرة إلى فئات ثلاث تشمل : بيض البشرة وصفر البشرة وسود البشرة .

أما ذوو البشرة السمراء الذين يتراوح لونهم بين الأصفر الفاتح والأسمر المشرب بحمرة والأسمر الغامق، فإنهم حسب التصنيف الانثروبولوجي ـ يعتبرون شعبة من البيض.

ونظير ذلك في الصفة قول النابغة :

وَالْمُؤمِنُ العَائذَاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُهَا (٨)

وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ كاختلاف الثمار والجبال .﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشي منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « إني أخشاكم لله وأتقاكم له » (٩) ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة علي

---

(٨) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني من قصيدة يعتذر فيها للنابغة الذبياني والبيت بتمامه كما جاء في مشاهد الإنصاف :

والمؤمن العائذات الطير يرقبها ركبان مكة بين الغيل والسند

يقسم بالله الذى يؤمن الطير العائذات به ، وهي طيور يرقبها المتجهون إلى مكة بين المكانين المعروفين بالغيل والسند ، وهما مكانان بجانبي الحرم .

(٩) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف لم أجده هكذا ، وجاء في الصحيح « أنا أعلمكم بالله وأشدكم خشية له » .

وروي الزمخشري في الكشاف حديثا آخر هو : « أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم» ولم يسنده .

وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج عن زيد بن أسلمْ ،

* الإعجاز العلمي

وإذا تأملنا عالم الدواب والأنعام فسنجد أن هناك تنوعا وتغيرات تحدث في لون فروة الحيوان ، خاصة في حيوانات الغابات التي يحدث فيها تساقط أوراق الشجر .

وهناك بعض الحيوانات ، مثل الدب القطبي يستمر أبيض الفروة طوال العام ، وبعضها ، مثل الأرنب البري ، يتغير لون فروته إلى الأبيض في الشتاء .

وهكذا ، يكون النظر في اختلاف ألوان الكائنات دليلا على الكشف عن آية عظمى من آيات الله في الخلق ، وتبقى عملية إدراك الألوان وتمييزها هي الأخرى آية عظمي تدل على الإعجاز الإلهي في خلق العين وأدائها لوظيفتها في إبصارها للأشياء بألوانها كما هي في الواقع ، ولا يملك أي عاقل أمام هذا الإعجاز إلا أن يشكر الله ويحمده على نعمائه .

كمال قدرته ، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر . وقرئ برفع اسم الله ونصب العلماء علي أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيبا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته علي أنه معاقب للمصر علي طغيانه غفور للتائب عن عصيانه .

فضل تلاوة القرآن

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ يداومون علي قراءته أو متابعة ما فيه حتي صارت سمة لهم وعنوانا ، والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء علي المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ كيف اتفق من غير قصد إليهما . وقيل : السر في المسنونة ، والعلانية في المفروضة . ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾ تحصيل ثواب الطاعة وهو خبر إن . ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة ، وقوله :

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ علة لمدلوله أى ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بإنفاقها أجور أعمالهم ، أو لمدلول ما عد من امتثالهم نحو فعلوا ذلك ليوفيهم أو عاقبة ليرجون . ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ علي ما يقابل أعمالهم . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم . ﴿ شَكُورٌ ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ، وهو علة للتوفية والزيادة أو خبر إن ويرجون حال من واو وأنفقوا . (١٠)

ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم .

(١٠) جاء في فضل قراءة القرآن :

روى السمرقندي في تنبيه الغافلين عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : حرضنا رسول الله ﷺ على تعلم القرآن ، ثم أخبرنا عن فضله وقال : « إن القرآن يأتى أهله أحوج ما يكون إليه، قال : فيقدم على صاحبه بأحسن صورة له فيقول : أتعرفني ؟ فيقول : من أنت ؟ فيقول : انا الذي كنت تحبه وتكرمه وكنت تسهر ليلك بي وتداب نهارك ـ يعني من عادتك أن تقرأ نهارك ـ قال : فيقول : لعلك القرآن . ثم يقدم على الله فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ، ويعطى تاج الملك على رأسه ، ويلبس والداه المسلمان حلتين ما يقوم بهما الدنيا وأضعافها فيقولان : من أين لنا هذا ولم تبلغه أعمالنا ؟ فيقال لهما : بفضل ولدكما بقراءة القرآن أعطيتما ذلك » . تنبيه الغافلين ص ٣٣٢ .

الآيات من ٣١ : ٣٦

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن والظواهر فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار علي سائر الكتب وتقديم الخبير للدلالة علي أن العمدة في ذلك الأمور الروحانية .

القرآن منحة لأمة محمد صلي الله عليه وسلم

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ حكمنا بتوريثه منك أو نورثه فعبر عنه بالماضي لتحققه، وأورثناه من الأمم السالفة ، والعطف علي إن الذين يتلون والذي أو حينا إليك اعتراض لبيان كيفية التوريث . ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ، أو الأمة بأسرهم فإن الله اصطفاهم علي سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ بالتقصير في العمل به . ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعمل به في غالب الأوقات . ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بضم التعليم والإرشاد إلي العمل ، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم . وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيئ والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث

صارت سيئاته مكفرة ، وهو معني قوله علية الصلاة والسلام « **أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، وما الذين اقتصدوا فيحاسبون حسابا يسيرا ، واما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته** » (١١) وقيل الظالم الكافر علي أن الضمير للعباد ، وتقديمه لكثرة الظالمين ولأن الظلم بمعني الجهل والركون إلي الهوي مقتضي الجبلة والاقتصاد والسبق عارضان . ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ إشارة إلي التوريث أو الاصطفاء أو السبق .

﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ مبتدأ وخبر والضمير للثلاثة أو للذين أو للمقتصد والسابق ، فإن المراد بهما الجنس وقرئ جنة عدن وجنات عدن منصوب بفعل يفسره الظاهر ، وقرأ أبو عمرو يدخلونها علي البناء للمفعول . ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا** ﴾ خبر ثان أو حال مقدرة ، وقرئ يحلون من حليت المرأة فهي حالية . ﴿ **مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ** ﴾ من الأولي للتبعيض والثانية للتبيين . ﴿ **وَلُؤْلُؤًا** ﴾ عطف علي ذهب أي من ذهب مرصع بالؤلؤ ، أو من ذهب في صفاء اللؤلؤ ونصبه نافع وعاصم رحمهما الله تعالى عطفا علي محل من أساور ﴿ **وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ .

﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ همهم من خوف العاقبة ، أو همهم من أجل المعاش وآفاته أو من وسوسة إبليس وغيرها ، وقرئ الحزن . ﴿ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ** ﴾ للمذنبين . ﴿ **شَكُورٌ** ﴾ للمطيعين .

---

(١١) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ولفظه « سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ﴾ الآية فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرًا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون :﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

وروى عن النبى ﷺ « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وقال أخرجه ابن مردويه والبيهقى في البعث من حديث عمر رضي الله عنه ، ورمز له السيوطي بالحسن .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ دار الإقامة . ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ من إنعامه وتفضله أذ لا واجب عليه . ﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلا إذ لا تكليف فيها ولا كد ، أتبع نفي التصب نفي ما يتبعه مبالغة .

جزاء الاشقياء

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان . ﴿ فَيَمُوتُوا ﴾ فيستريحوا ، ونصبه بإضمار أن ، وقرئ فيموتون عطفا علي يقضي كقوله تعالي ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (١٢) ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها . ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران ، وقرأ أبو عمرو يجزي علي بناء المفعول وإسناده إلي كل ، وقرئ يجازي

الآيات من ٣٧ : ٣٩

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته . ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر علي ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به ، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم وما يتذكر فيه متناول كل عمر يمكن المكلف فيه من التفكر والتذكر ، وقيل ما بين العشرين إلي الستين . وعنه عليه

---

(١٢) المرسلات : ٣٦ .

الصلاة والسلام « **العمر الذي أعذر الله فيه إلي ابن آدم ستون سنة** »[١٣] والعطف علي معني أو لم نعمركم فإنه للتقرير كأنه قال : عمرناكم وجاءكم النذير وهو النبي صلي الله عليه وسلم أو الكتاب ، وقيل العقل أو الشيب أو موت الأقارب ﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ يدفع العذاب عنهم .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لا يخفي عليه خافية فلا يخفي عليه أحوالهم . ﴿ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ تعليل له لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفي ما يكون كان أعلم بغيرها .

﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ** ﴾ ملقي إليكم مقاليد التصرف فيها ، وقيل خلفا بعد خلف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف . ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ جزاء كفره . ﴿ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ بيان له ، والتكرير للدلالة علي اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه ، والمراد بالمقت وهو أشد البغض مقت الله وبالخسار خسار الآخرة .

الآيات من ٤٠ : ٤٣

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)** ﴾

---

(١٣) أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعا ، وأصله في البخاري بلفظ « من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر »

إفحام الكفار بأن آلهتهم عاجزة عن الخلق

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني آلهتهم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله أو لأنفسهم فيما يملكونه . ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ بدل من أرأيتم بدل الاشتمال لأنه بمعني أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء أروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه . ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية . ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾ ينطق علي أنا اتخذناهم شركاء ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ علي حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ، ويجوز أن يكون هم للمشركين كقوله تعالي ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا ﴾ (١٤) وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والكسائي علي بينات فيكون إيماء إلي أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل . ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾ لما نفي أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف الأخلاف ، أو الرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾ كراهة أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ ، أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع . ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ ﴾ ما أمسكهما . ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد الله أو من بعد الزوال ، والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولي زائدة والثانية للابتداء . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا كما قال تعالي ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ﴾ (١٥) .

تكذيب الكفار في ادعاءاتهم

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ﴾ وذلك أن قريشا لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا : لعن الله

---

(١٤) الروم ٣٥ .
(١٥) مريم : ٩٠ .

اليهود والنصاري لو أتانا رسول لنكونن أهدي من إحدي الأمم ، أي من واحدة من الأمم اليهود والنصاري وغيرهم ، أو من الأمة التي يقال فيها هي إحدي الأمم تفضيلا لها علي غيرها في الهدي والاستقامة . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني محمدا عليه الصلاة والسلام . ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ أى النذير أو مجيئه علي التسبب . ﴿ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ تباعدا عن الحق . (١٦)

لا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله

﴿ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له . ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أصله وإن مكروا المكر السئ فحذف الموصوف استغناء بوصفه ، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ، ثم أضيف . وقرأ حمزة وحده بسكون الهمزة في الوصل ﴿ وَلاَ يَحِيقُ ﴾ ولا يحيط . ﴿ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ وهو الماكر وقد حاق بهم يوم بدر ، وقرئ ولا يحيق المكر أى ولا يحيق الله . ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون . ﴿ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم . ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ إذ لا يبدلها بجعله غير التعذيب تعذيبا ولا يحولها بأن ينقله من المكذبين إلي غيرهم ، وقوله :

الآيتان من ٤٤ : ٤٥

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (٤٥) ﴾

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استشهاد علم بما يشاهدونه في مسايرهم إلي الشام واليمن والعراق من آثار الماضين.

---

(١٦) ذكره السيوطي في لباب النقول وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال .

﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ليسبقه ويفوته . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً ﴾ بالأشياء كلها . ﴿ قَدِيراً ﴾ عليها .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من المعاصي . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾ ظهر الأرض . ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ من نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم ، وقيل المراد بالدابة الإنس وحده لقوله : ﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو يوم القيامة . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ فيجازيهم علي أعمالهم.

فضل سورة فاطر

عن النبي ﷺ « **من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة : أن ادخل من أي باب شئت** »(١٧) .

---

(١٧) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ، وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٣٦) سورة يس مكية(١)
وآياتها ثلاث وثمانون

وعنه عليه الصلاة والسلام «يس تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة»

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات من ١ : ٨

﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ ﴾

النبى رسول من عند الله لينذر قومه الغافلين

﴿ يسٓ ﴾ كالم فى المعني والإعراب ، وقيل : معناه يا إنسان بلغة طيِّئ ، على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثر النداء به كما قيل (مُ الله) في أيمن . وقرئ بالكسر كجير (٢) وبالفتح على البناء كأين ، أو الإعراب على اتْلُ يسَ أو بإضمار حرف القسم والفتحة لمنع الصرف ، وبالضم بناءً كحيث ، أو إعراباً على هذه يس، وأمال الياء حمزة والكسائى وروح وأبو بكر ، وأدغم النوون فى واو .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ابن عامر والكسائى وأبو بكر وورش ويعقوب ، وهى واو القسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به .

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لمن الذين أرسلوا .

---

(١) في تفسيرى الكشاف وابن كثير مكية إلا آية ٤٥ فمدنية ، وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الجن .

(٢) جَيْر : حرف جواب بمعنى نعم مبنى على الكسر ، وقد يبنى علي الفتح ، ويأتى يمينا بمعنى حقا ، ويقال : جيرِ لا أفعل ـ المعجم الوسيط ـ .

﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو التوحيد والاستقامة فى الأمور ، ويجوز أن يكون على صراط خبراً ثانياً أو حالاً من المستكن فى الجار والمجرور ، وفائدته وصف الشرع صريحاً بالاستقامة ، وإن دل عليه لمن المرسلين التزاماً .

﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والمصدر بمعنى المفعول ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالنصب بإضمار أعنى أو فعله علي أنه على أصله ، وقرئ بالجر على البدل من القرآن .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ متعلق بتنزيل أو بمعنى لمن المرسلين . ﴿ مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ قوماً غير منذر آباؤهم يعنى آباءهم الأقربين لتطاول مدة الفترة ، فيكون صفة مبينة لشدة حاجتهم إلي إرساله ، أو الذى أنذر به أو شيئاً أنذر به آباؤهم الأبعدون ، فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر ، أو إنذار آبائهم على المصدر . ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ متعلق بالنفى على الأول أى لم ينذروا فبقوا غافلين ، أو بقوله إنك لمن المرسلين على الوجوه الأخرى أى أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ يعني قوله تعالى ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٣) . ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات والنذر ، بتمثيلهم بالذين غُلَّت أعناقهم . ﴿ فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ ﴾ فالأغلال ، واصلة إلى أذقانهم فلا تخليهم يطاطئون رءوسهم له . ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم فى أنهم لا يلتفتون لفت الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطاطئون رءوسهم له .

الآيات من ٩ : ١٤

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫ وَاضْرِبْ لَهُم

---

(٣) السجدة : ١٣ .

مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ وبمن أحاط بهم سدان فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم فى أنهم محبوسون فى مطمورة الجهالة ، ممنوعون عن النظر فى الآيات والدلائل. وقرأ حمزة والكسائى وحفص سداً بالفتح وهو لغة فيه ، وقيل ما كان بفعل الناس فبالفتح وما كان بخلق الله فبالضم . وقرئ فأعشيناهم من العشاء . وقيل : الآيتان فى بنى مخزوم ، حلف أبو جهل أن يرضخ رأس النبى ﷺ فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلي قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أن أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره (٤) .

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ سبق فى سورة البقرة تفسيره .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغية المرومة . ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى القرآن بالتأمل فيه لعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله ، أو فى سريرته ولا يغتر برحمته فإنه كما هو رحمن منتقم قهار . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ الأموات بالبعث أو الجهال بالهداية . ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة . ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ الحسنة كعلم

---

(٤) رواه السيوطي في أسباب النزول وعزاه إلى ابن جرير عن عكرمة .

وذكر السيوطي سببا آخر حول نزول الآيات من أول السورة إلى قوله « لا يؤمنون » قال : أخرج أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبى ﷺ ، فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، فدعا حتى ذهب عنهم ـ فنزلت الآيات . قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد . ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

علموه وحبيس وقفوه . والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يعنى اللوح المحفوظ (٥) .

قصة أصحاب القرية

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم ﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أى مثال واحد ، وهو يتعدي إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل وهما : ﴿ مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ على حذف مضاف أى اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً ، ويجوز أن يقتصر على واحد ويجعل المقدر بدلاً من الملفوظ أو بياناً له ، والقرية انطاكية (٦) .

---

(٥) قيل : هذه الآية نزلت في آثار المشائين إلى المساجد . فقد أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد . فنزلت هذه الآية . فقال النبى ﷺ : « إن آثاركم تكتب فلا تنتقلوا » .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله ـ لباب النقول ـ

وعن جابر قال : أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا وقال : يا بني سلمة بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد ، فقلنا : نعم بعد المسجد علينا والبقاع حوله خالية ، فقال : عليكم دياركم فإنما تكتب آثاركم . قال : فما وردنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ . أخرجه ابن حبان من طريق أبي نضرة وأصله في مسلم .

(٦) جاء في مختصر ابن كثير :

قيل إن الرسل الثلاثة ـ رسل المسيح عليه السلام ـ إلى بلدة أنطاكية وهذا غير صحيح من وجوه :

١ ـ لو كانوا رسلا للمسيح لقالوا عبارة تناسب أنهم مرسلون من قبله .

٢ ـ المعلوم أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح، وهي أول مدينة آمنت بالمسيح ، بينما ذكر الله أن أهل هذه القرية كذبوا رسله ، وانه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم .

٣ ـ ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، وغير واحد من السلف أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، فعلى هذا يتعين أن هذه القرية غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد

﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ بدل من أصحاب القرية . والمرسلون رسل عيسى عليه الصلاة والسلام إلي أهلها وإضافته إلى نفسه في قوله :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ لأنه فعل رسوله وخليفته وهما يحيي ويونس ، وقيل غيرهما . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا ﴾ فقوينا ، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به . ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ وهو شمعون . ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً النجار يرعى غنماً فسألهما فأخبراه فقال : أمعكما آية ؟ فقالا : نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرأ فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفي على أيديهما خلق كثير ، وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك ، قال: حتى أنظر في أمركما فحبسهما ، ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراً وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأنس به، فقال له يوماً : سمعت أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ قال: فدعاهما فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : الله الذي خلق كل شئ وليس له شريك، فقال : صفاه وأوجزا ، قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال : وما آيتكما ، قالا: ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصره ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما ، فقال شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتي تصنع مثل هذا حتي يكون لك ولها الشرف ، قال ليس لي عنك سر آلهتنا لا تمسع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، ثم قال : إن قدر إلهكما علي إحياء ميت آمنا به ، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام وقال : إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة فقال الملك من هم ؟ فقال : شمعون وهذان فلما رأي شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن في جمع ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فهلكوا .

من السلف ، فإن أنطاكية لم يعرف أنها أهلكت لا في النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم . ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٧ ـ .

الآيات من ١٥ : ١٩

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ لا مزية لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدعون ، ورفع بشر لانتقاض النفي المقتضي إعمال ما بإلا . ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ ﴾ وحي ورسالة . ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ في دعوي الرسالة .

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته ، وهو المحسن للاستشهاد فإنه لا يحسن إلا ببينة .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاءمنا بكم ، وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه . ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا ﴾ عن مقالتكم هذه . ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم، وقرئ طيركم معكم . ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ وعظتم ، وجواب الشرط محذوف مثل تطيرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب وقد قرئ بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم ، وأن بغير الاستفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ قوم عادتكم الإسراف فى العصيان فمن ثَمَّ جاءكم الشؤم، أو فى الضلال ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به .

الآيات من ٢٠ : ٢٨

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) ﴾

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وبينهما ستمائة سنة، وقيل : كان فى غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ على النصح وتبليغ الرسالة .﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ إلي خير الدارين .

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ على قراءة غير حمزة فإنه يسكن الياء فى الوصل ، تلطف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح، حيث أراد لهم ما أراد والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلي عبادة غيره ولذلك قال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغة في التهديد ثم عاد إلي المساق الأول فقال .

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ لا تنفعنى شفاعتهم . ﴿ وَلا يُنقِذُونِ ﴾ بالنصرة والمظاهرة .

﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ فإن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بين لا يخفى علي عاقل ، وقرأ نافع ويعقوب وأبو عمرو بفتح الياء .

﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى خلقكم ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ فاسمعوا إيمانى ، وقيل : الخطاب للرسل فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة ، أو

إكراماً وإذناً فى دخولها كسائر الشهداء ، أو لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ما قاله الحسن وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم ، والكلام استئناف فى حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه فى نصر دينه وكذلك : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ فإنه جواب عن السؤال عن قوله عند ذلك القول ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم علي اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والطاعة على دأب الأولياء فى كظم الغيظ والترحم على الأعداء ، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأنه كان على حق ، وقرئ المكرمين وما خبريه أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية جاء على الأصل ، والباء صلة غفر أى بأي شئ غفر لى ، يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أذيتهم .

﴿ وَمَا أَنـزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد هلاكه أو رفعه . ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك ، وفيه استحقار لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام . ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما صح فى حكمتنا أن ننزل جنداً لإهلاك قومه إذ قدرنا لكل شئ سبباً وجعلنا ذلك سبباً لانتصارك من قومك ، وقيل ما موصولة معطوفة على جند أى ومما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة .

الآيات من ٢٩ : ٣٥

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانت الأخذة أو العقوبة . ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بها

جبريل عليه السلام ، وقرئت بالرفع على كان التامة . ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ميتون، شبهوا بالنار رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءُ إِلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِه يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ (٧)

تحسر العباد علي أنفسهم حين يفوتهم الإيمان ويرون مصيرهم يوم القيامة

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ تعالى فهذه من الأحوال التى من حقها أن تحضرى فيها ، وهى ما دل عليها : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا عليهم ، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا ونصبها لطولها بالجار المتعلق بها ، وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف، وقرئ يا حسرة العباد بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول ، ويا حسره بالهاء على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام . ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ بدل من كم على المعنى أى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم ، وقرئ بالكسر على الاستئناف .

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يوم القيامة للجزاء ، وإن مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة وما مزيده للتأكيد ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع فعيل بمعنى مفعول ، ولدينا ظرف له أو لمحضرون .

آيات ودلائل تبعث على الإيمان لمن يتدبر

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ وقرأ نافع بالتشديد . ﴿ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ خبر للأرض ،

---

(٧) البيت للشاعر لبيد بن ربيعة العامري

ومعني يحور : يصبح ويصير ، وبعد هذا البيت قوله :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع .

والجملة خبر آية أو صفة لها إذ لم يرد بها معينة وهي الخبر أو المبتدأ والآية خبرها ، أو استئناف لبيان كونها آية . ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ جنس الحب . ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ من أنواع النخل والعنب ، ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على

*** الإعجاز العلمي**

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾

حول ما ذكر في القرآن عن العنب :

قال تعالى : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ﴾ الإسراء ٩١ .

وقال : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ﴾ الرعد ٤ .

وقال :﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ النحل ٦٧ .

وقال : ﴿ إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا ﴾ النبأ ٣١ ـ ٣٢ .

لقد أثبت العلم الحديث أن العنب يحتوي على نسبة عالية من السكر الآحادي المسمى « جلوكوز » وهو لا يحتاج إلى هضم ، بل يمتص من المعدة والأمعاء ، ليذهب مباشرة إلى الدم ، الذي ينقله إلى أنسجة الجسم المختلفة ؛ لنستفيد منه في توليد الحرارة والطاقة على العمل .

ولذلك فإن إسعاف المرضى الذين يمنع عنهم الغذاء ، أو لا يقدرون عليه كأن يكونوا في حالة غيبوبة أو ما شابه ذلك ، يكون مبنياً في الأساس على الجلوكوز ـ أي سكر العنب ـ مع بعض الأملاح الضرورية للجسم ، حيث يتم حقن محلول الجلوكوز، أو محلول الأملاح في الوريد ، فيسري مع تيار الدم ليغذي أنسجة وخلايا الجسم مباشرة دون المرور على المعدة أو الأمعاء أو غيرها من أجزاء الجهاز الهضمي .

كما أثبتت الأبحاث العلمية ، أن العنب يحتوى علي نسبة لا بأس بها من الحديد والكالسيوم . . وبه نسبة بسيطة من فيتامين (د) المسئول عن تكوين العظام والاستفادة من الكالسيوم الموجود في الطعام .

كما يحتوى العنب على كمية بسيطة من فيتامين (هـ) المسئون عن الخصب والاتزان الجنسي والعصبي والعضلي .

كما أن نسبة من فيتامين (أ) الذي يقي من العشى الليلي . وبه أيضا نسبة من فيتامين (ج) المسئول عن ثبات تركيب الدم ، ومقاومة الأنسجة لنزلات البرد والأنفلونزا ، بالإضافة إلى أن أكل العنب يفيد في علاج الإمساك ؛ لأنه ملين طبيعي .

وتفيد الأحماض العضوية الموجودة به في معادلة الأحماض الضارة المتخلفة عن هضم =

الأنواع ، وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ وقرئ بالتخفيف ، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى . ﴿ مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى شيئاً من العيون ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، أو العيون ومن مزيدة عند الأخفش .

﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾ ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل: الضمير لله تعالى علي طريقة الالتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه،وقرأ حمزة والكسائى بضمتين وهو لغة فيه، أو جمع ثمار وقرئ بضمة وسكون ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وقيل : ما نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد الأول قراءة الكوفيون غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن من غيرها. ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أمر بالشكر من حيث إنه إنكار لتركه.

* الإعجاز العلمى

بعض الأطعمة في الجسم ، مثل اللحوم والأسماك ، والبيض والدهنيات ، والحبوب والمكسرات ، فكلها مصادر غذائية هامة ، لكنها كامنة الحموضة . . أي ينتج عن هضمها أحماض حرة ضارة بالجسم ، وتراكم هذه الأحماض الحرة يؤدي إلى اضطرابات فسيولوجية ، مما يضعف مقاومة الجسم ، ولكن الأحماض الموجودة في العنب تعادل هذه الأحماض الضارة وتحفظ التوازن الحمضي القلوي بالجسم .

وأوراق العنب ذات فائدة عظيمة ؛ حيث إنها غنية بالأملاح والفيتامينات ، وكل مائة جرام من ورق العنب تحتوى على ٧٥,٥ جرام ماء ، ٣,٨ جرام بروتين ، ١,٠ دهون ، ١,٥ جرام رماد ، ١٥,٦ جرام كربوهيدرات ، ٣٩٢ ملليجرام كالسيوم ، ٤٤ ملليجرام فوسفور ، ٣,٩ ملليجرام حديد ، ١٧٩٠٠ وحدة دولية من فيتامين (أ) ، ٠,٢٦ ملليجرام فيتامين (ب١) ، ٠,٠٨ ملليجرام فيتامين (ب٢) ، ١٢٠ ملليجرام فيتامين (ج).

وكل مائة جرام من ورق العنب تعطي الجسم ٩٧ سعرا حراريا ، ومن هذا يتضح أن أوراق العنب غنية جدا بالفيتامين (أ) وفيتامين (ج) والكالسيوم ، وبها كمية من الفوسفور والحديد وباقي الفيتامينات .

ومن هنا كان العنب جديراً بتلك المكانة التي وضعه الله فيها ؛ إذ ذكره أكثر من عشر مرات في كتابه الكريم ، وقرن اسمه بحدائق وجنات النعيم ، قبل أن يثبت العلم الحديث ذلك ويقرر تلك المكانة بعد بحوثه المتعددة .

الآيات من ٣٦ : ٤١

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) ﴾

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ الأنواع والأصناف . ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾ من النبات والشجر ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الذكر والأنثى . ﴿ وَمِمَّا لا

* الإعجاز العلمى

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾
من الإعجاز القرآني الإعلان عن نظرية التلقيح والتزاوج بين الذكورة والأنوثة في النباتات كما هي سنة في البشر والحيوان والطيور ولم تنته الآية الكريمة عند قول الله عز وجل ﴿ ومن أنفسهم ﴾ ولكن المولى عز وجل ترك الباب مفتوحا بقوله ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ وها هي الاكتشافات الحديثة أثبتت تحت المجهر أن هناك انقسامات في الخلايا لم تكن معلومة للناس في زمن التنزيل فاكتفى القرآن الكريم بالتلميح لها عن طريق قول الحق ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي في زمن التنزيل فمن كان من الصحابة يعلم أن هناك خلايا وبكتريا تنقسم في ذلك الوقت والإعجاز هنا أن الآية الكريمة لو كانت انتهت عند قول الحق ﴿ ومن أنفسهم ﴾ لكانت خطأ علميا بالأكتشافات الحديثة .

وما زال هناك أنواع من التكاثر لا نعلمها نحن في القرن العشرين سوف يكتشفها أو لا يكتشفها العلم مستقبلا حتى تظل الآية صحيحة في قول الحق ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي أن جنس البشرية جميعا حتى يوم القيامة سوف لا يعلمون هذا النوع من التكاثر .

فهل المقصود بقول الحق ﴿ مما لا يعلمون ﴾ أي زمن التنزيل ممن نُزل عليهم القرآن فقط وأن من يأتي من بعدهم سوف يعلم أسرار جديدة في عالم التكاثر ؟؟

أم المقصود أن هناك أنواع من التكاثر لن تعرفها البشرية جميعا ؟؟ الله وحده أعلى وأعلم .

يَعْلَمُونَ ﴾ وأزواجاً مما لم يطلعهم الله تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلي معرفته .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام في إغرابه ما سبق . ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون فى الظلام.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحد معين ينتهي إليه دورها ، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لكبد السماء فإن حركتها فيه يوجد فيها بطء بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال :

وَالشَّمْس حَيْرَى لَهَا بِالجَوِّ تَدْوِيمُ (٨)

أو لاستقرار لها على نهج مخصوص ، أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقاً ومغرباً ، تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلي العام القابل ، أو لمنقطع جريها عند خراب العالم ، وقرئ لا مستقر لها أى لا سكون فإنها متحركة دائماً ولا مستقر على أن لا بمعنى ليس . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجرى على هذا التقدير المتضمن للحكم التى تكل الفطن عن إحصائها . ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور﴿ الْعَلِيمِ ﴾ المحيط علمه بكل معلوم .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾ قدرنا مسيره . ﴿ مَنَازِلَ ﴾ أو سيره فى منازل وهى ثمانية وعشرون : السرطان ، البطين، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العواء ، السماك ، الغفر ، الزبانا ، الإكليل، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر ، الرشا ، وهو بطن الحوت ، ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، فإذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون فيه قبيل الاجتماع دق واستقوس ، وقرأ الكوفيون وابن عامر والقمر بنصب الراء . ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ﴾ كالشمراخ المعوج ، فعلون من الانعراج وهو

(٨) يقال : دَوَّمت الشمس : دارت في السماء، وقوله حيرى : تصوير لاستمرار جرى الشمس وعدم وقوفها ، راجع تفسير هذه الآيات تفسيرا علميا في ضوء الكشوفات الحديثة في كتاب « إعجاز القرآن الكريم في آفاق الزمان والمكان » د . منصور حسب النبي ص ١٧١ ـ ١٧٥ ، دار الفكرالعربي ش ٩٤ العقاد مدينة نصر القاهرة .

الاعوجاج ، وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبَزْيون والبُزْيون . ﴿ الْقَدِيمِ ﴾ العتيق وقيل ما مر عليه حول فصاعداً .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا ﴾ يصح لها ويتسهل . ﴿ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ فى سرعة سيره فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان ، أو فى آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله ، أو سلطانه فتطمس نوره ، وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها . ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران ، وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملائم لسرعة سيره . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ وكلهم والتنوين عوض عن المضاف إليه ، والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما فى الذات ، أو للكواكب فإن ذكرهما مشعر بهما . ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرون فيه بانبساط .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلي تجارتهم ، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم ، فإن الذرية تقع عليهن لأنهن مزارعها . وتخصيصهم لأن استقرارهم فى السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب ، وقرأ نافع وابن عامر ذرياتهم . ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء ، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام ، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفى أصلابهم وهم وذرياتهم ، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ فى الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز .

الآيات من ٤٢ : ٥٠

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ ﴾ من مثل الفلك . ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من السفن والزوارق .

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ فلا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق ، أو فلا إغاثة كقولهم أتاهم الصريخ ﴿ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ينجون من الموت به .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا ﴾ إلا لرحمة ولتمتيع بالحياة . ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ زمان قدر لآجالهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ الوقائع التى خلت أو العذاب المعد فى الآخرة ، أو نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض** ﴾(٩) أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو عكسه ، أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر .﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله ، وجواب إذا محذوف دل عليه قوله :

إعراض الكفار عن هذه الآيات وتكذيبهم بالبعث

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ على محاويجكم . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالصانع يعنى معطلة كانوا بمكة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تهكماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته . ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ على زعمكم ، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهاماً بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك ، وهذا من فرط جهالتهم فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ، ويجوز أن يكون جواباً من الله لهم و حكاية لجواب المؤمنين لهم .

---

(٩) سبأ : ٩

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنون وعد البعث .

﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظرون . ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى النفخة الأولى . ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها كقوله ﴿ أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ (١٠) وأصله يختصمون فسكنت التاء ثم أدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين ، وقرأ أبو بكر بكسر الياء للإتباع ، وقرأ ابن كثير وورش وهشام بفتح الخاء على إلقاء حركة التاء إليه، وأبو عمرو وقالون به مع الاختلاس وعن نافع الفتح فيه والإسكان والتشديد وكأنه جوز الجمع بين الساكنين إذا كان الثانى مدغماً ، وقرأ حمزة يخصمون من خصمه إذا جادله .

﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ فى شئ من أمورهم . ﴿ وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيروا حالهم بل يموتون حيث تبغتهم .

الآيات من ٥١ : ٥٦

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) ﴾

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أى مرة ثانية وقد سبق تفسيره فى سورة المؤمنين . ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ ﴾ من القبور جمع جدث وقرئ بالفاء . ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون وقرئ بالضم .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ وقرئ يا ويلتنا . ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وقرئ من أهبَّنا من هب من نومه إذا انتبه ومن هبنا بمعنى أهبنا ، وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولم يظنون أنهم كانوا نياماً ، ومن بعثنا ومن هبنا على الجارة والمصدر،

(١٠) يوسف : ١٠٧

وسكت حفص وحده عليها سكتة لطيفة والوقف عليها فى سائر القراءات حسن .
﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ مبتدأ وخبر وما مصدرية ، أو موصولة محذوفة الراجع ، أو هذا صفة لمرقدنا وما وعد خبر محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف أى هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، أو ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق وهو من كلامهم ، وقيل : جواب للملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم ، معدول عن سننه تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذى يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنهم قالوا : بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون ، فإنه ليس يبعث النائم فيهمكم السؤال عن الباعث وإنما هو البعث الأكبر ذو الأهوال .

﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانت الفعلة . ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى النفخة الأخيرة ، وقرئت بالرفع على كان التامة . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر واستغناؤهما عن الأسباب التى ينوطان بها فيما يشاهدونه .

﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حكاية لما يقال لهم حينئذ تصويراً للموعود وتمكيناً له فى النفوس وكذا قوله :

نعيم أهل الجنة

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ متلذذون في النعمة من الفكاهة، وفى تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ ، وتنبيه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو فى شغل بالسكون ، ويعقوب فى رواية فكهون للمبالغة وهما خبران لإن ، ويجوز أن يكون فى شغل صلة لفاكهون ، وقرئ فكهون بالضم وهو لغة كنطس ونطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف ، وشغل بفتحتين وفتحة وسكون والكل لغات .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ ﴾ جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائى فى ظلل . ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ على السرر المزينة . ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ وهم مبتدأ خبره فى ظلال ، وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثان أو متكئون

والجاران صلتان له ، أو تأكيد للضمير فى شغل أو في فاكهون ، وعلي الأرائك متكئون خبر آخر لإن وأزواجهم عطف على هم للمشاركة فى الأحكام الثلاثة ، وفي ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه .

الآيات من ٥٧ : ٦٥

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ ما يدعون به لأنفسهم يفتعلون من الدعاء كاشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه ، أو ما يتداعونه كقولك ارتموه بمعنى تراموه ، أو يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعني تمنه على ، أو ما يدعونه فى الدنيا من الجنة ودرجاتها وما موصولة أو موصوفة مرتفعة بالابتداء ، ولهم خبرها وقوله :

﴿ سَلامٌ ﴾ بدل منها أو صفة أخرى ، ويجوز أن يكون خبرها أو خبر محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أى ولهم سلام ، وقرئ بالنصب على المصدر أو الحال أى لهم مرادهم خالصاً . ﴿ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أى يقول الله أو يقال لهم قولاً كائناً من جهته ، والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومتمناهم ، ويحتمل نصبه على الاختصاص .

مصير أهل النار أعاذنا الله منها

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة كقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ [١١] . وقيل اعتزلوا من كل خير أو تفرقوا فى النار فإن لكل كافر بيتاً ينفرد به لا يرى ولا يُرى .

(١١) الروم : ١٤ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ من جملة ما يقال لهم تقريعاً وإلزاماً للحجة ، وعهده إليهم ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره وجعلها عبادة الشيطان ، لأنه الآمر بها والمزين لها ، وقرئ اعهد بكسرحرف المضارعة وأحهد وأحد على لغة بنى تميم . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيما يحملهم عليه .

﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ عطف على أن لا تعبدوا . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ إشارة إلي ما عهد إليهم أو إلى عبادته ، فالجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد بشقيه أو بالشق الآخر ، والتنكير للمبالغة والتعظيم ، أو للتبعيض فإن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم .

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأى والجبل الخلق ، وقرأ يعقوب بضمتين وابن كثير وحمزة والكسائى بهما مع تخفيف اللام وابن عامر وأبو عمرو بضمة وسكون مع التخفيف والكل لغات ، وقرئ جبلاً جمع جبلة كخلقة وخلق وجيلاً واحد الأجيال .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ نمنعها عن الكلام . ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بظهور آثار المعاصى عليها ودلالتها على أفعالها ، أو إنطاق الله إياها وفى الحديث «**إنهم يجحدون ويخاصمون فيختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم**» .

الآيات من ٦٦ : ٧٠

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة . ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه ، وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معني الابتدار ، أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو بالظرف . ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ الطريق وجهة السلوك فضلاً عن غيره .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم . ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ مكانهم بحيث يجمدون فيه ، وقرأ أبو بكر مكاناتهم . ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ ذهاباً . ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل ، وقيل لا يرجعون عن تكذيبهم ، وقرئ مضياً بإتباع الميم الضاد المكسورة لقلب الواو ياء كالمعتى والمعتى ومضياً كصبى ، والمعنى أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم .

ضعف القوة عند تقدم السن

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ ومن نطل عمره . ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاض بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره ، وابن كثير على هذه يشبع ضمة الهاء على أصله ، وقرأ عاصم وحمزة ننكسه من التنكيس وهو أبلغ والنكس أشهر . ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فإنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه علي تدرج ، وقرأ نافع برواية ابن عامر وابن ذكوان ويعقوب بالتاء لجرى الخطاب قبله (١٢) .

رد دعوى الكفار أن النبى ﷺ شاعر

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ رد لقولهم إن محمداً شاعر أى ما علمناه الشعر بتعليم القرآن ، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون ، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها . ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ وما يصح

---

(١٢) كان النبي ﷺ يستعيذ من الهرم ، ومما يؤثر في ذلك : « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدجال وأعوذ بك من عذاب القبر » .

ومما أورده البخاري و مسلم في صحيحيهما : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات .

له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه علي ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة، وقوله عليه الصلاة والسلام :

«أنــا النــبي لا كــذب أنا ابن عبد المطــلب» (١٣) .

وقوله :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت (١٤) .

اتفاقي من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك ، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات علي أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعراً ، هذا وقد روى أنه حرك الباءين وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية ، وقيل الضمير للقرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً . ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ** ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالي . ﴿ **وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ وكتاب سماوى يتلى في المعابد ، ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز .

﴿ **لِيُنذِرَ** ﴾ القرآن أو الرسول ﷺ ، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء . ﴿ **مَن كَانَ حَيًّا** ﴾ عاقلاً فهما فإن الغافل كالميت ، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان ، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به . ﴿ **وَيَحِقَّ الْقَوْلُ** ﴾ وتجب كلمة العذاب . ﴿ **عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ المصرين علي الكفر ، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة .

---

(١٣) متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(١٤) متفق عليه من حديث جندب بن سفيان في حديث .

ورويت هذا البيت ضمن أبيات لعبد الله بن رواحة هي :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيــت
يانفس لا تقنطي بمـوتي هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيــت إن تفعلي فعلهما هديــت

قالها في غزوة مؤته ، والضمير في فعلهما يعود إلى زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب اللذين سبقاه في إمارة الجيش واستشهدا .

ومن أسنده إلى النبى ﷺ استشهد برواية البخاري عن جندب قال : بينما النبى ﷺ يمشى إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقال : هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت » فأفاد أنه ﷺ يتمثل بشعر غيره .

الآيات من ٧١ : ٧٨

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾

من نعم الله المستوجبة للشكر والاعتراف بوحدانية الله

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مما تولينا إحداثه ولم يقدر علي إحداثه غيرنا وذكرالأيدى وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص ، والتفرد بالإحداث . ﴿أَنْعَامًا﴾ خصها بالذكر لما فيهامن بدائع الفطرة وكثرة المنافع . ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ متملكون لها بتمليكنا إياها ، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم قال :

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ وَلاَ أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا (١٥) .

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيرناها منقادة لهم . ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم ، وقرئ ركوبتهم ، وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة ، وقيل جمعة وركوبهم أى ذو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم . ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه .

---

(١٥) هذا البيت للربيع بن منيع قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما ، وعاش بعد ذلك مائة وستين عاما . . وهو ضمن أبيات ذكرها المرزوقي في كتاب : مشاهد الإنصاف وهي :

أصبح مني الشباب مبتكرًا إن ينأ عني فقد ثوى عصرا
فارقنا قبل أن نفارقه لما قضى من جماعنا وطرا
أصبحت لا أملك السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

ومعنى لا أملك رأس البعير : لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعني الموضع ، أو المصدر وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام . ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها كيف أمكن التوصل إلى تحصيل هذه المنافع المهمة .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة ، وعلموا أنه المتفرد بها . ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور والأمر بالعكس لأنهم .

﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ لآلهتهم . ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم ، أو محضرون أثرهم فى النار .

تسلية للنبى ﷺ

﴿ فَلا يَحْزُنكَ ﴾ فلا يهمنك ، وقرئ بضم الياء من أحزن ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ فى الله بالإلحاد والشرك ، أو فيك بالتكذيب والتهجين . ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به ، وهو تعليل للنهي على الاستئناف ولذلك لو قرئ أنا بالفتح على حذف لام التعليل جاز .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ تسلية ثانية

* الإعجاز العلمى

قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾

وقال : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمني ﴾ [النجم : ٤٥ ، ٤٦]

وقال : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ [الإنسان ٢] .

وقال : ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ﴾ [غافر : ٦٧] .

وقال : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره * من أى شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره ﴾ [عبس ١٧ ـ ٢١] .

من كتاب الله والعلم الحديث للدكتور / عبد الرازق نوفل يقول :

يقرر القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة وفي غيرها أن الإنسان خلق من طين أو من تراب أو من صلصال . . والطين هو التراب إذا أضيف إليه الماء ، والصلصال هو الطين اليابس ، فكلها إذاً تراب بإضافة الماء أو بغير إضافته .

بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر ، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطاً فى الخصومة بينا ومنافاة لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله فى بدء خلقه ، ومقابلة النعمة التى لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شئ وأمهنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب. روى «**أن أبى بن خلف أتى النبى ﷺ بعظم بال يفتته بيده وقال: أترى الله يحيي هذا بعد ما رم، فقال ﷺ: نعم ويبعثك ويدخلك النار**» فنزلت . وقيل معنى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما فى نفسه .

* الإعجاز العلمى

وقد أثبت العلم الحديث ، أن جسم الإنسان يحوى من العناصر ما تحتويه الأرض .. فهو يتكون من الكربون والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والأزوت، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والمغنيسيوم ، والكلور ، والحديد، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والسلكون ، والزنك ، والألومنيوم .

وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها في إنسان عن الآخر.. وتلك من معجزات القرآن العلمية .

ثم تأتي المرحلة الثانية من خلق الإنسان ، وهي النطفة التي ورد ذكرها في القرآن على ثلاث معان :

الأول : النطفة المذكرة : وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني .

الثاني : النطفة المؤنثة : وهي البويضة التي يفرزها المبيض مرة في الشهر .

الثالث : النطفة الأمشاج : وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي والبويضة عندما يتم التلقيح .

وقد ذكر الله تعالى المنى في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي : قوله :

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾القيامة ٣٦ ، ٣٧

وقوله : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾ النجم٤٥ ، ٤٦

وقوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ الواقعة ٥٨ ، ٥٩

وقد أوضح سبحانه وتعالى في هذه الآيات أن النطفة هي جزء يسير من المني ، حيث يقول : ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾

ومن هنا تبعيضية كما يقول أهل اللغة.

وقد ثبت علميا أن المني يتكون من السائل المنوي الذي يكون ٩٩٪ من مجموع المني ، وهو إفرازات البروستاتا والحويصلة المنوية ، وغدد كوبر وغيرها .

وأن الدفقة الواحدة من المنى تحمل مائتي مليون حيوان منوي . والذي يلقح البويضة هو حيوان منوي واحد فقط ! .

الرد على منكرى البعث

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ أمراً عجيباً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى ، أو تشبيهه بخلقه بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه . ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ خلقنا إياه . ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ منكراً إياه مستبعداً له، والرميم ما بلى من العظام ، ولعله فعيل بمعنى فاعل من رم الشئ صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث ، أو بمعنى مفعول من رممته . وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيوثر فيه الموت كسائر الأعضاء (١٦) .

الآيات من ٧٩ : ٨٣

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه والمادة على حالها فى القابلية اللازمة لذاتها . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها ، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها ، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التى كانت فيها أو إحداث مثلها .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ﴾ كالمرخ والعفار . ﴿ نَارًا ﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار . ﴿ فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ لا تشكون فإنها نار تخرج منه ، ومن قدر على إحداث النار

(١٦) ذكر السيوطي في لباب النقول : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء العاصي بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته ، فقال : يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات إلى آخر السورة .

وذكر الزمخشري مثله في تفسيره الكشاف ونسب القول إلى أبي بن خلف .

من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيتها كان أقدر علي إعادة الغضاضة فيما كان غضاً فيبس وبلى ، وقرئ من الشجر الخضراء على المعنى كقوله ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ (١٧) .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ مع كبر جرمها وعظم شأنهما . ﴿ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ فى الصغر والحقارة بالإضافة إليهما ، أو مثلهم فى أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ، وعن يعقوب يقدر . ﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه . ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ كثير المخلوقات والمعلومات .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ إنما شأنه . ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أى تكون. ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فهو يكون أى يحدث وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة ، وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق ، ونصبه ابن عامر والكسائى عطفاً على يقول .

(١٧ الواقعة : ٥٣ .

* **الإعجاز العلمى**

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ .... ﴾ [يس : ٨٠] .

﴿ أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ الواقعة ٧١ ، ٧٢ .

هذه الاية الكريمة تقر مبدأ أن أصل الطاقة التي يستخدمها الإنسان هي من الأشجار فالطاقة بالنسبة للإنسان ممثلة في النار العادية مصدرها الأساسي هو الأشجار أو البترول أو الفحم وما البترول أوا لفحم إلا مكونات نباتية وحيوانية تحللت في باطن الأرض منذ أحقاب سحيقة .

ها هو القرآن العظيم يقرر هذه الحقيقة زمن التنزيل قبل ظهور علوم الجولوجيا وقبل إكتشاف البترول والفحم وهذا هو قمة الإعجاز العلمي إن هذه الآية التي لا يتجاوز عدد كلماتها عشر كلمات تقوم عليها الآن منظمات وأبحاث مثل منظمة « الأوبك » وهي مجموعة الدول المشتركة في إنتاج البترول فكل هذا مصدره الشجر الأخضر ولا شيء غيره

سواء كان الاستخدام من الشجر مباشرة ، أو بعد تحلل الأشجار في باطن الأرض .

ومن هنا تتضح الحكمة وراء الثواب العظيم الذي وعد به رسول الله ﷺ كل من يزرع شجرة أو يغرس غرسا كان له به صدقه ويقول ﷺ : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها » .

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تنزيه له عما ضربوا له ، وتعجيب عما قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للأمر كله قادراً علي كل شئ . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعد ووعيد للمقرين والمنكرين ، وقرأ يعقوب بفتح التاء . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كنت لا أعلم ما روى في فضل يس كيف خصت به فإذا أنه بهذه الآية .

فضل سورة يس

وعنه عليه الصلاة والسلام **«إن لكل شئ قلباً وقلب القرآن يس ، وأيما مسلم قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ، ويمكث فى قبره وهو ريان ، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان»** (١٨) .

---

(١٨) أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب ، وأوله في الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذي من رواية هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس ، وقال : غريب .

وفي الباب عن أبى بكر وأبي هريرة ، وفي إسناده ضعف .

وهناك أحاديث أخرى في فضل سورة يس نذكر منها : روي السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٨٤ . « من قرأ يس كل ليلة غفر له » وأخرجه البيهقى في الشعب عن أبى هريرة . « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفورا له » وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود . « من قرأ يس مرة فكانما قرأ القرآن عشر مرات » وأخرجه البيهقي في الشعب عن أبي هريرة . « من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر له ما تقدم من ذنبه فاقرءوها عند موتاكم » وأخرجه البيهقي في الشعب عن معقل بن يسار .

وروى المناوي في كتابه كنوز الحقائق من حديث خير الخلائق : « يس قلب القرآن وإنها شفاء من كل داء » وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأخرج النسائى وأبو داود وابن ماجه وابن حبان . « قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، اقرءوها على موتاكم» .

(٣٧) سورة الصافات مكية [١]

وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾

معني المقسم به في الآيات

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾

﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية ، علي مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية ، منتظرين لأمر الله الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها ، أو الناس عن المعاصي بإلهام الخير ، أو الشياطين عن التعرض لهم ، التالين آيات الله وجلايا قدسه علي أنبيائه وأوليائه .

أو بطوائف الأجرام المرتبة كالصفوف المرصوصة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [٢]

أو بنفوس العلماء الصافين في العبادات ، الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالين آيات الله وشرائعه .

أو بنفوس الغزاة الصافين في الجهاد الزاجرين الخيل لجهاد العدو، التالين ذكرالله لا يشغلهم عنه مباراة العدو والعطفُ لاختلاف الذوات ، أو الصفات ، والفاء لترتيب الوجود كقوله :

---

(١) في تفسير الكشاف : مكية وهي مائة وإحدى وثمانون آية ، وقيل واثنتان وثمانون وفي مختلف التفاسير : نزلت بعد سورة الأنعام .

(٢) الأنبياء : ٢٠ .

يا لهف زيابة للحارث الصـ ـابح فالغانم فالآيب (٣)

فإن الصف كمال ، والزجر تكميل بالمنع عن الشر ، أو الإشاقة إلي قبول الخير ، والتلاوة إفاضتة ، أو الرتبة (٤) كقوله عليه الصلاة والسلام « **رحم الله المحلقين فالمقصرين** » (٥) غير أنه لفضل المتقدم علي المتأخر وهذا للعكس ، وأدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا .

جواب القسم

﴿ **إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ** ﴾ جواب للقسم والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه علي ما هو المألوف في كلامهم ، وأما تحقيقه فبقوله تعالي .

﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾ فإن وجودها وانتظامها علي الوجه الأكمل مع إمكان غيره دليل علي وجود الصانع الحكيم ووحدته علي ما مر غير مرة ، ورب بدل من واحد أو خبر ثان أو خبر محذوف وما بينهما يتناول أفعال العباد فيدل علي أنها من خلقه ، والمشارق مشارق الكواكب أو مشارق الشمس في السنة وهي ثلاثمائة وستون مشرقا ، تشرق كل يوم في واحد وبحسبها تختلف المغارب ، ولذلك اكتفي بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة ، وما قيل أنها مائة وثمانون إنما يصح لو لم تختلف أوقات الانتقال .

وظيفة الكواكب في السماء

﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا** ﴾ القربي منكم . ﴿ **بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ** ﴾ بزينة هي الكواكب والإضافة للبيان ، ويعضده قراءة حمزة ويعقوب وحفص بتنوين زينة وجر

---

(٣) تقدم شرح هذا البيت ، والشاهد فيه الترتيب بواسطة الفاء كأنه قال : الذي صبّح فغنم فآب .

(٤) أو الرتبة معطوف على الصفات .

(٥) رواه الشيخان في صحيحيهما ولفظه « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله، قال ﷺ : رحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال : والمقصرين في الثالثة أوالرابعة » . ذكره ابن كثير في تفسيره ـ انظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢١٠ .

الكواكب علي إبدالها منه ، أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها ، أو بأن زينا الكواكب فيها علي إضافة المصدر إلي المفعول فإنها كما جاءت اسما كالليقة (٦) جاءت مصدرا كالنسبة ويؤيده قراءة أبي بكر بالتنوين ، والنصب علي الأصل ، أو بأن زينتها الكواكب علي إضافته إلي الفاعل وركوز الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين السماء الدنيا إن تحقق لم يقدح في ذلك ، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متلألئة علي سطحها الأزرق بأشكال مختلفة .

﴿ **وَحِفْظًا** ﴾ منصوب بإضمار فعله ، أو العطف علي زينة باعتبار المعني كأنه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظا . ﴿ **مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ** ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب .

﴿ **لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ** ﴾ كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم ، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون ، ولا علة للحفظ علي حذف اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذف أن وأهدرها كقوله :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي (٧)

فإن اجتماع ذلك منكر والضمير لكل باعتبار المعني ، وتعدية السماع بإلي لتضمنه معني الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلا لما يمنعهم عنه ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص بالتشديد من التسمع وهو طلب السماع والملأ الأعلي الملائكة وأشرافهم . ﴿ **وَيُقْذَفُونَ** ﴾ ويرمون . ﴿ **مِن كُلِّ جَانِبٍ** ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده .

---

(٦) الليقة : اسم لماتلاق به الدواة .

(٧) هذا شطر بيت لطرفة بن العبد في معلقته وعجزه :

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وقد تقدم الحديث عنه والشاهد فيه نصب الفعل المضارع بعد أن المقدرة والتقدير أن أحضر .

الآيات من ٩ : ١٢

﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾

﴿دُحُورًا ﴾ علة أى للدحور وهو الطرد ! ، أو مصدر لأنه والقذف متقاربان، أو حال بمعني مدحورين أو منزوع عنه الباء جمع دحر ، وهو ما يطرد به ويقويه القراءة بالفتح وهو يحتمل أيضا أن يكون مصدرا كالقبول أو صفة له أى قذفا دحورا. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ أى عذاب آخر . ﴿ وَاصِبٌ ﴾ دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه ، والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة ، وقرئ خطف بالتشديد مفتوح الخاء ومكسورها وأصلها اختطف . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ أتبع بمعني تبع ، والشهاب ما يري كأن كوكبا انقض ، وما قيل إنه بخار يصعد إلي الأثير فيشتعل فتخمين إن صح لم يناف ذلك إذ ليس فيه ما يدل علي أنه ينقض من الفلك ولا في قوله ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾(٨) فإن كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يري كأنه علي سطحه ، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجما لشياطين تتصعد إلي قرب الفلك للتسمع ، وما روي أن ذلك حدث بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام إن صح فلعل المراد كثرة وقوعه أو مصيره دحورا . واختلف في أن المرجوم يتأذي به فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب ،كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأسا ، ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق ، لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت علي الضعيفة

---

(٨) الملك : ٥ .

استهلكتها . ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضئ كأنه يثقب الجو بضوئه (٩)

سؤال لمشركي مكة لعلهم يهتدون

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ فاستخبرهم والضمير لمشركي مكة أو لبني آدم . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ يعني ما ذكر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ، ومن لتغليب العقلاء ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك ، وقراءة من قرأ أم من عددنا ، وقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم كعاد وثمود ، وإن المراد إثبات المعاد ورد استحالته والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلي من قبلهم سواء ، وتقريره أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضم الجزء المائى إلي الجزء الأرضي وهما باقيان قابلان للانضمام بعد ، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه إما لاعترافهم بحدوث العالم أو بقصة آدم وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه بلا توسط مواقعة ، فلزمهم أن يُجَوِّزوا إعادتهم كذلك ، وإما لعدم قدرة الفاعل علي خلق هذه الأشياء قدر علي ما لا يعتد به بالإضافة إليها سيما ومن ذلك بدؤهم أولاً وقدرته ذاتية لا تتغير .

سخرية الكفار من حديث البعث

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ من قدرة الله تعالي وإنكارهم للبعث . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث ، وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء اي بلغ كمال قدرتي وكثرة خلائقي أن تعجبت منها ، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكر البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يجوزه . والعجب من الله تعالي إما علي الفرض والتخييل أو علي معني الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشئ ، وقيل إنه مقدر بالقول أي : قال يا محمد بل عجبت .

---

(٩) راجع في معنى هذه الآيات ـ على ضوء العلم الحديث ـ كتاب إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان تحت عنوان : الشهب والنيازك والمذنبات ص ٢٠١ ص ٢٠٤ .

الآيات من ١٣ : ٢٠

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا وعظوا بشئ لا يتعظون به ، أو إذا ذكر لهم ما يدل علي صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ معجزة تدل علي صدق القائل به . ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أو يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر ، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها .

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا ﴾ يعنون ما يرونه . ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أصله أنبعث إذا متنا فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعارا بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة أشد استنكارا ، فهو أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولي وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية .

﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ عطف علي محل إن واسمها ، أو علي الضمير في مبعوثون فإنه مفصول منه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم ، وسكن نافع برواية قالون بن عامر والواو علي معني الترديد .

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ صاغرون ، وإنما اكتفي به في الجواب لسبق ما يدل علي جوازه وقيام المعجز علي صدق المخبر عن وقوعه ، وقرئ قال أي الله أو الرسول وقرأ الكسائي وحده نعم بالكسر وهو لغة فيه .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ جواب شرط مقدر أي إذا كان ذلك فإنما البعثة زجرة أي صيحة واحدة ، وهي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمر كُنْ في الإبداء ولذلك رتب عليها . ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون ، أو ينتظرون ما يفعل لهم .

وضع الكفار يوم القيامة

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ اليوم الذي نجازي بأعمالنا وقد تم به كلامهم وقوله :

الآيات من ٢١ : ٣٠

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)﴾

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ جواب الملائكة ، وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء ، أو الفرق بين المحسن والمسيئ .

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أمر الله للملائكة ، أو أمر بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلي الموقف . وقيل منه إلي الجحيم . ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالي ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾(١٠) أو نساءهم اللاتي علي دينهم أو قرناءهم من الشياطين . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام وغيرها زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ، وهو عام مخصوص بقوله تعالي ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسني ﴾ (١١) الآية ، وفيه دليل علي أن الذين ظلموا هم المشركون .

﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ فعرفوهم طريقا ليسلكوها .

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ احبسوهم في الموقف . ﴿ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم والواو لا توجب الترتيب مع جواز أن يكون موقفهم متعددا .

---

(١٠) الواقعة : ٧ .

(١١) الأنبياء : ١٠١ .

﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴾ ينصر بعضكم بعضا بالتخليص ، وهو توبيخ وتقريع ..

﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ منقادون لعجزهم وإنسداد الحيل عليهم ، وأصل الاستسلام طلب السلامة أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضا ويخذله .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء . ﴿يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضا للتوبيخ ولذلك فسر بيتخاصمون .

﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ عن أقوي الوجوه وأيمنها ، أو عن الدين أو عن الخير كانكم تنفعوننا نفع السانح (١٢) فتبعناكم وهلكنا ، مستعار من يمين الإنسان الذي هو أقوي الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يمينا وتيمن بالسانح ، أو عن القوة والقهر فتقسروننا علي الضلال ، أو عن الحلف فإنهم كانوا يحلفون لهم إنهم علي الحق .

﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أجابهم الرؤسا ء أولاً بمنع إضلالهم بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم ، وثانيا بأنهم ما أجبروهم علي الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قوما مختارين الطغيان .

الآيات من ٣١ : ٤٣

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾

(١٢) السانح هو الطير أو الحيوان الذي يمر من جهة اليسار إلى اليمين وكان العرب يتفاءلون بذلك ويعتبرونه طالع خير . وعكسه البارح وهو الذي يمرمن جهة اليمين إلى السيار وكانون يتشاءمون منه .

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ .

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ ثم بينوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمرا مقضيا لا محيص لهم عنه ، وإن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعوهم إلي الغي لأنهم كانوا علي الغي فأحبوا أن يكونوا مثلهم ، وفيه إيماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم إذ لو كان كل غواية لإغواء غاو فمن أغواهم .

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين . ﴿ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الفعل . ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ بالمشركين لقوله تعالي :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى عن كلمة التوحيد ، أو علي من يدعوهم إليه .

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ يعنون محمدا ﷺ .

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ رد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام له البرهان وتطابق عليه المرسلون .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل ، وقرئ بنصب العذاب ، علي تقدير النون كقوله :

وَلاَ ذَاكِرِ اللهِ إلا قَليلا (١٣)

وهو ضعيف في غير المحلي باللام وعلي الأصل .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إلا مثل ما عملتم .

حال المؤمنين يوم القيامة

﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في تجزون لجميع المكلفين فيكون استثناؤهم عنه باعتبار المماثلة ، فإن ثوابهم مضاعف والمنقطع أيضا بهذا الاعتبار .

(١٣) الشاهد فيه أن لفظ الجلالة منصوب باسم الفاعل « ذاكر » وليس مضافا إليه ، على تقدير أن التنوين موجود وأصله « ذاكرًا الله » وقد سبق مرور هذا الشاهد وشرحه .

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ خصائصه من الدوام ، أو تمحض اللذة ولذلك فسره بقوله :

﴿ فَوَاكِهُ ﴾ فإن الفاكهة ما يقصد للتلذذ دون التغذي والقوت بالعكس ، وأهل الجنة لما أعيدوا علي خلقة محكمة محفوظة عن التحلل كانت أرزاقهم فواكه خالصة . ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال كما عليه رزق الدنيا .

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم ، وهو ظرف أو حال من المستكن في مكرمون ، أو خبر ثان لأولئك وكذلك :

الآيات من ٤٤ : ٥٤

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) ﴾

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ يحتمل الحال أو الخبر فيكون : ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ حالا من المستكن فيه أو في مكرمون ، وأن يتعلق بمتقابلين فيكون حالا من ضمير مكرمون .

وصف خمر الجنة

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ ﴾ بإناء فيه خمر أو خمر كقوله

وكَأسٌ شُرِبَتْ عَلَي لَذَّةٍ (١٤)

---

(١٤) شطر بيت للأعشى وهو بتمامه :

وكأسٍ شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وبعده :

لكي يعلم الناس أني امرؤ ... أتيت اللذاذة من بابها

والشاهد في البيت أنه أطلق الكأس على الخمر .

﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من شراب معين أو نهر معين أى ظاهر للعيون ، أو خارج من العيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع . وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة ، وكذلك قول :

﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ وهما أيضا صفتان لكأس ، ووصفها بلذة إما للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعني لذيذ كطب ووزنه فعل قال :

ولذ كطعم الصر خدي تركته بأرض العدا من خشية الحدثان (١٥)

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ غائلة كما في خمر الدنيا كالخمار من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ، أفرده بالنفي وعطفه علي ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه ، وأصله للنفاد يقال نزف المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركية حتي نزفتها .

من نعيم الجنة أيضاً

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قصرن أبصارهن علي أزواجهن . ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون جمع عيناء

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ شبههن ببيض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدني صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ معطوف علي يطاف عليهم أي يشربون فيتحادثون علي الشراب قال :

---

(١٥) هذ البيت ذكره الزمخشري في الكشاف ولم ينسب لقائل ، وكذلك لم ينسبه الشيخ محمد عليان المرزوقي في كتابه مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف . واللَّذ واللَذة اسم للكيفية القائمة بالنفس ، واسم للشيء اللذيذ .
والصرخد : موضع بالشام ينسب إليه الشراب
والحدثان : نوائب الدهر ومصائبه .
يقول : رب شيء لذيذ ـ يعني النوم ـ طعمه كطعم الشراب الطيب المصنوع في صرخد تركته بأرض الأعداء خشية نزول المكروه بي .

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللذات إلاَّ أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ (١٦)

والتعبير عنه بالماضي للتأكيد فيه فإنه ألذ تلك اللذات إلي العقل ، وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جري لهم وعليهم في الدنيا .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ في مكالمتهم . ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ جليس في الدنيا .

﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ يوبخني علي التصديق بالبعث ، وقرئ بتشديد الصاد من التصدق .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ لمجزيون من الدين بمعني الجزاء .

﴿ قَالَ ﴾ أى ذلك القائل . ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ إلي أهل النار لأريكم ذلك القرين ، وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول لهم : هل تحبون أن تطلعوا علي أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم ؟ وعن أبي عمرو مطلعون فأُطلع بالتخفيف وكسر النون وضم الألف علي أنه جعل اطلاعهم سبب اطلاعه من حيث أن أدب المجالسة يمنع الاستبداد به ، أو خاطب الملائكة علي وضع المتصل موضع المنفصل كقوله :

هُم الآمِرُونَ الخَيْرَ وَالفَاعِلُونَهُ (١٧)

أو شبه اسم الفاعل بالمضارع .

الآيات من ٥٥ : ٦٨

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

---

(١٦) المدام : الخمر .

يشير في البيت إلى أن من أعظم اللذات تحادث الأصحاب وهم يتناقلون كئوس الشراب ، والبيت للفرزدق .

(١٧) هذا صدر بيت ذكره الزمخشري في الكشاف ولم ينسبه لقائل ، والبيت بتمامه هو :

هم الفاعلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا من حادث الدهر معظماً .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ﴾

﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ عليهم ، . ﴿ فَرَآهُ ﴾ أى قرينه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسطه .

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ لتهلكني بالإغواء ، وقرئ لتغوين وإن هي المخففة واللام هي الفارقة .

﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة . ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ معك فيها .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ عطف علي محذوف أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ، أى بمن شانه الموت وقرئ بمائتين .

﴿ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ ﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال ، ونصبها علي المصدر من اسم الفاعل . وقيل علي الاستثناء المنقطع. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالكفار ، وذلك تمام كلامه لقرينه تقريعا له أو معاودة إلي مكالمة جلسائه تحدثا بنعمة الله ، أو تبجحا بها وتعجبا منها وتعريضا للقرين بالتوبيخ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم وأن يكون كلام الله لتقرير قوله والإشارة إلي ما هم عليه من النعمة والخلود والأمن من العذاب .

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ،وهو أيضا يحتمل الأمرين .

مقارنة بين حالي الكافر والمؤمن

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ شجرة ثمرها نزل أهل النار ، وانتصاب نزلا علي التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة علي أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ، ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام ، وكذلك الزقوم لأهل النار ، وهو : اسم شجرة صغيرة الورق ذفر مرة تكون بتهامة سميت به

الشجرة الموصوفة .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ محنة وعذابا لهم في الآخرة ، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالو كيف ذلك والنار تحرق الشجر ،ولم يعلموا أن من قدر علي خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر علي خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلي دركاتها .

﴿ طَلْعُهَا ﴾ حملها مستعار من طلع التمر لمشاركته إياه في الشكل ، أو الطلوع من الشجر . ﴿ كَأَنَّهُ رءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ في تناهي القبح والهول ، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك . وقيل الشياطين حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف ، ولعلها سميت بها لذلك .

﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجرة أو من طلعها . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ لغلبة الجوع أو الجبر علي أكلها .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم ، ويجوز أن يكون ثم لما في شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة . ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ لشرابا من غساق ، أو صديدا مشوبا بماء حميم يقطع أمعاءهم ، وقرئ بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول مصدر سمي به (١٨) .

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ مصيرهم . ﴿لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ .إلي دركاتها أو إلي

---

(١٨) حول هذه الآية ذكر السيوطي : أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أبو جهل : زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ الآيات وأخرج نحوه عن السدي ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

وفي فظاعة هذه الشجرة روي ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه ؟ » رواه النسائى وابن ماجة والترمذي وقال : حسن صحيح .

نفسها ، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولهم ، وقيل : الحميم خارج عنها لقوله تعالي ﴿ **هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ (١٩) يوردون إليه كما تورد الإبل إلي الماء ثم يردون إلي الجحيم، ويؤيده أنه قرئ ثم إن منقلبهم .

الآيات من ٦٩ : ٨٢

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾

﴿ **إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ** ﴾

﴿ **فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال ، والإهراع : الإسراع الشديد كأنهم يزعجون علي الإسراع على آثارهم ، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلي ذلك من غير توقف علي نظر وبحث .

ضلال أكثر الأمم الماضية

﴿ **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ** ﴾ قبل قومك . ﴿ **أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ** ﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب .

﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ من الشدة والفظاعة .

﴿ **إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله ، وقرئ بالفتح أي الذين أخلصهم الله لدينه والخطاب مع الرسول ﷺ ، والمقصود خطاب قومه فإنه أيضا سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم .

---

(١٩) الرحمن : ٤٣ ، ٤٤ .

إشارة إلي قصة نوح وهلاك قومه المكذبين

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها ، أي ولقد دعانا حين أيس من قومه . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أى فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن ، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من الغرق أو أذي قومه .

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلي يوم القيامة ، إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ من الأمم .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ هذا الكلام جئ به علي الحكاية والمعني يسلمون عليه تسليما ،. وقيل هو سلام من الله عليه ومفعول تركنا محذوف مثل الثناء . ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعا .

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له علي إحسانه .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ يعني كفار قومه .

الآيات من ٨٣ : ٩٥

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥)﴾

قصة إبراهيم وضلال قومه

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾ ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة . ﴿ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالبا ، وكان بينهما ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وكان بينهما نبيان هود وصالح .

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ متعلق بما في الشيعة من معني المشايعة أو بمحذوف هو اذكر . ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له ، وقيل حزين من السليم بمعني اللديغ . ومعني المجئ به ربه : أخلاصه له كأنه جاء به متحفا إياه .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ بدل من الأولي أو ظرف لجاء أو سليم.
﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي تريدون آلهة دون الله إفكا مقدم المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم علي الباطل ومبني أمرهم علي الإفك ، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به وآلهة بدل منه علي أنها إفك في نفسها للمبالغة ، أو المراد بها عبادتها بحذف المضاف أو حالا بمعني إفكين .

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتي تركتم عبادته ، أو أشركتم به غيره أو أمنتم من عذابه ، والمعني إنكار ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصد عن عبادته ، أو يجوز الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه علي طريقة الإلزام وهو كالحجة علي ما قبله .

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ فرأي مواقعها واتصالاتها ، أو في علمها أو في كتابها ، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم .

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أراهم أنه استدل بها لأنهم كانوا منجمين علي أنه مشارف للسقم لئلا يخرجوه إلي معبدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوي ، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجا قل من يخلو منه أو بصدد الموت ومنه المثل : كفي بالسلامة داء ، وقول لبيد :

قَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدا ... لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ (٢٠)

---

(٢٠) البيت للبيد بن ربيعه العامري وقبله :

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ هاربين مخافة العدوي .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ فذهب إليها في خفية من روغة الثعلب وأصله الميل بحيلة . ﴿ فَقَالَ ﴾ أي للأصنام استهزاء ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم .

﴿ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴾ بجوابي .

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمال عليهم مستخفياً ، والتعدية بعلي للاستعلاء وإن الميل لمكروه . ﴿ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ مصدر لراغ عليهم لأنه في معني ضربهم ، أو لمضمر وتقديره فراغ عليهم يضربهم وتقييده باليمين للدلالة علي قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل ، وقيل باليمين بسبب الحلف وهو قوله ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ (٢١)

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ إلي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو كما شرحه في قوله ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا** ﴾ (٢٢) الآية . ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ يسرعون من زفيف النعام . وقرأ حمزة علي بناء المفعول من أزفه أي يحملون على الزفيف ، وقرئ يزفون أي يزف بعضهم بعضا ، ويزفون من وزف يزف إذا أسرع ويزفون من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه .

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أى ماتنحتونه بأيديكم من أصنام .

الآيات من ٩٦ : ١٠٢

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

كانت قناتي لاتلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء

وصدق لبيد ، فإنه لا سلامة في الحياة ما دام الموت في رقاب العباد .

مات رجل فجأة والتف عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقه ؟

(٢١) الأنبياء ٥٧ . (٢٢) الأنبياء : ٥٩ .

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وما تعملونه فإن جوهرها بخلقه وشكلها وإن كان بفعلهم ، ولذلك جعل من أعمالهم فبإقداره إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد ، أو عملكم بمعني معمولكم ليطابق ما تنحتون، أو إنه بمعني الحدث فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالي فيهم كان مفعولهم المتوقف علي فعلهم أولي بذلك وبهذا المعني تمسك أصحابنا علي خلق الأعمال ولهم أن يرجحوه علي الأولين لما فيهما من حذف أو مجاز .

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة من الجحمة وهي شدة التأجج، واللام بدل الإضافة أي جحيم ذلك البنيان .

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ فإنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهانا نَيِّرًا علي علو شأنه ، حيث جعل النار عليه بردا وسلاما .

هجرة إبراهيم والإنعام عليه بالذبيح وهو إسماعيل عليه السلام

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ إلي حيث أمرني ربي وهو الشام ، أو حيث أتجرد فيه لعبادته . ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلي ما فيه صلاح ديني أو إلي مقصدي ، وإنما بت القول لسبق وعده أو لفرط توكله ، أو البناء علي عادته معه ولم يكن كذلك حال موسي عليه الصلاة والسلام حين ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ (٢٣) فلذلك ذكر بصيغة التوقع .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بعض الصالحين يعينني علي الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة ، يعني الولد لأن لفظ الهبة غالب فيه ولقوله :

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ بشره بولد وأنه ذكر يبلغ أوان الحلم ، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليما وأي حلم مثل حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ (٢٤) . وقيل ما نعت الله

---

(٢٣) القصص : ٢٢ .　　(٢٤) الصافات ١٠٢ .

نبيا بالحلم لعزة وجوده غير إبراهبم وابنه عليهما الصلاة والسلام ، وحالهما المذكورة بعد تشهد عليه .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي فلما جد وبلغ أن يسعي معه في أعماله ، ومعه متعلق بمحذوف دل عليه السعي لا به لأن صلة المصدر لا تتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معا كأنه قال : فلما بلغ السعي فقيل مع من فقيل معه ، وتخصيصه لأن الأب أكمل في الرفق والاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه ، أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة . ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾ وقرأ حفص بفتح الياء . ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك وأنه رأي ما هو تعبيره ، وقيل : إنه رأي ليلة التروية أن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك ، فلما أصبح روي أنه من الله أو من الشيطان ، فلما أمسي رأي مثل ذلك فعرف أنه من الله ، ثم رأي مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك ، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر ، والأظهر أن المخاطب إسماعيل عليه السلام لأنه الذي وهب له أثره الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة علي البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام « **أنا ابن الذبيحين**»(٢٥) فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله، فإن جده عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة ، فلما سهل أقرع فخرج السهم علي عبد الله ففداه بمائة من الإبل ، ولذلك سنت الدية مائة ، ولأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتي احترقا معها في أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثَمَّةَ ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً ، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل أى النسب أشرف فقال : يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ، فالصحيح أنه قال : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن

---

(٢٥) مروى عن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي ، ويؤيده أن أعرابيًا قال للنبي ﷺ : يا ابن الذبيحين فتبسم ، فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله ، وقالوا له : افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل ، والثاني إسماعيل ، أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الصنابحي عن معاوية رضي الله عنه .

ابراهيم[٢٦] والزوائد من الراوي . وما روي أن يعقوب كتب إلي يوسف مثل ذلك لم يثبت . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء فيهما ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ من الرأي ، وإنما شاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة بالنقياد له قبل نزوله وقرأ حمزة والكسائي ماذا تري بضم التاء وكسر الراء خالصة ، والباقون بفتحها وأبو عمرو يميل فتحة الراء وورش بين بين والباقون بإخلاص فتحها.

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاء . ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به فحذفا دفعة ، أو علي الترتيب كما عرفت أو أمرك علي إرادة المأمور به والإضافة إلي المأمور ، أو لعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به ، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، ولعل الأمر في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهما إلي الامتثال أدل علي كمال الانقياد والإخلاص ، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا . ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ علي الذبح أو علي قضاء الله ، وقرأ نافع بفتح الياء .

الآيات من ١٠٣ : ١١٠

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) ﴾

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ استسلما لأمر الله ، أو سَلَّما : الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ، وقد قرئ بهما وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ صرعه علي شقه فوقع جبينه علي الأرض وهو أحد جانبي الجبهة . وقيل كبه علي وجهه بإشارته لئلا يري فيه تغيرا يرق له فلا يذبحه ، وكان ذلك

---

(٢٦) الحديث الذي رواه السيوطي في الجامع الصغير في ذلك هو : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » وقال : رواه أحمد والبخاري عن ابن عمر ورواه أحمد أيضاً عن أبي هريرة ، ورمز له بالصحة والحسن .

عند الصخرة بمني أو في الموضع المشرف علي مسجده ، أو المنحر الذي ينحر فيه اليوم .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات . وقد روي أنه أَمَرَّ السكين بقوته علي حلقه مرارا فلم تقطع ، وجواب لما محذوف تقديره كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال ، من استبشارهما وشكرهما لله تعالي علي ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله ، وإظهار فضلهما به علي العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلي غير ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما ، واحتج به من جوز النسخ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ (٢٧) ولم يحصل .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ الابتلاء البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها .

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل . ﴿ عَظِيمٍ ﴾ عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبيا ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين . قيل كان كبشا من الجنة وقيل وعلا أهبط عليه من ثبير (٢٨) وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتي أخذه فصارت سنة ، والفادي علي الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإنما قال وفديناه لأن الله المعطي له والآمر به علي التجوز في الفداء أو الإسناد ، واستدل به الحنفية علي أن من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة وليس فيه ما يدل عليه .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليه السلام (٢٩) .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لعله طرح عنه إنا اكتفاء بذكره مرة في هذه القصة .

---

(٢٧) الصافات : ١٠٢ . (٢٨) ثبير : جبل قريب من مكة.

(٢٩) انظر تفسير الآية رقم ٧٨ من هذه السورة .

الآيات من ١١١ : ١١٨

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) ﴾

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ مقضيا نبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلي وجود المبشر به وقت البشارة ، فإن وجود ذي الحال غير شرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعني بالحال، فلا حاجة إلي تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثلا وبشرناه بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبيا من الصالحين ، ومع ذلك لا يصير نظير قوله ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ (٣٠) فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حينما يوجد ، ومن فسر الذبيح بإسحاق جعل المقصود من البشارة نبوته ، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معني الكمال والتكميل بالفعل علي الإطلاق .

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ علي إبراهيم في أولاده . ﴿ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب ، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، وقرئ وبرّكنا . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عمله أو إلي نفسه بالإيمان والطاعة . ﴿ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي . ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه ، وفي ذلك تنبيه علي أن النسب لا أثر له في الهدي والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب .

الإشارة إلي قصة موسي وهارون

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع

---

(٣٠) الزمر : ٧٣ .

الدينية والدنيوية .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من تغلب فرعون أو الغرق .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ ثم الضمير لهما مع القوم . ﴿ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ علي فرعون وقومه .

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الطريق الموصل إلي الحق والصواب .

الآيات من ١١٩ : ١٣٦

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) ﴾

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ ﴾ .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سبق مثل ذلك .

قصة إلياس

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هو إلياس بن ياسين سبط هارون أخي موسي بعث بعده . وقيل : إدريس لأنه قرئ إدريس وإدراس مكانه وفي حرف أبي رضي الله عنه . وقيل : إيليس وقرأ ابن ذكوان مع خلاف عنه بحذف همزة الياس .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أتعبدونه أو أتطلبون الخير منه ، وهو إسم صنم كان لأهل بَكٍّ من الشام وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك وقيل : البعل الرب بلغة اليمن ، والمعني أتدعون بعض البعول . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ وتتركون عبادته ، وقد أشار فيه إلي المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرح به بقوله :

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب علي البدل .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى في العذاب وإنما أطلقه ، اكتفاء منه بالقرينة ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ مستثني من الواو لا من المحضرين لفساد المعني .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ لغة في إلياس كسيناه وسنين ، وقيل : جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين ، لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجبين وهو قليل مُلْبس ، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب علي إضافة آل إلي ياسين لأنهما في المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا إلياس ، وقيل محمد ﷺ ،أو القرآن أو غيره من كتب الله والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله :

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإ لياس .

قصة لوط

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ﴾ .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ سبق بيانه .

الآيات من : ١٣٧ : ١٤٨

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ

الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)
وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة . ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴾ على منازلهم فى متاجركم إلى الشام فإن سدوم فى طريقه .﴿مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين فى الصباح .

﴿وَبِاللَّيْلِ ﴾ أى ومساء أو نهاراً وليلا ، ولعلها وقعت قريب منازل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد لها مساء ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به؟

قصة يونس

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقرئ بكسر النون .

﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ هرب ، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه . ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء.

﴿فَسَاهَمَ ﴾ فقارع أهله ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة، ، وأصله المزلق عن مقام الظفر ، روى أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله فركب السفينة فوقفت فقالوا : ها هنا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء.

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ فابتلعه من اللقمة . ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ داخل فى الملامة ، أو آت بما يلام عليه أومليم نفسه، وقرئ بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب .

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره ، أو في بطن الحوت وهو قوله ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾[٣١] وقيل من المصلين .

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيا وقيل ميتا ، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ، ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء .

---

(٣١) الأنبياء : ٨٧

﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه ، ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت ، روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلي البر فلفظه ، واختلف فى مدة لبثه فقيل بعض يوم وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة، وقيل عشرون وقيل أربعون ، ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد .

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى فوقه مظلة عليه. ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه ، يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به ، والأكثر على أنها كانت الدُّبَّاء غطته بأوراقها عن الذباب فإنه لايقع عليه، ويدل

* الإعجاز العلمى

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾

يحدثنا الدكتور / عبد الرازق نوفل في كتابه دنيا الزراعة عن القرع فيقول :

ومنه الكوسة وهي من أسهل الخضراوات هضما . . لذلك تعطى لضعاف المعدة أو في دور النقاهة أو للأطفال . . وهي مفيدة لمعالجة الحميات ومدرة للبول . . مسكنة للأعصاب مولدة للبلغم .

ومنه القرع العسلي . . أو قرع المربى . . أو الاسلامبولي . . وهو يزيل الصداع وينظف الكلى إذ يدر البول ويقويها . . وهو طارد للديدان . . ويفيد تضخم البروستاتا عند الشيوخ . . وبذور القرع بعد دقها ومزجها بكمية مماثلة من السكر وأخذها في الصباح قبل الإفطار يقتل الدودة الوحيدة التي يصاب بها بعض الناس . . وقد تتكرر هذه العملية أكثر من مرة حتي أربع مرات . . على أربعة أيام . . والنتيجة الحتمية موت الدودة وخروجها مع البراز لا محالة . . وأنها لذلك أفيد من الأدوية التي لا تكون لها مثل هذه النتيجة . . والتي قد تكون لها من الآثار الجانبية والمضاعفات ما يضر بالإنسان بخلاف استخدام بذور القرع . .

وأكل البذور نيئة . . بعد تقشيرها . . أو عمل شراب منها بالماء الساخن وقليل من السكر يفيد في خفض ضغط الدم ويعمل على طرد السوائل من الجسم وأكل القرع عموما ينشط الذاكرة ويقوى الذهن ويشفي الصداع . . وصدق سيدنا رسول الله ﷺ إذ قال : « عليكم بالقرع فإنه يزيد في العقل والدماغ » « صدرق رسول الله ﷺ » .

وذكره قرآن ربنا الكريم في نصه الحكيم . . باسمه الصحيح وهو اليقطين في قوله تعالى ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ .

عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك لتحب القرع، قال: أجل هى شجرة أخى يونس(٣٢) وقيل : التين وقيل: الموز ، تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر علي ثماره.

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى، والمراد به ماسبق من إرساله أو إرسال ثان إليهم أو إلى غيرهم ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ فى مرأى الناظر أى إذا نظر إليهم ، قال هم مائة ألف أو يزيدون والمراد الوصف بالكثرة وقرئ بالواو.

﴿ فَآمَنُوا ﴾ فصدقوه أو فجددوا الإيمان به بمحضره ، ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلي أجلهم المسمى، ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكُبَر وأولى العزم من الرسل ، أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة.

الآيات من ١٤٩ : ١٥٩

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾

إنكاره المشركين فى جعلهم الملائكة إناثا وأنهن بنات الله

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ معطوف على مثله ، في أول السورة أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث، وساق الكلام فى

---

(٣٢) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف ولم يسنده ، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف : لم أجده . وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس ، قال عبد الله . قال النبى ﷺ : واليقطين القرع .

تقريره جارا لما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين فى قولهم : الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة، وتفضيل أنفسهم عليه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم ، واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله فى كتابه مرارا، وجعله مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، والإنكار ها هنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما، أو لأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام عن التقسيم .

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تعلم إلا بها ، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم .

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ .

﴿ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما يتدينون به ، وقرئ ولد الله أى الملائكة ولده ، فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ استفهام إنكار واستبعاد ، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء، وعن نافع كسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم بعدها عليها أو على الإثبات بإضمار القول أي: لكاذبون فى قولهم أصطفى ، أو إبداله من ولد الله.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بما لا يرتضيه عقل.

﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه منزه عن ذلك .

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته .

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ الذى أنزل عليكم ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعواكم .

الكفار يجعلون بين الله وبين الجنة نسبا .

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ يعنى الملائكة ذكرهم باسم جنسهم وضعا منهم أن يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشياطين إخوان ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فسرت بغير الملائكة ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى العذاب (٣٣)

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والنسب .

الآيات من ١٦٠ : ١٧٢

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء من المحضرين منقطع ، أو متصل إن فسر الضمير بما يعمهم وما بينهما اعتراض أو من يصفون .

لاينقاد لقول الكفار إلا من هو من أهل الضلال

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ عود إلي خطابهم .

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ علي الله . ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمفسدين الناس بالإغواء .

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار ويصلاها لا محالة ، وأنتم ضمير لهم ولآلهتهم غلب فيه المخاطب علي الغائب ، ويجوز أن

---

(٣٣) أخرج جويبر عن الضحاك وابن عباس قال : أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش: سليم وخزاعه وجهينة .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : قال كبار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن . فأنزل الله الآية . ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

يكون وما تعبدون لما فيه من معني المقارنة سادا مسد الخبر أي إنكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها ، ما أنتم علي ما تعبدونه بفاتنين بباعثين علي طريق الفتنة إلا ضالا مستوجبا للنار مثلكم ، وقرئ صال بالضم على أنه جمع محمول علي معني من ساقط واوه لالتقاء الساكنين ، أو تخفيف صائل علي القلب كشاك في شائك ، أو المحذوف منه كالمنسي كما في قولهم : ما باليت به بالة فإن أصلها بالية كعافية .

من كلام الملائكة ردا على الكفار

﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد علي عبدتهم والمعني : وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء إلي أمر الله في تدبير العالم ، ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله سبحان الله من كلامهم ليتصل بقوله ﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ (٣٤) كأنه قال ولقد علمت الملائكة أن المشركين معذبون بذلك ، وقالوا : سبحان الله تنزيها له عنه ، ثم استثنوا المخلصين تبرئة لهم منه ، ثم خاطبوا المشركين بأن الافتتان بذلك للشقاوة المقدرة ، ثم اعترفوا بالعبودية وتفاوت مراتبهم فيه لا يتجاوزونها فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة (٣٥) .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزهون لله عما لا يليق به ، ولعل الأول إشارة إلي درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف ، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص ، لأنهم المواظبون علي ذلك دائما من غير فترة دون غيرهم ، وقيل : هو من كلام النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين والمعني : وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله يوم القيامة ، وإنا لنحن الصافون له في الصلاة والمنزهون له عن السوء .

تكذيب الكفار في ادعاءاتهم

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ أي مشركو قريش .

---

(٣٤) الصافات ١٥٨ .

(٣٥) أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال : كان الناس يصلون متبددين فانزل الله ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ فأمرهم أن يصفوا ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ كتابا من الكتب التي نزلت عليهم .
﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم .
﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أي لما جاءهم الذكر الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها .
﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم .

نصر الله لرسله والمؤمنين بهم

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وعدنا لهم النصر والغلبة وهو قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ .

الآيات من ١٧٣ : ١٨٢

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضي بالذات ، وإنما سماه كلمة وهي كلمات لانتظامهم في معني واحد .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم . ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر ، وقيل يوم الفتح .

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ علي ما ينالهم حينئذ والمراد بالأمر الدلالة علي أن ذلك كائن قريب كأنه قدامه . ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة ، وسوف للوعيد لا للتبعيد .

استعجال الكفار العذاب

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ روي أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متي هذا فنزلت . (٣٦)

(٣٦) أخرج جويبر عن ابن عباس قال : قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به عجله لنا، فنزلت الآية . قال السيوطي : صحيح على شرط الشيخين . ـ لباب النقول ـ .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ فإذا نزل العذاب بفنائهم ،شبهه بجيش هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة ، وقيل : الرسول وقرئ نزل علي إسناده إلي الجار والمجرور ونزل أي العذاب . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم ، واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ، ولما كثر فيهم الهجوم والغارة في الصباح سموا الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر.

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد إلي تأكيد وإطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة ، أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عما قاله المشركون فيه علي ما حكي في السورة ، وإضافة الرب إلي العزة لاختصاصها به إذ لا عزة إلا له أو لمن أعزه ، وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم .

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ علي ما أفاض عليهم وعلي من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ، ولذلك أخره عن التسليم ، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه ويسلمون علي رسله . وعن علي رضي الله عنه : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفي من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه : سبحان ربك إلي آخر السورة (٣٧)

فضل سورة الصافات

وعن النبي ﷺ « من قرأ الصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان ، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين ، وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين » (٣٨) .

---

(٣٧) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه والثعلبى من رواية الأصبغ بن بناته عن علي رضى الله عنه موقوفا ، ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلا .

(٣٨) ذكره الزمخشري في تفسيره ولم يسنده ، وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طريق أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٣٨) سورة ص مكية
وآياتها ثمان وثمانون(١)
بسم الله الرحمن الرحيم
الآيات من ١ : ٥

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾.

قسم على شقاق الكفار وعنادهم، وتذكير لهم بهلاك المكذبين قبلهم

﴿ صٓ ﴾ وقرئ بالكسر لالتقاء الساكنين ، وقيل : إنه أمر من المصاداة بمعنى المعارضة ، ومنه الصدى فإنه يعارض الصوت الأول أى عارض القرآن بعملك ، وبالفتح لذلك ، أو لحذف حرف القسم وإيصال فعله إليه ، أو إضماره والفتح فى موضع الجر فإنها غير مصروفة لأنها علم السورة ، وبالجر والتنوين علي تأويل الكتاب . ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الواو للقسم إن جعل ص اسماً للحرف أو مذكور للتحدى ، أو للرمز بكلام مثل صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، أو للسورة خبر المحذوف أو لفظ الأمر ، وللعطف إن جعل مقسماً به كقولهم : الله لأفعلن بالجر والجواب محذوف دل عليه ما فى ص من الدلالة على التحدى ، أو الأمر بالمعادلة أى إنه لمعجز أو لواجب العمل به ، أو إن محمداً لصادق أو قوله :

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا به . ﴿ فِي عِزَّةٍ ﴾ أى استكبار عن الحق . ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ولرسوله ولذلك كفروا به ، وعلي الأولين الإضراب أيضاً من الجواب المقدر ولكن من حيث إشعاره بذلك والمراد بالذكر العظة أو الشرف والشهرة ، أو ذكر ما يحتاج إليه فى الدين من العقائد والشرائع والمواعيد ، والتنكير فى عزة وشقاق للدلالة على شدتهما ، وقرئ

---

(١) في مختلف التفاسير : نزلت بعد سورة القمر .

فى غرة أى غفلة عما يجب عليهم النظر فيه .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم علي كفرهم به استكباراً وشقاقاً .

﴿ فَنَادَوْا ﴾ استغاثة أو توبة أو استغفاراً .

مسألة نحوية

﴿ وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى ليس الحين حين مناص ، ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التانيث للتأكيد كما زيدت على رب ، وثم خصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين ، وقيل : هى النافية للجنس أى ولا حين مناص لهم ، وقيل للفعل والنصب بإضماره أى ولا أرى حين مناص ، وقرئ بالرفع على أنه اسم لا ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى ليس حين مناص حاصلاً لهم ، أو لاحين مناص كائن لهم وبالكسر كقوله :

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء (٢)

إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر في قوله : لَوْلاكَ هذا العام لم أَحْجُجِ . أو لأن أوان شبه بإذ لأنه مقطوع عن الإضافة إذ أصله أوان صلح ، ثم حمل عليه مناص تنزيلا لما أضيف إليه الظرف منزلته لما بينهما من الاتحاد . إذ أصله حين مناصهم ثم بني الحين لإضافته إلى غير متمكن، ولات بالكسر كجير ، وتقف الكوفية عليها بالهاء كالأسماء والبصرية بالتاء كالأفعال . وقيل : إن التاء مزيدة علي حين لاتصالها به فى الإمام (٣) ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس إذ مثله لم يعهد فيه ، والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل ولقوله :

العَاطِفُونَ تَحِينَ لاَ مِنْ عَاطِفٍ وَالُمطْعِمُونَ زَمَان مَا مِنْ مُطْعِمٍ (٤)

والمناص المنجا من ناصه ينوصه إذا فاته .

---

(٢) البيت لأبى زبيد الطائى .

ومعنى البيت : لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا والحال انه ليس الأوان أوان صلح ، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء بل وقت فناء .

(٣) الإمام : أي المصحف الإمام مصحف عثمان رضي الله عنه .

(٤) الشاهد فيه أن التاء في (تحين) هى تاء لات ، قال الزمخشري : هو قول ضعيف ومعنى البيت : إنهم يعطفون حين لا يوجد أحد يعطف على أحد ، ويطعمون في وقت المحل حيث لا يوجد أحد يطعم أحدا .

تعجب الكفار من أن يكون الرسول بشراً

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ بشر مثلهم أو أمى من عدادهم . ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذماً لهم ، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم علي هذا القول . ﴿ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره معجزة . ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقوله على الله تعالى .

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ بأن جعل الألوهية التى كانت لهم لواحد . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ فى العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ، وما نشاهده من أن الواحد لا يفى علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة ، وقرئ مشدداً وهو أبلغ ككرام وكرام .

وروى أنه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش ، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر رسول الله ﷺ وقال : هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل عليهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماذا يسألوننى ؟ ، فقالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال : أرأيتم أن أعطيتكم ما سألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقالوا : نعم وعشراً، فقال : قولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا ذلك (٥) .

الآيات من ٦ : ٩

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبى طالب بعدما

---

(٥) رواه السيوطي في لباب النقول، وعزاه إلى احمد والترمذي والنسائى والحاكم وصححه عن ابن عباس ، وأوله : مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبى ﷺ فشكوه إلى أبى طالب ... الحديث .

بكتهم رسول الله ﷺ ﴿أَنِ امْشُوا﴾ قائلين بعضهم لبعض امشوا . ﴿وَاصْبِرُوا﴾ واثبتوا . ﴿عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ على عبادتها فلا ينفعكم مكالمته ، وأن هى المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول يشعر بالقول . وقيل : المراد بالانطلاق الاندفاع في القول ، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت أولادها ومنه الماشية ، أي اجتمعوا ، وقرئ بغير أن وقرئ يمشون أن اصبروا . ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له ، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة ، والترفع على العرب والعجم لشئ يتمنى أو يريده كل أحد ، أو إن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم .

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذى يقوله . ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ فى الملة التى أدركنا عليها آباءنا ، أو فى ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التى هى آخر الملل فإن النصاري يثلثون . ويجوز أن يكون حالاً من هذا أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان بالتوحيد كائناً فى الملة المترقبة . ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ كذب اختلقه .

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ إنكار لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أدون منهم في الشرف والرئاسة كقولهم **﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** (٦) وأمثال ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوى . ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل ، وليس في عقيدتهم ما يبتون به من قولهم: هذا ساحر كذاب ، إن هذا إلا اختلاق . ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابى بعد فإذا ذاقوه زال شكهم ، والمعني أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه .

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ بل أعندهم خزائن رحمته وفى تصرفهم حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا فيتخير للنبوة بعض صناديدهم ، والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز أي الغالب الذى لا يغلب ، الوهاب الذى له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء ، ثم رشح ذلك فقال :

---

(٦) الزخرف : ٣١ .

الآيات من ١٠ : ١٥

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ⑩ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ⑪ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ⑫ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ⑬ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ⑭ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮ ﴾

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرف فى نبوته بأن ليس عندهم خزائن رحمته التى لا نهاية لها ، أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الجسمانى الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها . ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾ جواب شرط محذوف أى إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم ، فينزلوا الوحي إلي من يستصوبون . وهو غاية التهكم بهم ، والسبب فى الأصل هو الوصلة ، وقيل : المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث السفلية .

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ أى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب ، فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية ، أو فلا تكثرت بما يقولون وما مزيدة للتقليل كقولك أكلت شيئاً ما، وقيل للتعظيم على الهزء وهو لا يلائم ما بعده ، وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول .

هلاك المكذبين من الأمم السابقة

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ ذو الملك الثابت بالأوتاد كقوله :

وَلَقَدْ غَنوا فِيْهَا بِأَنْعَمِ عِيْشَةٍ   فِى ظِلِّ ملكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ (٧)

---

(٧) البيت لشاعر اسمه الأسود بن يعفر ، ضمن أبيات هي :

ماذا أؤمل بعد آل محرق   تركوا منازلهم وبعد إياد

مأخوذ من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء . وقيل : نصب أربع سوار (٨) وكان يمد يدى المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتاداً ويتركه حتى يموت .

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ليكة . ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ يعنى المتحزبين على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم .

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب ، ولذلك رتب عليه : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وهو إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب الواحد منهم تكذيب جميعهم .

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ وما ينتظر قومك أو الأحزب فإنهم كالحضور لاستحضارهم بالذكر ، أو حضورهم فى علم الله تعالى ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى النفخة الأولي . ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين ، أو رجوع وترداد فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ، وقرأ حمزة والكسائى بالضم وهما لغتان .

الآيات من ١٦ : ٢٢

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ

جرت الرياح على مقر ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي بـه ... يوما يصير إلى بلىً ونفاد

ومعنى البيت :

لقد أقاموا بأرغد عيشة في ظل ملك قوى متين ثابت الأركان ، ثم زال ذلك كله .

(٨) سوار : جمع سارية وهي العمود .

الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) ﴾

استعجالهم العذاب

﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا** ﴾ قسطنا من العذاب الذى وعدنا به ، أو الجنة التى تعدها للمؤمنين وهو من قطه إذا قطعه ، وقيل لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى : عجل لنا صحيفة أعمالنا للنظر فيها . ﴿ **قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ** ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء.

تسلية للنبى ﷺ بذكر قصة داود

﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ** ﴾ اذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية فى أعينهم ، فإنه مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات لما أتى صغيرة نزل عن منزلته ووبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتي تفطن فاستغفر ربه وأناب فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان ، أو تذكر قصته وصن نفسك أن تزل فليلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهمال عنان نفسه أدنى إهمال . ﴿ **ذَا الأَيْدِ** ﴾ ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآدو أياد بمعنى . ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ رجاع إلي مرضاة الله تعالى ، وهو تعليل للأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل .

﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ** ﴾ قد مر تفسيره، ويسبحن حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال . ﴿ **بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ** ﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق . وعن أم هانئ رضى الله تعالى عنها : أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال «**هذه صلاة الإشراق**» (٩) . وعن ابن عباس رضى الله

(٩) أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي والبغوي والطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أم هانئ رضي الله عنها .
ورواه الحاكم من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا .

تعالى عنهما : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية .

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ إليه من كل جانب ، وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه مدرجاً ، وقرئ والطير محشورة بالمبتدأ والخبر . ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رَجْاع إلى التسبيح، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل علي الموافقة فى التسبيح ، وهذا على المداومة عليها، أو كل منهما ومن داود عليه الصلاة والسلام مرجع لله التسبيح .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وقويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ، وقرئ بالتشديد للمبالغة . قيل : إن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان ، فأوحي إليه أن اقتل المدعى عليه فأعلمه فقال : صدقت إني قتلت أباه وأخذت البقرة فعظمت بذلك هيبته .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ النبوة أو كمال العلم وإتقان العمل . ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل ، أو الكلام المخلص الذى ينبه المخاطب علي المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف ، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها ، وإنما سمى به (أما بعد) لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدمة له من الحمد والصلاة ، وقيل : هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل ، كما جاء في وصف كلام الرسول عليه الصلاة والسلام «**فصل لا نزر ولا هذر**» (١٠) .

قصة الخصم مع داود

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ استفهام معناه التعجب والتشويق إلي استماعه ، الخصم فى الأصل مصدر ولذلك أطلق على الجمع . ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إذ تصعدوا سور الغرفة، تفعل من السور كتسنم من السنام ، وإذ متعلق بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا ، أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه الصلاة والسلام ، وأن إسناد أتى إليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم لما فيه

---

(١٠) هو جزء من حديث وصف أم معبد للنبى ﷺ في أثناء مروره عليها في خيمتها حين هاجر .

والنزر ـ بالزاي ـ القليل التافه :، والهذر : سقط الكلام .

من معنى الفعل لابأتى لأن إتيانه الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن حينئذ وإذ الثانية فى ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لتسوروا، ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس علي الباب لا يتركون من يدخل عليه ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جَزَّأ زمانه: يوما للعبادة ، ويوماً للقضاء، ويوما للوعظ ، ويوما للاشتغال بخاصته ، فتسور عليه ملائكة علي صورة الإنسان في يوم الخلوة.

﴿ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾ نحن فوجان متخاصمان علي تسمية مصاب الخصم خصما، ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وهو علي الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور، ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ﴾ ولا تَجُر في الحكومة وقرئ ولاتشطط أى ولاتبعد عن الحق ولا تشطط ولا تشاط، والكل من معنى الشطط وهو من مجاوزة الحد .﴿ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى إلى وسطه وهو العدل.

الآيات من ٢٣ : ٢٥

﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾

﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي ﴾ بالدين أو بالصحبة . ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ هي الأنثي من الضأن وقد يكني بها عن المرأة ، والكناية والتمثيل فيما يساق للتعريض أبلغ في المقصود ، وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وقرأ حفص بفتح ياء لي نعجة، ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل اجعلها كفلي أى نصيبى .﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ وغلبنى فى مخاطبته إياي محاجَّةً بأن جاء بحجاج لم أقدر علي رده ، أوفي مغالبته إياي في الخطبة يقال: خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابا

حيث زوجها دوني ، وقرئ وعازّني أى غالبني وعزني علي تخفيف غريب.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطة وتهجين طمعه ، ولعله قال ذلك بعد اعترافه أو علي تقدير صدق المدعي والسؤال مصدر مضاف إلي مفعوله وتعديته إلي مفعول آخر بإلي لتضمنه معني الإضافة.﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط.﴿ لَيَبْغِي ﴾ ليتعدي ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وقرئ بفتح الياء علي تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله :

اضرب عنك الهموم طارقها (١١)

وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أى وهم قليل ، وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم . ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ابتليناه بالذنب أو امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها .﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ لذنبه ،﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ ساجدا علي تسمية السجود ركوعا لأنه مبدؤه، أو خر للسجود راكعا أى مصليا كانه أحرم بركعتي الاستغفار .﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورجع إلي الله بالتوبة . وأقصي ما في هذه القضية الإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام ود أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب عنه .

وما روي أن بصره وقع علي امرأة فعشقها وسعي حتي تزوجها، وولدت منه سليمان ، إن صح فلعله خطب مخطوبته او استنزله عن زوجته، وكان ذلك معتادا فيما بينهم وقد واسي الأنصار المهاجرين بهذا المعني، وما قيل: إنه أرسل « أوريا »(١٢) إلي الجهاد مرارا وأمر أن يقدم حتي قتل فتزوجها هزءٌ وافتراء ، ولذلك قال علي رضي الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام علي ما يرويه

---

(١١) شطر بيت لطرفة بن العبد ، وهو بتمامه :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

والشاهد فيه أن اضرب فعل أمر مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة المقدرة ، وحذفها بغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل .

والمعنى : ادفع عنك طارق الهموم كما تضرب بالسوط أعلى رأس الفرس .

وقيل : البيت مصنوع على طرفة ولم يقله .

(١٢) أوريا هو أحد القواد وكان زوجا لتلك المرأة .

القصاص جلدته مائة وستين (١٣) .

وقيل إن قوما قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم غرضهم وأراد أن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له فاستغفر ربه مما هم به وأناب .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى ما استغفر عنه . ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ لقربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع فى الجنة .

الآيات من ٢٦ : ٣٠

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ استخلفناك علي الملك فيها ، او جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ، ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ بحكم الله . ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ ما تهوي الأنفس ، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلي تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسالته ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دلائله التي نصبها علي الحق .﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوي.

الهدف من خلق الخلق عبادة الله وتوحيده والتسبيح بحمد

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ لا حكمة فيه ، أوذوى باطل بمعني مبطلين عابثين كقوله ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

(١٣) وهو حد الافتراء على الأنبياء عليهم السلام .

لاعبين ﴾(١٤) أو للباطل الذي هو متابعة الهوي، بل للحق الذي هو مقتضي الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله تعالي﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾(١٥) علي وضعه موضع المصدر مثل هنيئا ﴿ **ذَلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَروا** ﴾ الإشارة إلي خلقها باطلاً والظن بمعني المظنون ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذينَ كَفَروا منَ النَّارِ** ﴾ بسبب هذا الظن.

﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذيـــنَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات كَالْمُفْسدينَ في الأَرْضِ** ﴾ أم منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلا ليدل علي نفيه وكذا التي في قوله ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ كأنه أنكر التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ، ويجوز أن يكون تكريرا للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم، والآية تدل علي صحة القول بالحشر، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي الحكمة فيه ، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة آخري يجازون بها .

﴿ **كتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ** ﴾ نفاع ، وقرئ بالنصب علي الحال. ﴿ **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته** ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة . وقرئ ليتدبروا علي الأصل ولتدبروا أى أنت وعلماء أمتك ﴿ **وَليَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب** ﴾ وليتعظ به ذوو العقول السليمة ، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل ، فإن الكتب الإلهية بيان لما لايعرف إلا من الشرع ، وإرشاد إلي ما يستقل به العقل ، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر للثاني.

قصة سليمان والخيل

﴿ **وَوَهَبْنَا لدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ أي نعم العبد سليمان إذ ما بعده تعليل للمدح وهو في حاله. ﴿ **إنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ رجاع إلى الله بالتوبة، أو إلي التسبيح مرجع له(١٦) .

(١٤) الأنبياء : ١٦ . (١٥) الذاريات : ٥٦ .

(١٦) ورث سليمان أباه في النبوة ، وقد علم داود أن ابنه سيكون نبيا من بعده ، فقد قال ابن

الآيات من ٣١ : ٣٥

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ ظرف لأواب أو لنعم ، والضمير لسليمان عند الجمهور ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ بعد الظهر ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم علي طرف سنبك يد أو رجل ، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لايكاد يكون إلا في العراب الخلص. ﴿ الْجِيَادُ ﴾ جمع جواد أو جود، وهو الذي يسرع في جرية وقيل: الذي يجود في الركض ،وقيل : جمع جيد روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس ، وقيل: أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتي غربت الشمس وغفل عن العصر ، أو عن ورد كان له فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله.

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أصل أحببت أن يعدي بعلي لأنه بمعني آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدي تعديته ، وقيل: هو بمعني تقاعدت من قوله :

مثل بعير السوء إذا أحبا (١٧)

كثير في تفسيره : قال ابن أبي حاتم عن مكحول قال : لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له : يا بنى ما أحسن؟ قال : سكينة الله والإيمان . قال : فما اقبح ؟ قال : كفر بعد إيمان . قال : فما أحلى ؟ قال : روح الله بين عباده . قال : فما أبرد ؟ قال : عفو الله عن الناس وعفو الناس بعضهم عن بعض . قال داود عليه السلام : فأنت نبي . ـ مختصر ابن كثير جـ ٤ ص ٣١ ـ .

(١٧) بيت من أبيات في أرجوزة لأبي محمد الفقعسي وهي كما جاءت في مشاهد الإنصاف :

أي برك ، وحب الخير مفعول له والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها ، قال عليه الصلاة والسلام «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلي يوم القيامة** : [١٨] وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء.
﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ أى غربت الشمس ، شبه غروبها بتواري المخبأة بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها .
﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ** ﴾ الضمير للصافنات. ﴿ **فَطَفِقَ مَسْحًا** ﴾ فأخذ يمسح السيف

كيف قربت عَمَّكَ الْقِرْشَبَّا　　حين أتاك لاغبًا مُخبًّا
حلت عليه بالقفيل ضربا　　تبًّا لمن بالهون قد ألَبَّا
مثل بعير السوء إذ أُحبَّا

والقرْشَبُّ : الْمسِنُّ ، واللاغب : الْمُتْعَب ، والْمخِبُّ : المسرع ـ الذي يسير سير الخبب ـ وقيل : المخب المقيم الملازم لمكانه .

حلت : قمت ـ القفيل : السوط ـ تبًّا : هلاكا ـ الهُون : الهوان . ألبًّا : اقام .

(١٨) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٣ وقال: رواه احمد والشيخان والترمذي والنسائى عن عروة البارقي ، ورواه أحمد أيضًا عن جابر وهو حديث حسن صحيح .

* الإعجاز العلمى

ما ذكر في القرآن الكريم عن الخيل فقد قرر الطب البيطري وأبحاثه عن الخيل أنه لاختبار صلاحية الخيل يجب ـ بعد أن تفحص ظاهريا ـ أن تجبر على العدو لشوط كبير على قدر الاستطاعة ومراقبتها أثناء العدو. لتبين سلامة أجزاء الحصان ، ولاسيما سيقانه وتناسقها مع باقي أجزاء الجسم . . ثم يقاس نبض الخيل بعد شوط العدو . . وذلك عن طريق الشريان الفكي والصدغي والكعبري الموجودة بعنق الحصان ، مع فحص سيقانه بعد هذا المجهود للتعرف على قدرته .

وهذا ما سبق أن قرره القرآن الكريم من فحص سليمان عليه السلام لخيوله التي استعرضها أولاً ، ثم أمر بأن تجرى إلى أبعد شوط حتى توارت بالحجاب فلم تعد رؤيتها مستطاعة . . وبعدها طلب ردها مباشرة بعد هذا الشوط الطويل . . وبوصولها إليه قام بفحص شريانها للوقوف على نبضها ، ثم فحص سيقانها ليتعرف على حالها بعد هذا المجهود وأثره عليها .

وذلك كله متجلٍّ في قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداوُد سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ

مسحاً . ﴿ بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه ، وقيل : جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حُبّالها ، وعن ابن كثير بالسؤق على همز الواو لضمة ما قبلها كمؤقن ، وعن أبي عمرو بالسؤوق وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس.

فتنة سليمان

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ وأظهر ما قيل فيه : ما روى مرفوعاً «**أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فو الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً**» (١٩) .

وقيل : ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك ، فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه بأن لم يتوكل على الله .

وقيل : إنه غزا صيدون (٢٠) من الجزائر ، فقتل ملكها وأصاب ابنته جرادة ، فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها كعادتهن في ملكه ، فأخبره

---

(١٩) هذا حديث متفق عليه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، أخرجه أحمد والشيخان والنسائي ، ورواه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨٩ ورمز له بالصحة والحسن .

(٢٠) صيدون : مدينة في بعض الجزائر .

*** الإعجاز العلمى**

عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾

وهكذا نجد أن الوصف العلمي ، والفحص الطبي البيطري يقرّان ما سبق أن أشارت إليه بعض آيات القرآن الكريم . هذا كله في زمن التنزيل قبل ظهور الأبحاث الطبية وغيرها.

آصف فكسر الصورة وضرب المرة وخرج إلى الفلاة باكياً متضرعاً ، وكانت له أم ولد اسمها أمينة إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمه وكان ملكه فيه ، فأعطاها يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم وتختم به وجلس على كرسيه ، فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شئ إلا فى نسائه وغُيِّر سليمان عن هيئته ، فأتاها لطلب الخاتم فطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبدت الصورة فى بيته ، فطار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ، فوقعت فى يده فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به وخر ساجداً وعاد إليه الملك ، فعلى هذا الجسد صخر ، سمى به ، وهو جسم لا روح فيه ، لأنه كان متمثلا . بما لم يكن كذلك ، والخطيئة تغافله عن حال أهله ؛ لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ ، والسجود للصورة بغير علمه لا يضره(٢١) .

﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** ﴾ لا يتسهل له ولا يكون ، ليكون معجزة لى مناسبة لحالى ، أو لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة ، أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته كقولك : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال ، علي إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة ، وتقديم الاستغفار علي الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل للدعاء بصدد الإجابة ، قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء ، ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ المعطى ما تشاء لمن تشاء .

---

(٢١) نذكر ما جاء في تفسير الكشاف حول هذه القصة :

ولقد أبى العلماء المتقنون قبول هذه القصة ، وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل ، وتسليط الله إياهم على عباده حتي يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ، ألاترى إلى قوله ﴿ من محاريب وتماثيل ﴾ وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه . وقوله : ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ﴾ نابٍ عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نُبُوًّا ظاهرا . ا هـ .

الآيات من ٣٦ : ٤٣

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) ﴾

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ فذللناها لطاعته إجابة لدعوته وقرئ الرياح . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ لينة من الرخاوة لا تزعزع ، أو لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد . ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أراد من قولهم أصاب الصواب فأخطأ الجواب (٢٢) .

﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف على الريح ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ بدل منه .

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ عطف على كل ، كأنه فصل الشياطين إلى عَمَلَةٍ استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص ، ومَرَدَة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر ، ولعل أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى ويمكن تقييدها، هذا والأقرب أن المراد تميل كفهم عن الشرور بالإقران في الصَّفَد وهو القيد ، وسمى به العطاء لأنه يرتبط به المنعم عليه . وفرقوا بين فعليهما فقالوا : صَفَدَه قيده ، وأَصْفَده أعطاه ، عكس وعد وأوعد وفي ذلك نكتة (٢٣) .

---

(٢٢) من معاني أصاب : قصد وأراد . وعليه جاءت هذه العبارة التي حكاها الأصمعي عن العرب : أصاب الصواب فأخطأالجواب . أي قصد وأراد الصواب .
وعن رُؤْبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة : (أصاب) فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا.
لقد كان سؤاله لهما هو عين ما جاءا يسألان عنه ويستفتيانه فيه ، وهو أن أصاب بمعنى أراد وقصد .

(٢٣) أي أن بناء فَعَل في وَعَد يأتي في الخير ، وبناء أفعل يأتي في الشر وبناء فَعَل في صفد يأتي في الشر ، وبناء أفعل يأتي في الخير .

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ أى هذا الذى أعطيناك من الملك والبسطة والتسلط علي ما لم يسلط به غيرك عطاؤنا . ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ فأعط من شئت وامنع من شئت . ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حال من المستكن في الأمر ، أى غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك ، أو من العطاء ، أو صلة له وما بينهما اعتراض . والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره ، وقيل : الإشارة إلى تسخير الشياطين ، والمراد بالمن والإمساك إطلاقهم وإبقاءهم فى القيد .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ في الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ هو الجنة .

قصة أيوب وصبره

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحاق وامرأته ليّا بنت يعقوب صلوات الله عليه . ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ بدل من عبدنا وأيوب عطف بيان له . ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ بأن مسنى ، وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوصل . ﴿ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ ﴾ بتعب . ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ ألم ، وهي حكاية لكلامه الذى ناداه به ولولا هي لقال إنه مسه ، والإسناد إلى الشيطان إما لأن الله مسه بذلك لما فعل بوسوسته ، كما قيل : إنه أعجب بكثرة ماله ، أو استغاثهُ مظلوم فلم يغثه ، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه ، أو لسؤاله امتحاناً لصبره فيكون اعترافاً بالذنب أو مراعاة للأدب ، أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم ، أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس إليه في مرضه من عظيم البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه علي الجزع ، وقرأ يعقوب بفتح النون علي المصدر ، وقرئ بفتحتين وهو لغة كالرشد والرشد وبضمتين للتثقيل .

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ حكاية لما أجيب به أي اضرب برجلك الأرض . ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي فضربها فنبعت عين فقيل هذا مغتسل أى ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك ، وقيل : نبعت عينان حارة وباردة فاغتسل من الحارة واشرب من الأخرى .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم ، وقيل وهبنا له مثلهم . ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ حتى كان له ضعف ما كان . ﴿ رَحْمَةً

﴿ مِنَّا ﴾ لرحمتنا عليه ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيق بهم .

الآيات من ٤٤ : ٤٩

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ عطف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه . ﴿ فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ روي أن زوجته ليا بنت يعقوب ، وقيل : رحمة بنت افراثيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف إن برىء ضربها مائة ضربة ، فحلل الله يمينه بذلك وهي رخصة باقية في الحدود . ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال ، ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمى جزعا كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومه في الدين . ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ ﴾ أيوب . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ مقبل بشراشره على الله تعالى .

ثناء على جملة من الأنبياء

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ابن كثير عبدنا وضع الجنس موضع الجمع ، أو على أن إبراهيم وحده لمزيد شرفه عطف بيان له ، وإسحاق ويعقوب عطف عليه . ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين . أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة ، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها ، وفيه تعريض بالبطلة الجهال أنهم كالزمنى والعماة .

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب

فيها هي : ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ تذكرهم الدار الآخرة دائمًا فإن خلوصهم في الطاعة بسببها ، وذلك لأن مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلقائه وذلك في الآخرة ، وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقية والدنيا مَعْبَر ، وأضاف نافع وهشام بخالصة إلى ذكرى للبيان ، أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير جمع خير كشر وأشرار . وقيل جمع خير أو خير على تخفيفه كأموات في جمع ميت أو ميت .

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ثم استنبئ ، واللام فيه كما في قوله : رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكًا . وقرأ حمزة و الكسائى والليسع تشبيهًا بالمنقول من ليسع من اللسع . ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ ابن عم يسع أو بشر بن أيوب . واختلف في نبوته ولقبه ، فقيل : فر إليه مائة نبي من بنى إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم ، وقيل : كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلهم . ﴿ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

جزاء هؤلاء

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم . ﴿ ذِكْرٌ ﴾ شرف لهم ، أو نوع من الذكر وهو القرآن . ثم شرع في بيان ما أعد لهم ولأمثالهم فقال : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع .

الآيات من ٥٠ : ٦٢

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾

قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾

﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾ عطف بيان لحسن مآب وهو من الأعلام الغالبة لقوله ﴿ **جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾[٢٤] وانتصب عنها . ﴿ **مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ** ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معني الفعل ، وقرئتا مرفوعتين علي الابتداء والخبر أو أنهما خبران لمحذوف .

﴿ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ** ﴾ حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل ، والأظهر أن يدعون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره ، والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمة .

﴿ **وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** ﴾ لا ينظرون إلى غير أزواجهن . ﴿ **أَتْرَابٌ** ﴾ لدَات لهم ، فإن التحاب بين الأقران أثبت ، أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية ، واشتقاقه من التراب فإنه مَسَّهُنَّ في وقت واحد .

﴿ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ** ﴾ لآجاله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ليوافق ما قبله .

﴿ **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ** ﴾ انقطاع .

مصير الطغاة

﴿ **هَذَا** ﴾ أى الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خذ هذا . ﴿ **وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ** ﴾ .

﴿ **جَهَنَّمَ** ﴾ إعرابه ما سبق . ﴿ **يَصْلَوْنَهَا** ﴾ حال من جهنم . ﴿ **فَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ المهد والمفترش ، مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم لقوله ﴿ **لهم من جهنم مهادٌ** ﴾

---

(٢٤) مريم : ٦١ .

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أى ليذوقوا هذا فليذوقوه ، أو العذاب هذا فليذوقوه ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره : ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو على الأولين خبر محذوف أي هو حميم ، والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها ، وقرأ حفص وحمزة والكسائى غساق بتشديد السين .

﴿ وَآخَرُ ﴾ أى مذوق أو عذاب آخر ، وقرأ البصريان وأخرى أى ومذوقات أو أنواع عذاب أخر . ﴿مِن شَكْلِه ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة ، وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق . وقرئ بالكسر وهو لغة . ﴿أَزْوَاجٌ ﴾ أجناس خبر لآخر أو صفة له أو للثلاثة ، أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم .

حوار بين أهل الضلال في جهنم

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج تبعهم في الضلال ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها .

﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم أو صفة لفوج ، أو حال أى مقولاً فيهم لا مرحبًا أي ما أتوا بهم رحبًا وسعة . ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا .

﴿ قَالُوا ﴾ أى الأتباع للرؤساء . ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ بل أنتم أحق بما قلتم ، أو قيل لنا لضلالكم وإضلالكم كما قالوا : ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ قدمتم العذاب أو الصلى لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمتموه من العقائد الزائغة والأعمال القبيحة . ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ فبئس المقر جهنم .

﴿ قَالُوا ﴾ أى الأتباع أيضًا . ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ مضاعفًا أى ذا ضعف وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾(٢٥) .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أى الطاغوت . ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلون ويسخرون بهم .

---

(٢٥) الأحزاب : ٦٨ .

الآيات من ٦٣ : ٧١

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ
(٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا
أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ صفة أخرى لرجالاً ، وقرأ الحجازيان وابن عامر وعاصم بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم ، وقرأ نافع وحمزة والكسائى سخريا بالضم وقد سبق مثله في المؤمنين . ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ مالت . ﴿ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ فلا نراهم أم معادلة لما لنا لا نرى على أن المراد نفي رؤيتهم لغيبتهم كأنهم قالوا : أليسوا ها هنا أم زاغت عنهم أبصارنا ، أو لاتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أى الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أو تحقيرهم ، فإن زيغ الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم ، أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثاثة حالهم .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذى حكيناه عنهم . ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ وهو بدل من لحق أو خبر محذوف ، وقرئ بالنصب على البدل من ذلك .

الرسول منذر والقرآن نبأ عظيم

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين . ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أنذركم عذاب الله . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة والكثرة في ذاته . ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء يريد قهره .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ منه خلقها وإليه أمرها . ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغلب إذا عاقب . ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ الذى يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء ،

وفي هذه الأوصاف تقرير للتوحيد ووعد ووعيد للموحدين والمشركين ، وتثنية ما يشعر بالوعيد وتقديمه لأن المدعو به هو الإنذار .

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني نذير من عقوبة من هذه صفته وأنه واحد في ألوهيته ، وقيل : ما بعده من نبأ آدم . ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ لتمادى غفلتكم ، فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة ، أما علي التوحيد فما مرَّ وأما علي النبوة فقوله :

اختصام الملأ الأعلى

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فإن إخباره عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم علي ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي ، وإذ متعلق بعلم أو بمحذوف إذ التقدير من علم بكلام الملأ الأعلى .

﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى لأنما كأنه لما جوز أن الوحي يأتيه بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله ﴿ إنما أنا منذر ﴾(٢٦) ويجوز أن يرتفع بإسناد يوحى إليه . وقرئ إنما بالكسر على الحكاية .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ بدل من إذ يختصمون مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم عليه السلام ، واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مر في البقرة ، غير أنها اختصرت اكتفاء بذلك واقتصاراً علي ما هو المقصود منها ، وهو إنذار المشركين على استكبارهم علي النبى عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام ، هذا ومن الجائز أن يكون مقاولة الله تعالى إياهم بواسطة ملك ، وأن يفسر الملأ الأعلى بما يعم الله تعالى والملائكة .

الآيات من ٧٢ : ٨١

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا

---

(٢٦) ص ٦٥ .

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴾

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ عدلت خلقته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه ، وإضافته إلى نفسه لشرفه وطهارته . ﴿ فَقَعُوا لَهُ ﴾ فخروا له . ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ تكرمة وتبجيلاً له وقد مر من الكلام فيه في البقرة .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ تعظم . ﴿ وَكَانَ ﴾ وصار . ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة ، أو كان منهم في علم الله تعالى .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ خلقته بنفسي من غير توسط كأب وأم ، والثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل ، وقرئ على التوحيد وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعى للتعظيم ، أو بأنه الذى تشبث به في تركه وهو لا يصلح مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ تكبرت من غير استحقاق أو كنت ممن علا واستحق التفوق ، وقيل استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ، وقرئ استكبرت بحذف الهمزة لدلالة أم عليها أو بمعنى الإخبار .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ إبداء للمانع وقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ دليل عليه وقد سبق الكلام فيه .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماء ، أو من الصورة الملكية . ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ مر بيانه في الحجر .

الآيات من ٨٢ : ٨٨

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ فبسلطانك وقهرك . ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة ، أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أى فأحق الحق وأقوله ، وقيل الحق الأول اسم الله نصبه بحذف حرف القسم كقوله : إن عليك الله أنْ تُبايعَا .

وجوابه ﴿ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأول جواب محذوف والجملة تفسير للحق المقول ، وقرأ عاصم وحمزة برفع الأول على الابتداء أي الحق يمينى أو قسمي ، أو الخبر أي أنا الحق ، وقرئا مرفوعين على حذف الضمير من أقول كقوله : كله لم أصنع . ومجرورين على إضمار حرف القسم في الأول وحكاية لفظ المقسم به في الثاني للتأكيد ، وهو سائغ فيه إذا شارك الأول وبرفع الأول وجره ونصب الثاني وتخريجه على ما ذكرناه ، والضمير في منهم للناس إذ الكلام فيهم والمراد بمنك من جنسك ليتناول الشياطين ، وقيل للثقلين وأجمعين تأكيد له أو للضميرين .

النبى لم يطلب أجرا علي رسالة ولم يتكلف ما لم يكلفه من أمر النبوة

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى على القرآن أو تبليغ الوحي . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة ، وأتقول القرآن .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ عظة . ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ للثقلين . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ وهو

ما فيه من الوعد والوعيد ، أو صدقه بإتيان ذلك . ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفيه تهديد .

فضل سورة ص

عن النبى ﷺ : « **من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات ، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغير أو كبير** » (٢٧) .

---

(٢٧) ذكره الزمخشري في تفسيره ، وقال ابن حجر : أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

(٣٩) سورة الزمر مكية (١)

وآياتها خمس وسبعون أو اثنتان وسبعون آية

إلا قوله : ﴿ قل يا عبادي ﴾ الآية

الآيات من ١ : ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

الدين الخالص هو الذي يقبله الله

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ خبر محذوف تقديره مثل هذا أو مبتدأ خبره . ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وهو على الأول صلة لتنزيل ، أو خبر ثان أو حال عمل فيها معني الإشارة أو التنزيل ، والظاهر أن الكتاب علي الأول السورة وعلى الثانى القرآن ، وقرئ تنزيل بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ ممحصاً له الدين من الشرك والرياء ، وقرئ برفع الدين على الاستئناف لتعليل الأمر وتقديم الخبر لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً وإجراؤه مجرى المعلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه . فقال :

---

(١) في تفسير الكشاف : تسمي هذه السورة سورة الغرف ، وفي مختلف التفاسير : نزلت هذه السورة بعد سورة سبأ .

﴿ أَلا للَّه الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة ، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر . ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يحتمل المتخذين من الكفرة والمتخذين من الملائكة وعيسى والأصنام على حذف الراجع وإضمار المشركين من غير ذكر لدلالة المساق عليهم ، وهو مبتدأ خبره علي الأول . ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ بإضمار القول . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهو متعين على الثاني ، وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً أو بدلاً من الصلة وزلفى مصدر أو حال ، وقرئ قالوا ما نعبدهم وما نعبدكم إلا لتقربونا إلي الله حكاية لما خاطبوا به آلهتهم ونعبدهم بضم النون اتباعًا . ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار، والضمير للكفرة ومقابليهم ، وقيل لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي ﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق . ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فإنهما فاقدا البصيرة .

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ كما زعموا . ﴿ لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ إذ لا موجود سواه إلا هو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا الواجب إليه ، ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الوالد له ثم قرر ذلك بقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للواحدة الذاتية ، وهي تنافي المماثلة فضلا عن التوالد لأن كل واحد من المثلين مركب من الحقيقة المشتركة ، والتعين المخصوص والقهارية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلي الولد ، ثم استدل على ذلك بقوله :

الآيات من ٥ : ٧

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا

يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

استدلالات على قدرة الله وتفرده بالوحدانية

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس ، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة ، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو منتهى دوره أو منقطع حركته . ﴿ أَلا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء . ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ استدلال آخر بما أوجده

* الإعجاز العلمي

من كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد على البار يقول : وقفةٌ مع آية كريمة « الظلمات الثلاث »

قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ صدق الله العظيم .

قال بعض المفسرين رحمهم الله : إن الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة . فلجدار البطن ظلمة ثم تليها ظلمة جدار الرحم ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، وإذا دققنا النظر في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة .

١ ـ غشاء السلي أو الأمنيون : ويحيط بالجنين مباشرة .

٢ ـ غشاء الكوريون . (الغشاء المشيمى) .

٣ ـ الغشاء الساقط .

ولنتحدث عن كل واحد من هذه الأغشية بشيء من التفصيل :

غشاء السلي أو الأمنيون Amnion :

ويدعى أيضا الرهل كما يعرف بالغشاء الباطن لأنه يحيط بالجنين من كل جانب . وهو عبارة عن كيس غشائى رقيق ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه وسائل يزداد مع نمو

في العالم السفلى مبدوء به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب ، وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات : خلق آدم أولاً من غير أب وأم ، ثم خلق حواء من قصيراه ، ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما . وثم للعطف على محذوف هو

* الإعجاز العلمي

الجنين حتى يبلغ أوجه في الشهر السابع حيث يبلغ حجمه لتراً ونصف اللتر (ووزنه كذلك كيلو جرام ونصف) ولكنه يقل بعد ذلك تدريجيا حتي يبلغ حجمه لتراً واحداً فقط قبل الولادة إلا في بعض الحالات الخاصة التي يزداد فيها السائل الامنيوني زيادة مفرطة كالتوائم والبول السكري وغيره من الحالات المرضية .

وللسائل الأمنيوني فوائد جمة لا يمكن الاستغناء عنها في تكوين الجنين ونموه في (الرحم) ونجملها فيما يلي :

١ ـ تغذية الجنين : يحتوى السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية يمتصها الجنين مما يساعد علي تغذيته ونموه .

٢ ـ حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات العنيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم .

٣ ـ يسمح للجنين بالحركة الكاملة داخل الرحم .

٤ ـ يحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريباً فهو مكيف جيد بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود ضئيلة جداً .

٥ ـ يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية ، فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية .

ويمكن للطبيب أن يأخذ عينة من السائل الأمنيوني فيفحصه مما يساعد على التعرف على بعض الأمراض الوراثية .

هذه جملة وظائف السائل الأمنيوسي أثناء الحمل أما وظائفه أثناء الولادة فلا تقل أهمية عن ذلك إذ أن السائل الأمنيوسي يكون جيب المياه الذي يوسع عنق الرحم الذي لا يتسع حتي للخنصر فإذا به يتسع للوليد بكامله (أكثر من خمسة أصابع) وفي نفس الوقت يقى الجنين من أن ينحشر وينضغط من جدران عنق الرحم أثناء الولادة وما يكون فيها من ضغط عالٍ جداً . . ولولا لطف الله سبحانه وتعالى ثم جيب المياه هذا لتهشم رأس الجنين أثناء الولادة . . ولا يكتفي السائل الأمنيوسي بكل هذا ولكنه يقوم بتمهيد وتعقيم الطريق

صفة نفس مثل خلقها أو علي معنى واحدة أي من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها بها ، أو على خلقكم لتفاوت ما بين الآيتين ، فإن الأولى عادة

*** الإعجاز العلمي**

للجنين عندما ينفجر جيب المياه فيقتل الميكروبات الموجودة في المهبل قبيل الولادة مباشرة حتي يضمن للجنين طريقًا ممهدًا ومعقمًا في نفس الوقت .

غشاء الكوريون : Chorion (الغشاء المشيمي)

وهو الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين ويتوسط بين غشاء الساقط من الخارج والغشاء الأمنيوسي من الداخل .

ويتركب هذا الغشاء من ورقتين هما :

١ ـ خارجية : وبها زغابات وخملات كثيرة تنتقل بواسطتها الأغذية والأوكسجين من الأم إلى الجنين كما ينتقل غاز ثاني أوكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم.

٢ ـ داخلية : تغطي كيس المح أو الصفار وتشمل فيما تشمل مبدأ ظهور الأوعية الجنينية الخارجية .

وغشاء الكوريون يتكون بادئ ذي بدء عند تكون النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو ثمرة التوت وتسمى التوته MORULLA وتتكون هذه الكرة من طبقات من الخلايا فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فتتميز إلى مجموعة من الخلايا الآكلة التي تنشب وتعلق بجدار الرحم .. هذه الطبقة الخارجية التي تعلق وتنغرز في الرحم هي التي تتحول إلى غشاء الكوريون الذي نتحدث عنه .

وتكون هذه العلقة العالقة بجدار الرحم محاطة بالدم المتخثر أو الغليظ ، وتتفرع من الطبقة الخارجية خملات وزغابات عديدة وخلاياها تقضم في جدار الرحم حتى تتمكن البويضة الملقحة من الانغراز في جدار الرحم وتقوم بتغذية اللوح الجنيني الذي يخلق الله سبحانه وتعالى منه الجنين بما تمتصه مباشرة من البرك الدموية المحيطة بها .

وهذه الطبقة من البويضة الملقحة أو التوتة هي الجزء الغير مخلق من الجنين أما الجزء الداخلي فمنه يخلق الجنين . . وهو الذي تتحدث عنه الآية الكريمة في سورة الحج حيث يقول تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء ﴾ . كما أن الجنين قد يدخل في دور التخليق أو تقذفه الأرحام دمًا وهو السقط أو الإجهاض وخاصة في المراحل الأولى لتكون الجنين .

وينمو غشاء الكوريون والخملات مع نمو الجنين ولا يكتفى بامتصاص الغذاء من البرك

مستمرة دون الثانية . وقيل أخرج من ظهره ذريته كالذر ثم خلق منها حواء . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ وقضى أو قسم لكم ، فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتبت في اللوح المحفوظ ، أو أحدث لكم بأسباب نازلة كأشعة

* الإعجاز العلمي

الدموية المحيطة به وإنما تبدأ دورة دموية في غشاء الرحم وتقابلها دورة دموية في غشاء الجنين المشيمي . . وعن طريق الخملات التي يرق جدارها يوماً بعد يوم مع تقدم الحمل ينتقل الغذاء والهواء (الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون) ، كما تنتقل المضادات للأجسام الغريبة من الأم إلى الجنين لتكوّن للجنين جهاز مناعته وفي نفس الوقت تمنع عنه انتقال السموم والميكروبات .

ومع ذلك تقبل الأم ما يخرجه الجنين من إفرازات وسموم ناتجة عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وثاني أوكسيد الكربون فتتقبلها وتأخذها في دورتها الدموية الرحمية أولاً ثم إلى دورتها الدموية حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول . وهكذا ترى أن ثخانة الخملات تختلف من يوم إلى آخر وتتغير حسب نمو الجنين ومتطلباته . وكلما كبر الجنين رق الجدار الفاصل بين دورة الدم الرحمية ودورة الدم في الجنين حتي يسهل عبور المواد الهامة النافعة من الأم إلى الجنين ويتم إخراج المواد الضارة من الجنين إلى الأم .

الغشاء الساقط DECIDUA :

وهو ثالث الأغشية التي تحيط بالجنين من جميع جوانبه . . وهو مكون من الغشاء المخاطي المبطن للرحم ؛ وهو رقيق ، وينمو هذا الغشاء نمواً هائلاً بتأثير هرمون الحمل (البروجستون) فتزيد ثخانته من نصف ميليمتر عند بدء الطهر من الحيض إلى ثمانية ميليمترات آخر الدورة الشهرية وقبيل الحيض . . فإذا ما تم الحمل زادت ثخانته أضعافاً مضاعفة وتزداد فيه الغدد والأوعية الدموية زيادة عظيمة ويتغير تركيبه حتي يصبح أسفنجي القوام . وقد سمي بالغشاء الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم الحيض أو مع دم النفاس إذا كان هناك حمل .

ويقسم الغشاء الساقط إلى ثلاثة أجزاء حسب موقعه من الرحم :

فالغشاء الساقط الموجود بقاعدة الرحم بين الجنين والرحم يسمى بالغشاء الساقط القاعدي DECIDUA BASALIS.

بينما يسمى الغشاء المحيط بالجنين مغلفاً إياه الغشاء المحفظي CAPSU-DECIDUA LARIS لأنه كالمحفظة أو الكبسولة التي تغطي الجنين .وثالث الأغشية يسمى الغشاء الساقط الجداري DECIDUA PARIETALIS وهويغطي بقية جدار الرحم ما عدا الفرجة التي يندغم فيها الجنين .

الكواكب والأمطار . ﴿ مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة ، غير أنه غلب أولي العقل أو خصهم بالخطاب لأنهم المقصودون . ﴿ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ حيوانًا سويًا من بعد عظام مكسوة لحمًا من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، أو الصلب والرحم والبطن . ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي هذه أفعاله . ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ هو المستحق لعبادتكم والمالك . ﴿ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره . ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ يعدل بكم عن عبادته إلى الإشراك .

الله يرضى لعباده الإيمان ولا يرضى لهم الكفر

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ عن إيمانكم . ﴿ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ لاستضرارهم به رحمة عليهم . ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ لأنه سبب فلاحكم ، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك ، وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها وهو لغة فيها . ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم

الآيات من ٨ : ١٠

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾

فزع الإنسان إلي الله في الشدة وابتعاده عنه في الرخاء

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنيباً إِلَيْه ﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه من الخول وهو التعهد ، أو الخول وهو الافتخار . ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ من الله . ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْه ﴾ أي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ، أو ربه الذي كان يتضرع إليه وما ؛ مثل الذي في قوله : ﴿ وما خلق الذكرو الأنثى ﴾ (٢) . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل النعمة . ﴿ وَجَعَلَ لِلَّه أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِه ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، والضلال والإضلال لما كانا نتيجة جعله صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين. ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشهٍّ لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة .

العلماء أعرف الناس بربهم وأخشاهم له

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قائم بوظائف الطاعات . ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته وأم متصلة بمحذوف تقديره الكافر خير أم من هو قانت ، أو منقطعة والمعنى بل أمن هو قانت كمن هو بضده ، وقرأ الحجازيان وحمزة بتخفيف الميم بمعنى أمن هو قانت لله كمن جعل له أنداداً . ﴿ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ حالان من ضمير قانت ، وقرئا بالرفع على الخبر بعد الخبر والواو للجمع بين الصفتين ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه ﴾ في موضع الحال أو الاستئناف للتعليل . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ نفى لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على و جه أبلغ لمزيد فضل العلم . وقيل تقرير للأول على سبيل التشبيه أي كما لا يستوى العالمون والجاهلون لايستوي القانتون والعاصون . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ بأمثال هذه البيانات ، وقرئ يذكر بالإدغام (٣) .

---

(٢) الليل : ٣.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أمن هو قانت ﴾ الآية . نزلت في عثمان بن عفان .

أعظم أجر للصابرين والمخلصين

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ بلزوم طاعته . ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة . وقيل معناه للذين أحسنوا حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية ، وفي هذه بيان لمكان حسنة . ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه فليهاجر إلي حيث يتمكن منه . ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ على مشاق الطاعات من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها . ﴿ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أجراً لا يهتدى إليه حساب الحساب ، وفي الحديث إنه « **ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ، ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صباً حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل** » .

الآيات من ١١ : ١٨

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾

وأخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة .

وأخرج جويبر عن عكرمة قال : نزلت في عمار بن ياسر ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

وحول هذه الآية جاء في تفسير ابن كثير : عن عبيد بن حميد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ علي رجل وهو في الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو وأخاف . فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » ورواه الترمذي والنسائى وابن ماجة .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾موحداً له .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة ، لأن قصب السبق في الدين بالإخلاص أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم ، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة ، والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها فهي أيضا تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين ، ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما في أردت لأن أفعل فيكون أمر بالتقدم في الإخلاص والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء . ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظمة ما فيه .

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم ، ولذلك رتب عليه قوله :

تهديد للمشركين

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم . ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ الكاملين في الخسران . ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالضلال . ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالإضلال . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة لأنهم جمعوا وجوه الخسران . وقيل وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده . ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير بألا ، وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين .

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ ﴾ شرح لخسرانهم . ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

أطباق من النار هي ظلل للآخرين . ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوفهم به ليجتنبوا ما يوقعهم فيه . ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي .

بشرى للمؤمنين

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ البالغ غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت ، ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان . ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل اشتمال منه . ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وأقبلوا إليه بشراشرهم عما سواه . ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل ، أو الملائكة عند حضور الموت . ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير الذين اجتنبوا للدلالة على مبدأ اجتنابهم وأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحق والباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل . ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لدينه . ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة ، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها .

الآيات من ١٩ : ٢٢

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه الكلام تقديره أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، فكررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد ، ووضع

من في النار موضع الضمير لذلك وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه ، وأن اجتهاد الرسل في دعائهم إلى الإيمان سعى في إنقاذهم من النار ، ويجوز أن يكون أفأنت تنقذ جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف .

﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ** ﴾ علالي بعضها فوق بعض . ﴿ **مَّبْنِيَّةٌ** ﴾ بنيت بناء النازل على الأرض . ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أي من تحت تلك الغرف . ﴿ **وَعْدَ اللَّهِ** ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله لهم غرف في معنى الوعد . ﴿ **لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** ﴾ ولأن الخلف نقص وهو على الله محال(٤) .

المتفكر في مظاهر الكون يهتدى بفضل الله إلى الإسلام

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ هو المطر . ﴿ **فَسَلَكَهُ** ﴾ فأدخله . ﴿ **يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ** ﴾ هي عيون ومجارى كائنة فيها ، أو مياه نابعات فيها إذ الينبوع جاء للمنبع وللنابع فنصبها على الظرف أو الحال . ﴿ **ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا**

---

(٤) روي الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات . فقالوا : يا رسول الله أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ : « بلى والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » .

وروى الإمام احمد ايضا من حديث أبي هريرة قال : قلنا يا رسول الله : إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا ، وشممنا النساء والأولاد . قال ﷺ : « لو انكم تكونون علي كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم » . قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام ، وتفتح لها أبواب السموات ، ويقول الرب تبارك وتعالى وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» .

﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يتم جفافه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منبته . ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ من يبسه . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ فتاتًا . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ لتذاكير بأنه لا بد من صانع حكيم دبره وسواه، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها . ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ إذ لا يتذكر به غيرهم (٥) .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ حتي تمكن فيه بيسر عبر به عمن خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبوله غير متأبية عنه من حيث إن الصدر محل القلب المنبع للروح المتعلق للنفس القابلة للإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعنى المعرفة والاهتداء إلى الحق . وعنه ﷺ : « **إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، فقيل فما علامة ذلك قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله** » (٦) وخبر من محذوف دل عليه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ من أجل ذكره وهو أبلغ من أن يكون عن مكان من ، لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبيًا عن قبوله من القاسي عنه لسبب آخر ، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بامتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إليه . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يظهر للناظر بأدنى نظر ، والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده .

---

(٥) في تعليق كتاب معجزة القرآن ص ٤٣ على هذه الآية قال : إن هذه الآية تفسر لنا بأجلى المعاني ، وتصف المياه الأرضية التي تغور في القشرة ، فهي تجري في مسالك تحت غطاء من القشرة ، وتزداد عليها الضغوط حتي تتمكن من الخروج علي هيئة ينابيع دافقة من الصخور ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منها الماء ﴾ البقرة ٧٤ وقال تعالى : ﴿ وجلعنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ يس : ٣٤ .

(٦) أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول ـ الأصل السادس والثمانين ـ .

الآيات من ٢٣ :٢٨

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

القرآن أحسن الحديث

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن ، روى أن أصحاب رسول الله ﷺ ملُّوا مَلَّةً فقالوا له حدثنا فنزلت . وفي الابتداء باسم الله وبناء نزل عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه . ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ بدل من أحسن أو حال منه ، وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحة المغني والدلالة على المنافع العامة . ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مَثْنَى أو مُثَنًّى أو مُثَنٍّ علي ما

* **الإعجاز العلمى**

يضرب الله لنا مثلا للذين يخشون ربهم بأنهم تقشعر جلودهم ويعنى بذلك أن جلد الإنسان هو مصدر الإحساس وإذا كان القرآن الكريم يذكر ذلك صراحة في زمن التنزيل قبل ظهور علوم التشريح وغيرها فإن العلم الحديث أثبت ذلك حديثا وهذا يعود بنا إلى الآية الكريمة رقم ٥٦ سورة النساء والتي تقول ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ... ﴾

أي أن الله سوف يعيد للكفار وهم يعذبون في جهنم جلودهم ـ في إشارة صريحة على أن الجلد هو مصدر الإحساس والألم ـ حتي يذوقوا العذاب مرة أخرى .

ولم يقل القرآن مثلا بدلناهم « عظاما » ولكن قال « جلودا . . » .

وهو إعجاز علمي في زمن التنزيل توصل إليه العلم مؤخرا أن الجلد هو مصدر الإحساس .

مر في الحجر (٧) ، وصف به كتاباً باعتبار تفاصيله كقولك :القرآن سور وآيات ، والإنسان : عظام وعروق وأعصاب ، أو جعل تمييزاً من متشابهاً كقولك : رأيت رجلاً حسناً شمائله (٨) . ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ تشمئز خوفا مما فيه من الوعيد ، وهو مثل في شدة الخوف واقشعرار الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعياً كتركيب اقمطر من القمط وهو الشد . ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ بالرحمة وعموم المغفرة ، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه ، والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والاطمئنان ، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾أى الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء . ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ هدايته . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ ومن يخذله . ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يخرجهم من الضلال .

شتان بين الأمن وغيره يوم القيامة

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ ﴾ يجعله درقة يقي به نفسه لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه .﴿ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ كمن هو آمن منه، فحذف الخبر كما حذف في نظائره .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى لهم فوضع الظاهرموضعه تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم وهو: ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي وباله ، والواو للحال وقد مقدرة .

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ ﴾ الذل . ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كالمسخ والخسف

---

(٧) في الآية رقم ٨٧ ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ .

(٨) أوضح ابن كثير في تفسيره معنى « متشابها مثاني » فقال : إن سياقات القرآن تارة تكون في معني واحد فهذان من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم النار وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ .

والقتل والسبي والإجلاء . ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ ﴾ المعد لهم . ﴿ أَكْبَرُ ﴾ لشدته ودوامه . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون به .

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من هذا والاعتماد فيها علي الصفة كقولك : جاءني زيد رجلاً صالحًا ، أو مدح له . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما هو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني . وقيل بالشك استشهاداً بقوله :

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الإِلَه وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ(٩) .

وهو تخصيص له ببعض مدلوله . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علة أخرى مرتبة على الأولى .

الآيات من ٢٩ : ٣٥

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾

من أمثال القرآن

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾ للمشرك والموحد . ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

---

(٩) ذكره الزمخشري في تفسيرالكشاف دون إسناده إلى قائل وكذلك لم ينسبه المرزوقي في مشاهد الإنصاف إلى أحد .

والخطاب في البيت موجه للنبي ﷺ ، والمراد باليقين والقول : القرآن الكريم .

﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ مثل المشرك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعى كل واحد من معبوديه عبوديته ، ويتنازعوا فيه بعبد يتشارك فيه . جمع يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة في تحيره وتوزع قلبه ، والموحد بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل ، ورجلاً بدل من مثل ، وفيه صلة شركاء ، والتشاكس والتشاخص الاختلاف . وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون سلمًا ، بفتحتين . وقرئ بفتح السين وكسرها مع سكون اللام ، وثلاثتها مصادر سلم نُعتَ بها ، أو حُذفَ منها ذا، ورجل (١٠) سالم أي وهناك رجل سالم ، وتخصيص الرجل لأنه أفطن للضر والنفع. ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ صفة وحالاً ونصبه على التمييز ولذلك وحده ، وقرئ مثلين للإشعار باختلاف النوع ، أو لأن المراد على يستويان في الوصفين على أن الضمير للمثلين فإن التقدير مثل رجل ومثل رجل . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ كل الحمد له لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه ، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم .

تربص الكفار بالنبي ﷺ

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فإن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى ، وقرئ مائت ومائتون لأنه مما سيحدث .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك . واجتهدت في الارشاد والتبليغ ولَجُّوا في التكذيب والعناد ، ويعتذرون بالأباطيل مثل أطعنا سادتنا ووجدنا آباءنا . وقيل : المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضًا فيما دار بينهم في الدنيا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه . ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ وهو ما جاء به محمد ﷺ . ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ من غير توقف وتفكر في أمره . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم ، واللام تحتمل العهد والجنس ، واستدل به على تكفير المبتدعة فإنهم يكذبون بما علم

---

(١٠) أي وقرئ رجلٌ سالم على أنه مرفوع بالابتداء والتقدير : وهناك رجل سالم .

صدقه ، وهو ضعيف لأنه مخصوص بمن فاجأ ما علم مجيء الرسول به بالتكذيب .

﴿ وَالَّذي جَاءَ بالصّدْق وَصَدَّقَ به ﴾ اللام للجنس ليتناول الرسل والمؤمنين لقوله : ﴿ أُولَئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وقيل هو النبي ﷺ والمراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدن ﴾(١١) . وقيل الجائي هو الرسول ﷺ والمصدق أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وذلك يقتضي إضمار الذي وهو غير جائز . وقرئ وصدق به بالتخفيف أي صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل من غير تحريف ، أو صار صادقًا بسببه لأنه معجز يدل على صدقه وصدق به علي البناء للمفعول .

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِنـدَ رَبِّهِمْ ﴾ في الجنة . ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم .

﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذي عَمِلُوا ﴾ خص الأسوأ للمبالغة فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك ، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون وأن ما يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم ، ويجوز أن يكون بمعنى السيء كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، وقرئ أسواء جمع سوء . ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم ﴾ ويعطيهم ثوابهم . ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فتعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها .

الآيات من ٣٦ : ٤١

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

(١١) المؤمنون : ٤٩ .

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

الله كاف عبده وهو النبي ﷺ ومن سار على نهجه

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات ، والعبد رسول الله ﷺ ويحتمل الجنس ويؤيده قراءة حمزة والكسائي عباده ، وفسر بالأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني قريشا فإنهم قالوا له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعيبك إياها . وقيل إنه بعث خالداً ليكسر العزى فقال له سادنها أحَذِّرُكَهَا فإن لها شدة ، فعمد إليها خالد فهشم أنفها فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه لأنه الآمر له بما خوف عليه . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ حتي غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر . ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الرشاد .

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع . ﴿ ذِي انتِقَامٍ ﴾ ينتقم من أعدائه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخلقية . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ أي أرأيتم بعد ما تحققتم أن خالق العالم هو الله تعالى وأن آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضر هل يكشفنه . ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ بنفع . ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ فيمسكنها عني ، وقرأ أبو عمرو كاشفات ضره ممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته . ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ كافياً في إصابة الخير ودفع الضر إذ تقرر بهذا التقرير أنه القادر الذي لا مانع لما يريده من خير أو شر . روي أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا فنزل ذلك ، وإنما قال كاشفات وممسكات على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها . ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لعلمهم بأن الكل منه تعالى (١٢) .

---

(١٢) من الأحاديث الواردة في هذا المعنى ، ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم ، اسم للمكان استعير للحال كما استعير هنا وحيث من المكان للزمان ، وقرئ مكاناتكم . ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أى على مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا يقف فإنه تعالي يزيده علي مر الأيام قوة ونصرة ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فإن خزى أعدائه دليل غلبته ، وقد أخزاهم الله يوم بدر . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم وهو عذاب النار .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متلبساً به . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفع به نفسه . ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فإن وباله لا يتخطاها . ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت .

الآيات من ٤٢ : ٤٧

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ

الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام » ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٣ ـ .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن احب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله ـ عز وجل ـ أوثق منه بما في يديه ، ومن احب أن يكون أكرم الناس فليتق الله » المرجع السابق .

وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾

الموت والحياة بيد الله عز وجل

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أى يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً وذلك عند الموت ، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم . ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ ولا يردها إلى البدن ، وقرأ حمزة والكسائى قُضِيَ بضم القاف وكسرالضاد والموت بالرفع . ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ ﴾ أى النائمة إلى بدنهاعند اليقظة . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الوقت المضروب لموته وهو غاية جنس الإرسال . وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والحياة ، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم . قريب مماذكرناه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ من التوفى والإمساك والإرسال . ﴿ لآيَاتٍ ﴾ دالة علي كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته. ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيهاعنها بالكلية حين الموت ، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها ، وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفى آجالها .

لله الشفاعة جميعاً

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا ﴾ بل اتخذت قريش . ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ تشفع لهم عند الله . ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴾ ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم .

﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ لعله رد لما عسى يجيبون به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم ، والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه ، ولا يستقل بها ثم قرر ذلك فقال : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فيكون الملك له أيضًا حينئذ .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم .﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ انقبضت ونفرت . ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله ، ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلئ غمًا حتى ينقبض أديم وجهه ، والعامل في ﴿ إذا ذكر ﴾ العامل في إذا المفاجأة .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ التجئ إلى الله بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وضجرت من عنادهم وشدة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء والعالم بالأحوال كلها .﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فأنت وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم .

عجز الكفار عن فداء أنفسهم من النار يوم القيامة

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص . ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ زيادة مبالغة فيه وهو نظير قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم ﴾ (١٣) في الوعد .

الآيات من ٤٨ : ٥٣

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ

---

(١٣) السجدة : ١٧ .

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض صحائفهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وأحاط بهم جزاؤه .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ، والعطف على قوله ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ (١٤) بالفاء لبيان مناقضتهم وتعكيسهم في التسبب بمعنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشر بذكره ، وما بينهمااعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أعطيناه إياه تفضلاً فإن التخويل مختص به . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ مني بوجوه كسبه ، أو بأني سأعطاه لما لي من استحقاقه ، أو من الله بي واستحقاقي ، والهاء فيه لما إن جعلت موصولة وإلا فللنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها . ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ امتحان له أيشكر أم يكفر ، وهو رد لما قاله وتأنيث الضمير باعتبار الخبر أو لفظ النعمة ، وقرئ بالتذكير . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، وهو دليل على أن الإنسان للجنس .

﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الهاء لقوله ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾(١٥) لأنها كلمة أو جملة ، وقرئ بالتذكير ﴿ والذين من قبلهم ﴾ قارون وقومه فإنه قال ورضي به قومه . ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو جزاء أعمالهم، وسماه سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة رمزاً إلى أن جميع أعمالهم كذلك . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالعتو . ﴿ مِنْ هَؤُلاءِ ﴾ المشركين ومن للبيان أو للتبعيض . ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ كما أصاب أولئك ، وقد أصابهم فإنهم قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم . ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين.

(١٤) الزمر : ٤٥ .
(١٥) الزمر : ٤٩ .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعًا ثم بسط لهم سبعًا . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الحوادث كلها من الله بوسط أو غيره .

فتح باب التوبة أمام المذنبين

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي ، وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن . ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانيًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ عفواً ولو بَعْدَ بُعْد ، تقييده بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية ، والتعليل بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة ، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الذلة ، والاختصاص المقتضيين للترحم ، وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقًا عن الرحمة فضلاً عن المغفرة ، وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعًا ، ووضع اسم الله موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع . وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : **« ما أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها بها ، فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات »** (١٦) . وما روى أن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يغفر له فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس فنزلت (١٧) . وقيل في عياش والوليد بن الوليد في جماعة افتتنوا (١٨) أو في الوحشي(١٩) ، لا

---

(١٦) أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان ـ وفى إسناده مقال على ما ذكره ابن حجر رحمه الله .

(١٧) أخرجه السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول في سبب نزول الآية رقم ٦٨ من سورة الفرقان ، وقال : أخرجه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(١٨) عياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن المغيرة أخوخالد بن الوليد ، كانا من بين بعض المسلمين الذين حال المشركون بينهم وبين الهجرة ، وفتنوهم وعذبوهم فافتتنوا فكانوا يقولون لا يقبل الله لنا صرفا ولا عدلا . . فنزلت هذه الآية فكتب بهاعمر بن الخطاب إليهم فأسلموا وهاجروا . ـ تفسير الكشاف ـ .

ينفي عمومها وكذا قوله :

الآيات من ٥٤ : ٥٩

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ
(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ
وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ
جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ بأنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن التوبة والإخلاص في العمل وتنافي الوعيد بالعذاب .

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ القرآن أو المأمور به دون المنهى عنه ، والعزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ، ولعله ماهو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة . ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه فتتداركوا .

حسرة الكفار يوم القيامة

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ كراهة أن تقول وتنكير نفس لأن القائل بعض الأنفس أو للتكثير كقول الأعشى :

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ... أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضبا (٢٠)

---

(١٩) وحشى : هو قاتل حمزة رضي الله عنه في أحد ، وقد أورد السيوطي في لباب النقول أن هذه الآية نزلت فيه فأسلم . ـ لباب النقول ـ سورة الزمر .

(٢٠) قيل : هذا البيت للأعشى ، وقيل : لأبي عمرو بن العلاء ، والشاعر أيا كان منهما يصف قومه بالجبن حتي كأنهم أموات مقبورون ، وربما كانوا دون أولئك الأموات ، فرب بقيع ـ وهو الموضع الذي أروم الشجر من أنواع شتي ، ويقصد به المقبرة ـ لو هتفت بمن

﴿ يَا حَسْرَتَىٰ ﴾ وقرى بالياء على الأصل . ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ ﴾ بما قصرت . ﴿ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ في جانبه أي في حقه وهو طاعته . قال سابق البربري :

أَمَا تَتَّقِينَ الله فِى جَنْبٍ وَامِقٍ ... لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكَ تَقَطَّعِ (٢١) .

وهو كناية فيها مبالغة كقوله :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِى قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ (٢٢)

وقيل : ذاته على تقدير مضاف كالطاعة وقيل بالجنب وقرئ في ذكر الله . ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ المستهزئين بأهله ومحل ﴿ إن كنت ﴾ نصب على الحال كأنه قال فرطت وأنا ساخر .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾ بالإرشاد إلى الحق . ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ الشرك والمعاصي .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في العقيدة والعمل ، وأو للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته (٢٣) .

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾رد من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿ لو أن الله هداني ﴾ من معني النفي وفصله عنه لأن

فيه لجاءني كريم ينفض رأسه من تراب القبر غضباً لما نالني من المكروه .

ويروى البيت : بحوه بالحاء المهملة وهو الكريم الشجاع ، وبجوه بالجيم المعجمة ، وهو ما غلظ من الأرض ـ من مشاهد الإنصاف للمرزوقي ـ .

(٢١) البيت للشاعر العذري جميل بن معمر يخاطب بثينة ويستعطفها

والوامق : شديد المحبة ـ والكبد الحرّى : ذات حر واحتراق .

(٢٢) البيت لزياد الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور ، والبيت فيه كناية عن نسبة السماحة والمروءة والكرم إلى ابن الحشرج .

(٢٣) حول هذه الآية وتحسر الكافرين يوم القيادة روي الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة . قال : وكل أهل الجنة يري مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، قال فيكون له الشكر » ـ مختصر ابن كثير جـ ٤ ص ٥٩ .

تقديمه يفرق القرائن وتأخيرالمودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمني الرجعة ، وهو لا يمنع تأثير قدرة الله فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب على المعنى ، وقرئ بالتأنيث للنفس .

الآيات من ٦٠ : ٦٥

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد . ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل ، والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصرواكتفى فيها بالضمير عن الواو . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ مقام . ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لأنهم يرون كذلك .

نجاة المتقين

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وقرئ وينجى . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بفلاحهم مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب ، وقرأ الكوفيون غير حفص بالجمع تطبيقًا لهم والباء فيها للسببية صلة لينجي أو لقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهو حال أو استئناف لبيان المفازة .

الله رب كل شيء وخالقه

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولى التصرف .

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره ، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص ، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها ، وهو جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا ألزمته ، وقيل جمع أقليد معرب اكليد على الشذوذ كمذاكير . وعن عثمان رضي الله عنه : أنه سأل النبي ﷺ عن المقاليد فقال : « **تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولاقوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير** » (٢٤) . والمعنى على هذا إن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ متصل بقوله ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجازعليها ، وتغيير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم ، وللتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية للكرم أو بما يليه ، والمراد بآيات الله دلائل قدرته واستبداده بأمر السموات والأرض ، أو كلمات توحيده وتمجيده وتخصيص الخسار بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي أفغير الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد ، وتأمروني اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا : اسْتَلِمْ بَعْضَ آلهتنا ونؤمن من بإلهك لفرط غباوتهم ، ويجوز أن ينتصب غير بما دل عليه تأمروني أن أعبد لأنه بمعني تعبدونني على أن أصله تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع كقوله :

أَلا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرِ الوَغَى

ويؤيده قراءة أعبدَ بالنصب ، وقرأ ابن عامر تأمرونني بإظهار النونين على الأصل

---

(٢٤) أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو يعلي ، والعقيلي ، والبيهقي في الأسماء ، والطبراني في الدعاء، وأسندوه إلى ابن عمر رضي الله عنهما . وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه . وله وجه آخر عند ابن مردويه مسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال هذا الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف .

ونافع بحذف الثانية فإنها تحذف كثيرا .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي من الرسل . ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كلام على سبيل الفرض ، والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة ، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب ، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح ، وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم** ﴾[٢٥] وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب

الآيات من ٦٦ : ٦٩

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) ﴾

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على الاختصاص لم يكن كذلك . ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص .

جهل الكفار بقَدْر الله وعظمته

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما قدروا عظمته في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ، وقرئ بالتشديد . ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ تنبيه على عظمته وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإضافة إلى قدرته ، ودلالة على أن تخريب

---

(٢٥) البقرة : ٢١٧ .

العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم : شابت لمة (٢٦) الليل ، والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة . وقرئ بالنصب على الظرف تشبيهاً للمؤقت بالمبهم ، وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة . وقرئ مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الأرض منظومة في حكمها . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعد وأعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم ، أو ما يضاف إليه من الشركاء (٢٧) .

---

(٢٦) لمة الليل : اللِّمة ـ بكسر اللام ـ شعر الراس المجاور لشحمة الأذن ويجمع على لِمم ولِمام ـ بكسر اللام .

(٢٧) جاء في سبب نزول هذه الآية :

أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر يهودي بالنبي ﷺ فقال : كيف نقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه ، والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ـ وأشار إلى أصابعه ـ فأنزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره .. ﴾ الآية والحديث في الصحيح بلفظ : فتلا دون فأنزل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : غدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وأخرج عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ قالوا : يا رسول الله ، هذا الكرسي فكيف العرش ؟ فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ الآية . ـ لباب النقول للسيوطي ـ .

وجاء في تفسير الكشاف : يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ تعجبا مما قال : ثم قرأ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ يعنى المرة الأولى . ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ خر ميتاً أو مغشياً عليه . ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم يموتون بعد . وقيل حملة العرش . ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ نفخة أخرى وهي تدل على أن المراد بالأولى ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع ، وأخرى تحتمل النصب والرفع . ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم أو متوقفون ، وقرئ بالنصب على أن الخبر . ﴿يَنظُرُونَ ﴾ وهو حال من ضميره والمعنى : يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم(٢٨) .

القضاء بين العباد

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدل ، سماه نور لأنه يزين

وقد تعقب الحافظ ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف هذا الحديث وقال : ليس جبريل هو الذي جاء إلى رسول الله ﷺ وقال ما قال ، بل الصواب أنه خبرمن أخبار اليهود لا جبريل ، ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي . ويؤيده أن « يا أبا القاسم » عادة اليهود في ندائه ﷺ .

(٢٨) من الآثار الواردة في بيان ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتى فيمكث فيها أربعين ـ لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتي إن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه ـ قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ويبقى شرار الناس في خفة الطيروأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا . قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ، وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقهم ـ حَسَنٌ عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ، فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطرا كأنه الطل ـ أو الظل ـ (شك نعمان) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس . هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شيبا ، ويومئذ يكشف عن ساق » وانفرد بإخراجه مسلم في صحيحه .

والِّليت ـ بكسر اللام ـ صفحة العنق .

البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة . وفي الحديث : « **الظلم ظلمات يوم القيامة** » [٢٩] ولذلك أضاف اسمه إلى الأرض أو بنور خلق فيها بلا واسطة أجسام مضيئة ولذلك أضافه إلى نفسه . ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾ للحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال، واكتفى باسم الجنس عن الجمع . وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف . ﴿ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين، وقيل المستشهدون . ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم** ﴾ بين العباد . ﴿ **بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد

الآيات من ٧٠ : ٧٣

﴿ **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)** ﴾

﴿ **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ** ﴾ جزاءه . ﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم ، ثم فصل التوفيه فقال :

﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا** ﴾ أفواجًا متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة ، جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ، أو من قولهم شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل . ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ ليدخلوها ، وحتى هي التي تحكي بعدها الجملة ، وقرأ الكوفيون فتحت بتخفيف التاء .

---

(٢٩) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ـ ورواه مسلم عن جابر ، والنسائى وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تقريعًا وتوبيخًا . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من جنسكم . ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب . ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة . وقيل هو قوله ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(٣٠) .

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ مكان . ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ اللام فيه للجنس والمخصوص بالذم سبق ذكره ، ولا ينافي إشعاره بأن مثواهم في النار لتكبرهم عن الحق أن يكون دخولهم فيها لأن كلمة العذاب حقت عليهم ، فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه كما قال ﷺ : « **إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتي يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار** » .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ إسراعًا بهم إلى دار الكرامة ، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين . ﴿ زُمَرًا ﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ حذف جواب إذا للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف ، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين ، وقرأ الكوفيون فتحت بالتخفيف . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا يعتريكم بعد مكروه . ﴿ طِبْتُمْ ﴾ طهرتم من دنس المعاصي . ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ مقدرين الخلود فيها ، والفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم ، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه لأنه مطهره

---

(٣٠) هود : ١١٩ ، والسجدة : ١٣ .

الآيتان من ٧٤ : ٧٥

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ بالبعث والثواب . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة ، وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه . ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مقام أراده من جنته الواسعة ، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها . ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ الجنة .

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ ﴾ محدقين . ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ أي حوله ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ملتبسين بحمده . والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى ، والمعنى ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به ، وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة ، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم علي حسب تفاضلهم . ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي على ما قضي بيننا بالحق . والقائلون هم المؤمنون من المقضى بينهم أو الملائكة وعلى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم .

فضل سورة الزمر

عن النبي ﷺ : « **من قرأ سورة الزمر لم يقطع رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين** » عن عائشة رضي الله عنها : « **أنه ﷺ كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر** » (٣١) والله أعلم .

---

(٣١) ذكره الزمخشري في الكشاف ، وقال الحافظ ابن حجر : أخرجه النسائى من رواية حماد بن زيد عن أبي أمامة عن عائشة رضي الله عنها في أثناء حديث . وأخرجه أحمد وإسحاق وابو يعلي والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب التاسع عشر من هذا الوجه .

(٤٠) سورة غافر مكية

وآياتها خمس وثمانون (١)

الآيات من ١ : ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾

﴿ حمٓ ﴾ أماله ابن عامر وحمزه والكسائى وأبو بكر صريحا، ونافع برواية ورش وأبو عمرو بين بين ، وقرئ بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين ، أو النصب بإضمار اقرأ ومنع صرفه للتعريف والتأنيث ، أو لأنها علي زنة أعجمي كقابيل وهابيل.

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة .

مغفرة الله لذنوب المستغفرين وقبول توتبهم

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ صفات أخري لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحث علي ما هو المقصود منه ، والإضافة فيها حقيقة علي أنه لم يرد بها زمان مخصوص ، وأريد بشديد العقاب مشددة أو

---

(١) في تفسير ابن كثير : مكية سوى الآيتين ٥٦ ، ٥٧ فمدنيتان.
وفي تفسير الكشاف : مكية . قال الحسن إلا قوله ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ وهي الآية رقم ٥٥ ، لأن الصلوات نزلت بالمدينة .
وقد قيل في الحواميم كلها : إنها مكيات عن ابن عباس وابن الحنفية .
ونزلت هذه السورة بعد الزمر .

الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس ، أو إبدال وجعله وحده بدلا مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد ، أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون لذنب باق وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . والتوب مصدر كالتوبة . وقيل جمعا ، والطول الفضل بترك العقاب المستحق ،وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها . ﴿ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ فيجب الإقبال الكلي علي عبادته . ﴿ **إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ فيجازي المطيع والعاصي .

جدال الكافرين بالباطل

﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ لما حقق أمر التنزيل سجل بالكفر علي المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق لقوله . ﴿ **وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ (٢) وأما الجدال فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ به وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «**إن جدالا في القرآن كفر** » (٣) بالتنكير مع أنه ليس جدالا فيه علي الحقيقة . ﴿ **فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ** ﴾ فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال :

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ والذين تحزبوا علي الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعاد وثمود . ﴿ **وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ** ﴾ من هؤلاء . ﴿ **بِرَسُولِهِمْ** ﴾ وقرئ برسولها . ﴿ **لِيَأْخُذُوهُ** ﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل من الأخذ بمعني الأسر . ﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ** ﴾ بما لا حقيقة له . ﴿ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾ ليزيلوه به . ﴿ **فَأَخَذْتُهُمْ** ﴾ بالإهلاك جزاء لهم . ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ فإنكم تمرون علي دياهم وترون أثره ، وهو تقرير فيه تعجيب .

---

(٢) غافر : ٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان في الشعب التاسع عشر من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه : « لا تجادلوا في القرآن فإن جدالا فيه كفر » .

الآيات من ٦ : ٩

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ وعيده أو قضاؤه بالعذاب . ﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بكفرهم . ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ بدل من كلمة ربك بدل الكل أو الاشتمال علي إرادة اللفظ أو المعني .

استغفار الملائكة للمؤمنين .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ الكروبيون أعلي طبقات الملائكة وأولهم وجودا وحملهم إياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ، أو كناية عن قربهم من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسطهم في نفاذ أمره . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يذكرون الله بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام ، وجعل التسبيح حالاً أصلاً والحمد حالا لأن الحمد مقتضي حالهم دون التسبيح أصلاً . ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أخبر عنهم بالإيمان إظهارا لفضله وتعظيما لأهله ومساق الآية لذلك كما صرح به بقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وإشعارا بأن حملة العرش وسكان الفرش في معرفته سواء ردا علي المجسمة ، واستغفارهم شفاعتهم وحملهم علي التوبة وإلهامهم ما يوجب المغفرة ، وفيه تنبيه علي أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس لأنها أقوي المناسبات كما قال تعالي ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٤) . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ربنا وهو بيان ليستغفرون أو حال . ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي

---

(٤) الحجرات : ١٠ .

وسعت رحمتك وعلمك فازيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والبالغة في عمومها ، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ها هنا . ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد والدلالة علي شدة العذاب .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ وعدتهم إياها . ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف علي هم الأول أي أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم ، أو الثاني لبيان عموم الوعد ، وقرئ جنة عدن وصلح بالضم وذريتهم بالتوحيد . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد . ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ العقوبات أو جزاء السيئات ، وهو تعميم بعد تخصيص ، أو تخصيص بمن صلح أو المعاصي في الدنيا لقوله : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أي ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا السبب بعد ما سألوا المسبب . ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما .

الآيات من ١٠ : ١٤

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾

الكفار يمقتون أنفسهم فيردونها موارد التهلكة بكفرهم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ ﴾ يوم القيامة فيقال لهم : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن

مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمارة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه أخبر عنه ، ولا للثاني لأن مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عاينوا جزاء أعمالهم الخبيثة إلا أن يؤول بنحو بالصَّيْفِ ضيَّعْتِ اللَّبَن أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ إماتتين بأن خلقنا أمواتا أولا ثم صيرتنا أمواتا عند انقضاء آجالنا ، فإن الإماتة جعل الشئ عادم الحياة ابتداء أو بتصيير كالتصغير والتكبير ، ولذلك قيل : سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل ، وإن خص بالتصيير فاختيار الفاعل المختار أحد مفعوليه تصيير وصرف له عن الآخر . ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءة الأولي وإحياءة البعث . وقيل : الإماتة الأولي عند انخرام الأجل، والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال ، والإحياءان ما في القبر والبعث ، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكترثوا به ولذلك تسبب بقوله : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ فإن اقترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث . ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ نوع خروج من النار . ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴾ طريق فنسلكه وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعللا وتحيرا ولذلك أجيبوا بقوله :

﴿ ذَلِكُم ﴾ الذي أنتم فيه . ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أنه . ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ متحدا أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية . ﴿كَفَرْتُمْ ﴾ بالتوحيد . ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ بالإشراك . ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد الدائم . ﴿الْعَلِيِّ﴾ عن أن يشرك به ويسوي بغيره . ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ حيث حكم علي من أشرك وسوي به بعض مخلوقاته في استحقاق العبادة بالعذاب السرمد .

آيات الله في الكون مبعث للإيمان ولكن الكافرين غافلون

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة علي التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلا لنفوسكم . ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أسباب رزق كالمطر مراعاة لمعاشكم . ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوي . ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ يرجع عن الإنكار

بالإقبال عليها والتفكر فيها ، فإن الجازم بشئ لا ينظر فيما ينافيه .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من الشرك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ إخلاصكم وشق عليهم .

الآيات من ١٥ : ١٩

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾

تفرد الله بالعظمة والملك

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ خبران آخران للدلالة علي علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال علي تفرده في الألوهية ، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمال وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به ، وقيل الدرجات مراتب المخلوقات أو مصاعد الملائكة إلي العرش أو السموات أو درجات الثواب . وقرئ رفيع بالنصب علي المدح . ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ خبر رابع للدلالة علي أن الروحانيات أيضا مسخرات لأمره بإظهار آثارها وهو الوحي ، وتمهيد للنبوة بعد تقرير التوحيد والروح الوحي ومن أمره بيانه لأنه أمر بالخير أو مبدؤه والأمر هو الملك المبلغ .

﴿ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يختاره للنبوة ، وفيه دليل علي أنها عطائية .

﴿ لِيُنذِرَ ﴾ غاية الإلقاء والمستكن فيه لله،أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني . ﴿ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ يوم القيامة ، فإن فيه تتلاقي الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال .

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شيء أو

ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان ، أو أعمالهم وسرائرهم . ﴿ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم ، وهو تقرير لقوله هم بارزون وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا . ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به ، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط ، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائما .

لا ظلم لأحد يوم الجزاء والله يقضي بالحق

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ كأنه نتيجة لما سبق ، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها ، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذتها وألمها . ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ينقص الثواب وزيادة العقاب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أى القيامة سميت بها لأزوفها أى قربها ، أو الخطة الآزفة وهى مشارفتهم النار وقيل الموت . ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا .

﴿ كَاظِمِينَ ﴾ علي الغم حال من أصحاب القلوب علي المعني لأنه علي الإضافة ، أو منها أو من ضميرها في لدي وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ (٥) أو من مفعول أنذرهم علي أنه حال مقدرة . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قريب مشفق . ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ولا شفيع مشفع ، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة علي اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلي غير المحرم واستراق النظر إليه ، أو خيانة الأعين . ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ من الضمائر ، والجملة خبر خامس للدلالة علي أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء .

---

(٥) الشعراء : ٤

يطلب من مكتبات الأهرام وسائر مكتبات الجمهورية
رقم الإيداع في دار الكتب ١١٤٢٠ / ٩٧

تم بحمد الله المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس

